التعابير القرآنية والبيئة العربية

في مشاهد القيامة

تأليف
ابتسام مرهون الصفار

مطبعة الآداب في النجف الأشرف

التعابير القرآنية والبيئة العربية
في مشاهد القيامة

التعابير القرآنية والبيئة العربية

في مشاهد القيامة



تأليف
ابتسام مرهون الصفار

محرم / ١٣٨٦ هـ ايار / ١٩٦٦ م

الطبعة الاولى

مطبعة الاداب في النجف الاشرف

١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد كان القرآن الكريم ـ معجزة الرسول العربي الدينيــة ـ حدثا عظيما في حياة العرب احدث انقلابا في حياتهم السياسية والفكرية والادبية ذلك لان اللغـة العربية كانت في أوج ازدهارها ، وتقـدمها فجاء القرآن الكريم في بلاغته وبيانه ممثلا لها . واثار اسلوبه البياني دهشة العرب فسرعان ما آمنت به نفوس بعضهم ، واطمأنت لما فيه من احكام وتعاليم ، وضلت الاخرى عن الهدى ولكن الاسلوب القرآني خلب البابهـا ، واثار دهشتها فقالت (ان هذا إلاسحر يؤثر) سورة المدثر ٧٤ : ٢٤ وأراد الله سبحانه وتعالى ان يثبت نبوة محمد (ص) فلم يختر الا الاسلوب القرآني يتحدى به العرب ان يأتوا بسورة من مثله (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ـ ولن تفعلوا ـ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين) سورة البقرة ٢ : ٢٣ ـ ٢٤. واجتمع جبابرة قريش وفطاحلها ولكن بغير جدوى لان الايات الكريمة تسير باسلوب خاص يسحر الالباب وقصة ايمان عمر بن الخطاب لمجرد سماعه آيات من الذكر الحكيم مشهورة تذكرنا بالتأثير العظيم الذي كان القرآن الكريم يتركه في نفوس سامعيه مسلمين ومشركـين . ومن هنــا أكـد القرآن الـكريم ضرورة سمــاع المشركين للايات الكريمة لانهم ان سمعوها لابد ان يتأثروا باسلوبها الرائع (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) سورة

التوبة ٩ : ٦ . ولنا ان نتساءل هل يستطيع القارىء العربي في هذا العصر ان يفهم الايات الكريمة كما فهمها العرب ايام نزولها ؟ مما لاشك فيه ان القرآن الكريم خالد معجز بروعة اسلوبه ، وجماله البياني الا ان القارىء العربي اليوم يقرأ الايات الكريمة فيعجب بها ، ويفهم المعنى العام الذي توحيه حتى اذا تعمق في فهم الايات الكريمة وجد فيها معانٍ لم يفهمها من قبل ، وروعة لايلحقها اسلوب آخر فيتأمله باعجاب لايستطيع معه إلا أن يقر الاقدمين على اعجازه وروعته .

ان فهم القرآن بدراسة دلالة الفاظه تقربنا من الصورة التي فهمها العرب ، ذلك لان الله سبحانه وتعالى انزل القرآن بلغة العرب ، واساليبهم الكلامية . ومن هنا تفيدنا دراسة دلالة التعابير القرآنية على فهم الاعجاز الذي ترسمه الآيات الكريمة المختلفة . وهي دراسة تفتقر اليها المكتبة العربية - خاصة الحديثة - التي صبت اكثر اهتمامها على الادب والشعر ناسية القرآن الذي يمثل روعة العربية فى سحرها وبيانها .

ودراسة البيئة امر مفيد ، لان لها اهمية عظيمة في توجيه تفكير الانسان وتطوير لغته ذلك لان الانسان ابن بيئته فيها يعيش ، وعليها تنمو لغته واساليبه في الحياة . ومع ان الاقدمين لم يولوا دراسة البيئة اهمية كبيرة الا اننا لانعدم اشارات لطيفة اوردها الجاحظ مبينا اهمية البيئة في خلق الانسان وعاداته ، وتبعه في هذا آخرون كابن رسته والقزويني وابن خلدون وغيرهم ممن نهج منهج الجاحظ ، الا أن هذه كلها كانت اشارات تعطينا بداية لمثل هذا البحث الطريف .

اما دراسة التعابير القرآنية على ضوء البيئة العربية فمنهج تفتقر اليه الدراسات القرآنية ايضا ، ذلك لان المفسرين اتجهوا كل الى وجهة خاصة في تفسير القرآن الكريم فمنهم من اولى غريب القرآن اهتمامه كأبي عبيدة

والسجستاني ، وابن قتيبة ، ومنهم من شابت تفسيره اخبار أهل الكتاب وما يسمى بالاسرائيليات كمقاتل بن سليمان مثلاً ، ومنهم من صب اهتمامه على الناحية الفقهية والمذهبية كالتستري ، وفرات الكوفي مثلا ومنهم من اعتمد على نقل الروايات في التفسير كالطبري والطوسي . واخيرا هناك من وجه اهتمامه ليدافع عن فكرة التزمها كالزمخشري في تفسيره حين ضمنه تأكيده على مذهب الاعتزال الى جانب اهتمامه بالاسلوب البياني حين حاول ان يبين اوجــه المجاز الذي استعملت فيه الكلمة ثم مايعكسه هذا المجاز في بعض الاحيان من دلالة على البيئة والذوق العربي كما سنراه في بحثه عن الزرقة .

أما المعاجم اللغوية فقـد رتبت فيها الالفاظ ترتيبا ابجديا ، واهمل فيها التدرج التأريخي لتطور دلالة الكلمة . ومن هنا كان بحثي قياساً الى تفاسير الاقدمين دراسة جديدة لفهم التعابير القرآنية ودلالة الالفاظ . إلا ان هذا لايعني انعـدام الاشارة الى هذا المنهج عنـد الاقدمين فقد حاول ابن فارس في معجم مقاييس اللغة ان يضع اصلا واحداً او اصلين لكل كلمة تدور حوله جميـع مشتقاتها مـع تطور معانيها ، إلا انه يختلف عن منهجنا في هذه الرسالة في انه يضع الاستعمال المعنوي للكلمة اصلا لها فيبتعد بذلك عن البيئة التي يشترط ان تبدأ فيها دلالة الالفاظ الحسية ومنها تتطور الى المجازية والمعنوية . كما نجد في كتاب الزينـة للرازى محاولة جـديدة في هذا الباب لدراسة الالفاظ الاسلامية ، وتتبع معانيها الاصلية إلا انه ما ان يسير شوطاً على هذا المنهج حتى ينحو في بحثه نهج معاصريه فيتحول بحثه الى دراسة عن الفرق ، والمذاهب الاسلامية مبتعـدا عن المنهج الذي سار عليه في اول كتابه . ونجد مثل هذا بصورة اوضح عند الشريف الرضي فى شرحه لمجازات القرآن الكريم والحديث النبوي ، والشريف المرتضى في اماليه حين بين اوجه المجاز وعاد بنا الى الاصل الحسي لبعض المجازات ،

ولكنها إيضا اشارات محدودة ، وليست منهجا معينا بذاته .

كل هذه الطرف التي وجدناها عند الاقدمين ألقت ضوءاً كاشفا رسم لي معالم هـذا البحث واخذ بيدى للسير في خضم التعابير القرآنية ، وما توحيه من الصور الرائعة العديدة . وقد وجدت في دراسة بعض المحدثين عونا لي في هذا البحث كان اولها محاضرات النقد الادبي التى القاها علينا استاذي الدكتور جميل سعيد والتي وجهنا فيها الى دراسة البيئة والذوق العربى قبل دراسة النص الادبي مما اعاننا على تذوق النصوص الادبية وفهمها فهما بيانيا . ثم محاضرات فقه اللغة التي وجهنا فيها الاستاذ الدكتور ابراهيم السامرائي لدراسة اللفظة دراسة موضوعية ترتب فيها معانيها ترتيباً تأريخيا ابتداء من اصولها الحسية الى المجازية . وفي الجمع بين هذين التوجيهين بدأ اعجابي بمثل هذه الدراسة القيمة . ثم كانت محاضرات السنة التحضيرية (البيئة الصحراوية وأثرها في الادب الجاهلي) لاستاذى الدكتور جميل سعيد فاتحة جديدة لبحث تطبيقي لاهمية البيئة على الادب واللغة بصورة عامة كان يؤكد لنا فيها ضرورة تطبيق هذا المنهج على نص القرآن الكريم مما وجهني الى كتابة بحث صغير في موضوع الجنة والنار فتح امامي ابوابا واسعة لهذا البحث الطريف وعلق نفسي بدراسة القرآن الكريم . ومن هنا كانت فكرة الرسالة وتوسيع ذلك البحث الصغير الى بحث دقيق موجه .

اما دراسة القرآن الكريم على ضوء البيئة العربية فأول ما وجدته في مقال قيم نشرته مجلة الهيئة المغربية بعنوان البيئة العربية في القرآن الكريم للاستاذ الدكتور ابراهيم السامرائي عرض فيه صورا رائعة من البيئة العربية متجلية في مشاهد عديدة من القرآن الكريم مما القى ضوءاً جديداً على منهجي في هذا البحث . وممن كتبوا في هذا الموضوع الدكتورة بنت الشاطىء في كتابها (التفسير البياني للقرآن الكريم) الذي حاولت فيه دراسة الاسلوب

القرآني بما يوحيه من صور بيانيه مبتعدة في ذلك عن الشروح اللغوية واستطراد المفسرين وبحثها هذا يختلف عن منهجي في الرسالة في انها اكتفت بفهم المعاني المتعددة التي يوحيها اللفظ على حين حاولت ان اضيف الى هذا دراسة البيئة العربية ، وابراز صورها بما وصلنا من نصوص شعرية تجلي لنا موحيات التعابير القرآنية اكثر فأكثر. يضاف الى هذا ان كتابها مقدمة لتفسير بياني خصت به بعض السور القصار دون غيرها من الآيات ولكنه بحث قيم في توجيه دراسة القرآن الكريم دراسة بيانية . اما كتاب مشاهد القيامة في القرآن الكريم لسيد قطب فانه يختلف تماماً عن منهجي في هذا البحث الا انني استفدت من اسلوب الكاتب الرائع في عرض الآيات الكريمة عرضا ادبيا في كل صورة تخص يوم القيامة .

وقد خصصت مشاهد القيامة بهذه الدراسة لانها تشكل لنا سلسلة من المشاهد المتتابعة تبدأ منذ اللحظة الاولى التي يحدد فيها يوم القيامة الى الخلود الابدي ، وانطلاقا من هذه الفكرة كان منهجي في تقسيم اصول الرسالة. فكل فصل منها يمثل مشهدا كاملا متعدد الجوانب ، والصور لايمكن ان نقدمه على فصل آخر ذلك لان مجموع الفصول تمثل مجموع الاحداث التي تجرى يوم القيامة . هذه الاحداث تتتابع فتشكل لنا صورا كاملة لمشاهد القيامـــة .

فأول مشاهد القيامة نجده في الفصل الاول : النفير (بعث الناس من القبور) وقد صور بعدة تعابير قسمتها الى ثلاثة مجاميع : الصور والناقور وتشكلان الصورة الاولى التي يكون النفير فيها بواسطة آلة ينفخ فيها . اما المجموعة الثانية فيمثلها تعبير الداعي والمنادي اما المجموعة الثالثة فهي التي تمثلها الزجرة والصيحة اللتان تصوران النفير بانه يكون بواسطة صوت مفزع دون تحديده بآلة اوشخص . وقد حاولت تتبع ايحاءات كل تعبير ، ثم

دلالتها بمجموعها على النفير المفزع الذي يبعث الناس من قبورهم .

اما الفصل الثاني ففيه تصوير للظواهر الكونية ، والاضطرابات التي تحدث يوم القيامـــة وقد حاولت ان استشف من مجموع هـذه الظواهر الرهيبة بعض جوانب البيئة العربية ، وكيف ان الغرب استطاعوا ان يتصوروا اضطراب السموات والارض يوم القيامة بما عرفوه في بيئتهم من ظواهر طبيعية ، رسخت صورها في اذهانهم .

وفي هذا الخضم المضطرب للسموات والارض تبدأ صور اخرى نجدها في الفصل الثالث : صفة الناس يوم القيامـــة ، حيث يبعثون من قبورهم فتفزع نفوس الكافرين ويسرعون على غـير هدى وقـــد شملهم اليأس ، وذلت نفوسهم . اما صورة المؤمنين فانها تنساب بهدوء رائع غير مبالين بالفزع الذي يشمل الكون كله .

وبعد إن تكتمل صور الاضطراب المفزع يبدأ مشهد آخر وهو الذي بحثته في الفصل الرابـع : (القضاء بين الناس) حيث يقف الناس امام قضاء عادل سوي لاتشوبه شائبة من الباطل وقد نفت الآيات الكريمـــه وجود القيم الجاهلية التي سادت المجتمع العربى فاضاعت الحق ، فلا شفاعة ولا فداء ، ولا اي وسيلة من الوسائل التي كان العرب يتخلصون بواسطتها من العقاب . وقد صورت دقة الحساب بصور حسية وثيقة الصلة بالبيئة العربية ، تلك التي عرفها العربي في الموازنة والمعادلة بين الاشياء المادية . وكذا الامر في نتيجة الحساب وما يعكسه من صور البيئة العربية .

اما الفصل الخامس فانه يمثل المشهد الذي يتبع القضاء حيث يعاقب المجرمون . وقد صور بعدة تعابير لها دلالتها الوثيقة الصلة بالبيئة العربية ، وتتداعى فيها الايحاءات في كل تعبير يرسم لنا صورة النار ، او تسميتها اولهيبها ، أو في صفة شراب اهل النار والعطش الدائم الذي يعانونه وما

ينقله من صور العطش المضني الذي عاناه العربي في الصحراء الشحيحة بالماء

وأخيراً الفصل السادس ، الثواب بالجنة ، وقد حاولت فيه ان استشف بعض جوانب البيئة العربية . فالخضرة الدائمة ، والاشجار المتنوعة نستشف منها صورا رائعة تعكس لنا اهمية الخضرة المحببة الى نفس العربي وانهار الجنة ومياهها الوفيرة تعكس لنا اهمية الماء في البيئة الصحراوية والصورة الجميلة التي يرسمها في الذهن العربي . ثم اهمية اللبن والعسل والخمر وما تعكسه هذه الصور من ملامح البيئة العربية .

أما مراجعي فقد تنوعت بتعدد المواضيع التي طرقتها في هذا البحث فاضطررت الى مراجعة كتب الادب العامة استشف منها لمحات عن الذوق العربي والبيئة العربية ثم التفاسير القرآنية ، وما يتعلق بالقرآن والفقه من دراسات في هذا الباب والمعاجم اللغوية لأتتبع فيها معاني الكلمة ودلالتها وبعض الكتب الجغرافية لاجد فيها ملامح البيئة العربية . وقد اعتمدت على الدواوين الشعرية استشف منها صور البيئة العربية التي خلدها الشعراء . وقد حاولت ان اجد نسبة للابيات ، ولكن هناك ابياتاً تمثل بها المفسرون انفسهم دون نسبتها الى قائلها فهي بين امرين اما انها كانت معروفة في زمانهم فاستغنوا عن ذكر قائلها ، واما انها لشاعر مجهول تمثلوا باشعاره فسرت على هذا المنهج ولم اكتف بالشعر الجاهلي بل جاوزته الى الاسلامي والاموي لأن منهج الشعراء لم يتبدل الا قليلا ثم انني وجدت المفسرين يتمثلون باشعار هؤلاء عند شرحهم لآيات القرآن الكريم كأبن عباس ، والطبري ، والزمخشري ولعل اكثر من وجه اهتمامه للاستفادة من النصوص الشعرية في فهم التعابير القرآنية هو ابن عباس حين سأله نافع بن الازرق بعض المسائل المتعلقة بالقرآن الكريم فكان يتمثل بشواهد شعرية ليؤكد لنافع ان العرب كانت تعرف هذا المعنى . اما الحديث النبوي الشريف فلم اعتمد عليه اعتمادا كليا إلا

في التعابير التي تعاضدت على فهم معانيها كتب اللغة ، والتفاسير ، وايدتها نصوص الشعر لان المحدثين جوزوا رواية الحديث النبوي بمعناه .

وقــد خصصت بالبحث التعابير التي لها دلالة على البيئـة العربية ، واهملت فيها التعابير الاعجمية والعربيـــة التي ليس لها دلالة واضحة على البيئة العربية .

وهذا البحث كتبته في فصول متتالية كان استاذي المشرف الدكتور جميل سعيد يتابعني فيها فقرة فقرة ، ويوجهني الى النواحي الادبية وكان يرى ان كــثرة الشواهد الشعرية تضيع ملامح الصورة الفنية لذا اكتفيت بشاهد او شاهدين مع الاشارة الى الشواهد الاخرى في هامش البحث .

واخيرا ارجو ان اكون قد وفقت في هذا البحث ، وعرضت جانبا من جوانب القرآن الكريم الذى لم ينل حظه من الدراسة والبحث الدقيق والله ولي التوفيق .

ولا يسعني وانا اقدم الرسالة بين يدى القارىء الكريم إلا ان اتقدم بجزيل شكري وامتناني للاستاذ المشرف الدكتور جميل سيعد لتشجيعه المتواصل وتوجيهاته القيمة واشكر كلاً من الاستاذ الدكتور مصطفى جواد والدكتور ابراهيم السامرائي والدكتور حسين نصار لما أبدوه من مساعدة خلال بحثي كما اتقدم بجزيل شكري الى كل من اعانني على اخراج هذه الرسالة واخص منهم الاختين نبيله واديبة في مكتبة معهد الدراسات الاسلامية العليا والاخت آمال قاسم في كلية الاداب .

الفصل الأوّل

النفير (بعث الناس من القبور)

١ ـ وسائل النفير :

أ ـ الصور والناقور
ب ـ الداعي والمنادي
ج ـ الصيحة والزجرة

٢ ـ مدة النفير :

١ ــ وسائل النفير

ان اول مشاهــد القيامة في القرآن الكريم هو مشهد النفير المفزع الذي يثير الناس الى البعث ، ويحشرهم من قبورهم الى ساحة الحساب ، والقضاء :

ومشهد النفير هذا صورته عدة تعابير كل منها يوحي بصورة خاصة من صور النفير ، حتى اذا اجتمعت هذه الصور المتعددة تشكلت في الذهن صورة جامعة حية متحركة لمشاهد النفير ، والبعث .

أ ــ الصُّور والناقور

أما الصورة الأولى فيرسمها تعبيران هما الصُّور والناقور . والصُّور هو الذي يحدد يوم القيامة . قال الله سبحانه وتعالى : (وجاءت سَكْرَةُ المَوتِ بالحَقِّ ذلكَ ماكُنتَ منه تَحيدُ ، ونُفِخَ في الصُوَر ذلكَ يومُ الوعيد .) (١) وقد صورتْ الآيات الكريمة الصدى البعيد الذي يحدثه نفخ الصُّور ، وذلكَ انه يُفْزِعُ كل من في السموات والأرض : (ويوم يُنْفَخُ في الصُّور فَفَزِعَ مَنْ في السمواتِ وَمَنْ فى الأرضِ إلا من شاءَ اللهُ وكلٌ أتوه داخرين) (٢) ومع الفزع الذي يوقظ الناس فأنهم يُزعجون من قبورهم ويُهْرعون افواجا اذلاء لتلبية صوت النفير المفزع : (ونُفِخَ في الصُّور فإذاهم من الأجْداثِ الى ربِّهم يَنْسلون قالوا ياوَيْلنا من بَعَثنا من مَرْقَدنا ؟ هذا ما وَعَدَ الرَحْمنُ وَصَدَقَ المرسلون) (٣)

---

(١) سورة ق ٥٠ : ١٩ ــ ٢٠ ،

(٢) سورة النمل ٢٧ : ٨٧ :

(٣) سورة يس ٣٦ : ٥٠ ــ ٥٢ .

وقال تعالى أيضاً : (يومَ يُنْفَخُ في الصُّورِ فتأتونَ أفواجاً) [1]
(ونُفِخَ في الصُّورِ فَجَمَعْناهُم جمعاً) [2]

وقد اختلف المفسرون في تفسير معنى الصور . قال ابو عبيدة (يقال انها جمع صُورة تُنفَخُ فيها رُوحها فتحيا) [3] فابو عبيدة هنا لم يفسر الصور على انه آلة ينفخ فيها للتنبيه والنفير وانما هي عنده جمع صورة فكأن الأرواح البشرية تعود الى الحياة في اجسامها اذا نفخ فيها وتؤيد رأي أبي عبيدة قراءة الحسن البصري (يُنْفَخُ في الصُوَر) [4] .

أما التفسير الثاني وهو الذي عليه معظم المفسرين فهو قولهم ان الصُّور قرن يُنْفَخُ فيه [5] ورفع هذا التفسير الى النبي (ص) حين سئل عنه [6] كما روي عنه (ص) في حديثه عن الدجال [7] وانه يقول حين يتمثل لهم : (الا تستجيبونَ ؟ فيأمرُهم بالاوثانِ فيعبدونها ، وهم في ذلك دارّة ارزاقهم ، حسن عيشهم ، ثم يُنْفَخُ في الصُّور ، فلا يسمعه

---

(١) سورة النبأ ٧٨ : ١٨ .

(٢) سورة الكهف : ١٨ — ١٠٠ .

(٣) مجاز القران ١ : ١٩٦ ، جامع البيان ٧:٢٤١ ، وانظر ايضا قول الخليل في العين الورقة (١٩٨) .

(٤) الصحاح ٢٩ : ٧١٦ .

(٥) جامع البيان ٧ : ١٤١ التبيان ٧ : ١٨٧ .

(٦) جامع البيان ٧ : ٢٤١ .

(٧) الدجال: المموه يقال انه رجل من يهود ، يخرج في آخر ايام هذه الامة سمي بذلك لأنه يدجل الحق بالباطل ، وقيل بل لانه يغطي الارض بكثرة جموعه وقيل لانه يدعي الربوبية، انظر لسان العرب ١٣ : ٢٥١ .

احد الا اصغى له ، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه ، فيصعق ، ثم لا يبقى احد الا صعق) (١) . وهذا الحديث يرسم لنا الصور ، وكيف انه اذا نُفخَ فيه سبب صوتا قويا مفزعا يصعق من يسمعه . وفي وصفه (ص) لصاحب الصور قال : (كيف أنعُم وصاحبُ الصُّور قد التقم الصُّورَ ، وحنى جبهته ، واصغى سمعه ، ينتظر متى يُؤمر (٢) وفي رواية أخرى (قد التقم القرن) (٣) وهذا الاختلاف في الرواية يؤيد تفسير الصُّور بالقَرنْ ! لانه يدلنا على انهما تعبيران لهما نفس الدلالة في الذهن العربي ، وقد ذكر هذا المبارك ابن الأثير حين رجح معنى القرن بقوله (والصحيح الأول لأن الأحاديث تعاضدت عليه تارة بالصور ، وتارة بالقرن) (٤) ثم ان وصف صاحب الصور في الحديث النبوي الشريف يمثل لنا صورة شخص قد وضع آلة النفخ في فمه وحنى جبهته وأصاخ سمعه ، ينتظر الأمر بالنفخ في آلته تماماً كما ينفخ في بوق مثلا .

اما اللغويون فقد ذهب معظمهم الى تفسير الصّور بالقرن (٥) . وناقش بعضهم كون الصور جمع صورة . قال الفراء : (كل جمع على لفظ الواحد الذكر سبق جمعُه واحدتَه ، فواحدتُه بزيادة هاء فيه ، وذلك مثل الصوف والوبَر ، والشعر ، والقُطن ، والعُشْب ، فكل واحدة من

---

(١) مسند الامام احمد ٢ : ١٦٦

(٢) ن ٠ م ٠ ٣ : ٧٣

(٣) جامع البيان ٢٩ : ١٥١ التبيان ٧ : ١٨٧

(٤) النهاية في غريب الحديث ٣ : ٥

(٥) جمهرة اللغة ٢ : ٣٣٨ ، الصحاح ٢ : ٧١٦ ، لسان العرب ٦ ١٤٦ ، تاج العروس ٣ : ٣٤٣ ، وكذا فسرها ياقوت في شرحه لمادة صور انظر معجم البلدان ٣ : ٤٣٣ ، وانظر

هذه الأسماء اسم لجميع جنسه فاذا أفردت واحدته زيدت فيـه هاء لأن جمع هذا الباب سبق واحدته ، ولو ان الصوفَة ، كانت سابقة الصُوف لقالوا صُوفةٌ وصُوف وبُسرةٌ وبُسرٌ كما قالوا غُرفَة وغرف ، وزُلَفة زلَف . اما الصُور القرن فهو واحد لا يجوز ان يقال واحدته صورة ، وانما تجمع صُورةُ الانسان صُوَراً ، لأن واحدته سبقت جمعه) (١) .

وقال ابو الهيثم (٢) مناقشاً أبا عبيدة متهمه بقلة معرفته باللغة ، والغريب قال (ولا نعلم احداً من القُراء قرأها فأحسَن صُورَكُم وكذلك قال ونُفِخَ في الصوَر ، فمن قرأ ونفخ في الصُور او قرأ فأحسن صُوَركم فقد افترى الكذب وبدّل كتاب الله ، وكان ابو عبيدة صاحب اخبار ، وغريب ولم يكن له معرفة بالنحو) (٣) ، ولكن ابا عبيدة ليس وحده القائل بهذا الرأي فقد مرت بنا آنفاً قراءة الحسن البصري والتي فيها تأييد لما قاله بعده ابو عبيدة (٤) .

ويضاف الى الأدلة التي تعاضدت على تفسير الصُور بالقرن ان البيئة العربية تعضدنا في هذا التفسير ، ذلك لأن القرون مما توفر في حياة العرب ولابد أنهم استغلوا وفرتها في الاستفادة منها في بعض شؤون حياتهم ، من ذلك اتخاذهم القرن آلة في اتمام حياكة الثياب ، وهي تلك التي يسمونها بالصيّصية . قال ابن دريد ، (صيصيةُ الحائك : الشوكةُ التي يمدّها على الثوب وانشد لدريد بن الصمة : (٥)

- Arabic English Lexicon, Book I, Part 4, P. 1744 .

(١) لسان العرب ٦ : ١٤٦

(٢) لم اعثر على ترجمته

(٣) لسان العرب ٦ : ١٤٦ وانظر ايضا قول ابى علي في المخصص ١ : ٥٣

(٤) انظر ص : ١٦

(٥) دريد بن الصمة الجشمي شاعر جاهلي قيل عمر مائتي سنة، حتى سقط —

فَجئتُ اليه والرماحُ تَنُوشُه كوقعِ الصيّاصي في النسيجِ المُمَدّدِ

واصل الصيصية القرن) (١) واستعمل القرن كذلك لقلع التمر ، واطلق عليه ايضاً اسم الصيصية (٢) . وهناك مجال آخر استعملت فيه القرون ، وذلك انها تركب في الرماح مكان الأسنة كما يقول الجوهري (٣) وربما كان هذا الاستعمال اكثر من غيره نظراً لاهمية الرماح والسلاح في البيئة العربية الحربية .

وكل هذا يدلنا على اهمية القرون في البيئة العربية ، ويقرب لنا معنى الصُّور وكونه البوق الذي يُصنَعُ من القرن . الا اننا نفتقر في هذا الباب الى الشواهد الشعرية ، وذلك لانه لم يرد فيما وصل الينا من الشعر الجاهلي ذكر للصّور الا الشاهد الذي أورده الجوهري وهو :

لقد نَطَحناهُم غَداةَ الجمعين نَطحاً شديداً لا كنطْحِ الصورين (٤)

ولا يمكن الاعتماد على هذا الشاهد ، لانه لم ينسب الى قائله ، ولم يقل الجوهري ان مفرد الصورين هو نفس الصُّور الذي ينفخ فيه يوم القيامة :

وهناك لفظة عبرية الاصل ، تقارب معنى الصور ودلالته ، تلك هي كلمة الشَّبُّور التي تعني البوق وهي في الاصل شوفار : وكان يستعمل في

ـ حاجباه على عينيه وادرك الاسلام ولم يسلم ، وقتل يوم حنين كافراً . انظر المعمرون : ٢٧ المؤتلف والمختلف : ١٦٣ .

(١) الصحاح ٣ : ١٠٤٤ ، وانظر ايضاً غريب الحديث : ٨٤ ، المخصص ١٢ ٢٦ ، لسان العرب ٨ : ٣١٨

(٢) لسان العرب ٨ : ٣١٩

(٣) الصحاح ٣ : ١٠٤٤ ، وانظر ايضاً لسان العرب ٨ : ٣١٨

(٤) الصحاح ٣ : ١٠٤٤

الاعياد الكبرى كرأس السنة ، والعيد الاكبر عيد الصيام (١) ، وأول من اشار الى اصلها العبري – فيما وصل الينا – هو ابن الاثير حين قال (وفي حديث الاذان ذُكِر له الشبُّور ، وجـاء في الحديث تفسيره انه البوق ، وفسروه ايضاً بالقبع ، واللفظة عبرانية) (٢) ونجد في روايات اخرى ذكراً للبوق ، وان الرسول (ص) اراد ان يجعل بوقاً كبوق اليهود الذي يكون لصلاتهم ثم كرهه ، ثم امر بالناقوس فنحت) (٣) . وبوق اليهود هذا سمي في روايات أخرى بالقرن (قرنا مثل قرن اليهود) (٤) والظاهر ان الرسول (ص) كره اتخاذ البوق لانه آلة ينفخ فيها اليهود ، وهم ما عليه من البغض والكراهية للاسلام .

كل هذا يقدم لنـا صورة للفظة الشبور العبرية ، ودلالتها الواضحة في الذهن العربي ، وقد ورد ذكرها في الاستعمال اللغوي مقترنة باليهود (٥) ومع ان هذه الكلمة تعطينا نفس الدلالة التي توحيها كلمة الصور ، وانها القَرْن الذي ينفخ فيـه فمن المستبعد ان يقال ان كلمة الصور متطورة عن الاصل العبري الشَّبّور او الشوفار لتباين مخارج حروفها وعددها (٦)

---

(١) هكذا حققها الاستاذ عبد السلام هارون في هامش كتاب الحيوان ٤ : ٥٢٥

(٢) النهاية في غريب الحديث ٢ : ٢٠٢

(٣) سيرة النبي ٢ : ١٢٨ ، وانظر ايضاً ذيل لمقال الالفاظ السريانية مجلة المجمع العلمي العربي م ٢٦ ح ٤ : ٤٨٧

(٤) صحيح مسلم ١ : ٢٨٥ ، سنن الترمذي ١ : ٣٦٢ سنن النسائي ٢ : ٢

(٥) الحيوان ٤ : ٢٥ مجالس العلماء : ١٨

(٦) مع ان السين مقارنة للصاد فانّ إقحام الباء هنا يبعد كون الصور متطوراً عن الشبور وقـد استأنست في هذا برأي الاستاذ ابراهيم السامرائي –

الا ان معرفة الشّبور يعطينا صورة لمعرفتهم البوق الذي ينفخ فيه ، وإنّه كان يُصنع من القرن في اكثر الاحيان ، وكان يستعمل للنفير ، والتنبيه ، ومن هنا جاء التعبير القرآني (الصُّور) والذي فسر بالقرن ليرسم صورة النفير ليوم القيامة ، وانه يكون بالنفخ فيه ، وتنبيه الناس من قبورهم ، ومما يؤيد تفسير الصّور بالبوق ، ان ذكَر البوق ورد في التوراة بأن الناس يُحشَرون من قبورهم على صوته المفزع (١) .

اما التعبير الآخر الذي يصور لنا آلة النفير فهو الناقور . قال الله تعالى : (فاذا نُقِرَ في الناقُور فذلكَ يومئذ يومٌ عَسيرٌ ، على الكافرين غيرُ يسير ، ذَرْني ومن خَلَقْتُ وحيدا ، وجَعلَتُ له مالا ممدُوداً ، وبنينَ شُهودا ، ومَهّدتُ له تمْهيدا ، ثم يَطمعُ ان ازيدا ، كلا انه كان لآياتنا عَنيدا . سأُرهِقُه صَعودا) (٢) .

لقد فسّر معظم المفسرين الناقور بانه آلة ينفخ فيها يوم القيامة اعلانا وتنفيرا وقرنوا بينه وبين الصور (٣) . وقد اوردوا الحديث الشريف الذي مرّ انفا في تفسير الصور (كيف انعم وصاحب القرن ، قد التقم القرن ، وحنى جبهته . . . . .) (٤) .

اما الفريق الثاني فكما فسروا الصور على انه جمع صورة ، فكذلك

— باعتباره متخصصاً في اللغة العبرية والأستاذ مصطفى جواد ، ولم يشر الى أصلها غير العربي احد من الذين كتبوا في الدخيل كالجو اليقي والسيوطي والخفاجي وغيرهم

(١) انظر الكتاب المقدس متى ٢٤ : ٣١ ، تسالونيكي ٤ : ١٥

(٢) سورة المدثر ٧٤ : ٧ — ١٦

(٣) غريب القران : ٢٤٩ ، جامع البيان ٢٩ : ١٥١ التبيان ١٠ : ١٧٤ ، وكذا قال الخليل في العين الورقة ٣٦

(٤) جامع البيان ٢٩ : ١٥١

فسروا الناقور . ذكر الطبري (الناقور الصور ، والصّور الخلقُ) (١) وروي عن ابن الاعرابي انه فسر الناقور بالقلب (٢) فكأن النفخ يكون سبباً لاحيـاء القلوب ونستبعد هنا هذا التفسير لأن ايحاء الآيات الكريمة بعيد عن معنى القلب وقد مر بنا تفنيد هذا الرأي حين فسّر به الصور. اما تفسير الناقور بالقَرْن فهو الذي عليه معظم اللغويين (٣) ، وهـذا التفسير أمر يلفت النظر لان اول ما توحيه كلمة النقر هو الضرب الذي يستتبعه صوت ما ، وهو معنى يرسم في الذهن صورة الدف (٤) الذي هو بعيد عن معنى الصور ، والبوق لاختلاف موحيات كل منهما عند سماع صوتهما . ويسند معنى النقر ، والضرب قول ابن فارس : (النون والقاف والراء اصل يدل على فرع شيء حتى تُهزم فيه هَزْمة ثم يُتَوَسع فيه) (٥) . والذي يقارن بين معنى النقر الذي هو النفخ في تفسير من فسّر الناقور بالصُّور ، وبين معنى الضرب والقَرع يجد لاول وهلة ان هناك هوّة بعيدة بينهما ، ويخيل اليه انه لا رابط بين المادتين ، ولكن محاولة ترتيب التدرج التاريخي لمعاني الكلمة ، تفيدنا في فهم الدلالتين المختلفتين .

---

(١) جامع البيان ٢٩ : ١٥١

(٢) لسان العرب ٧ : ٨٩

(٣) غريب القرآن : ٢٤٩ ، جامع البيان ٢٩ : ١٥١ ، التبيان ١٠ : ١٧٤ وكذا قال الخليل في العين : الورقة (٣٦)

(٤) وقد ورد النقر مقترنا بالدف في قول عامر بن عمرو :

ولا تَنقريني نَقرَكِ الدّف دائما   فانكِ لا تدريَن كيَف المُغَيَّبُ

الحماسة البصرية : الورقة ١٨٤ (ب)

(٥) مقاييس اللغة ٥ : ٤٦٨

واقرب المعاني لكلمة النقر هو نقر الخيل الارض بحوافرها ، وذلك اذا اسرعت في سيرها فصوتت بسنابكها ، واحتفرت الارض ، قال الليث (١) (انتقرت الخيلُ بحوافِرها نقرا أي احتَفَرتْ بها) (٢) . وقد وردت بهذا المعنى في شعر المرقش الاكبر (٣) واصفاً سير ناقته من وجيف ، وابساس ، ونقر :

وَجيفٌ وإبساسٌ ونَقْرٌ وهِزَّة
إلى ان تَكلَّ العِيسُ والمرءُ حادِسُ (٤)

وقال عمرو بن الاهتم (٥) :

وَقوم ينظرونَ اليَّ شَزْراً عيونُهُم من البَغْضاءِ عُورُ
قَصَدْتُ لهم بمخزيةٍ اذا ما أصاخَ القومُ وأُسْتُمِعَ النقيرُ (٦)

---

(١) الليث بن المظفر ، وقيل بن نصر بن سيار الخراساني ، كان من اكتب الناس في زمانه بارعاً في الادب ، بصيراً بالشعر ، والغريب ، والنحو . املى الخليل عليه كتابه العين . وقال الازهري انه انتحل كتاب العين للخليل ، ليرغب فيه . انظر نزهة الالباء : ٢٩ ، بغية الوعاة : ٣٨٣

(٢) لسان العرب ٧ : ٩٠

(٣) هو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة شاعر من مُتَيَّمي العرب ، وفرسانها انظر المؤتلف والمختلف : ٢٨١

(٤) المفضليات : ٢٢٥

(٥) هو عمرو بن سنان بن خالد كان سيدا من سادات تميم خطيبا بليغا شاعرا ، وقد قدم الى رسول الله (ص) مع وفد تميم وهوالذي قال الرسول (ص) عن كلامه (إن من البيان لسحرا) توفي حوالي سنة ٥٧ هـ انظر البيان والتبيين ١ : ٥١ لباب الآداب ٣٥٥ الاصابة ٢ : ٥١٧ ، ٥١٨

(٦) المفضليات : ٤١١

وقــد فسر الاستاذ عبد السلام هارون النقير هنـا من النواقر وهي الدواهي ، وقال انه معنى لم يرد في المعاجم (١) ، والذي يبدو ان تفسير النواقر بالدواهي هنا بعيد ، وانما يصيخ القوم لوقع قوائم الخيل المسرعة نحوهم ، فتكون الداهية نتيجة الغارة ، ونقر الخيــل الارض بحوافرها وسرعة هجومها عليهم :

والملاحظ في هـذا الاستعمال المادي انه يجمع بين الصوت الشديد ، وبين ما يتبع هذا الضرب من السير من قرع الارض ، وحفرها ، وهو اصل ماديّ ملازم للبيئة العربية التي تَعَوّدَ فيها العربي الغارات المفاجئة وسرعة الخيل حين تضرب الارض بقوة فتنقر فيها نُقَرا صغيرة .

ومن هذا الصوت الذي تثيره الخيــل بقوائمها إستعملت الكلمة في مجال آخر وهو التصويت الذي يُسكَّن به الفرس ، وقــد وصفه الخليل بقوله : (النَقْر أنْ تُلزِقَ لسانَك بِحنْكِكَ ثم تُصوت وقــد نقرتُ بالدابةِ) (٢) . وقد نقل المبرد قول الشاعر :

انا ابنُ ماويةَ إذْ جَدَّ النَقَرْ (٣)

فقال معلقا عليه : (يريُد النَقَرَ يا فتى ! وهو النَقْرُ بالخيل . . . النقير : صويت باللسان يسكن به الفرس اذا اضطرب بفارسه قال امرؤ القيس :

أخَفِضّه بالنَقْرِ لمــا عَلَوْتُهُ وَيرَفَعُ طَرفاً غيرَ جافٍ غضيضِ (٤)

---

(١) المفضليات : ٤١١

(٢) الخليل عن المخصص ٦ : ١٨٢ ، وانظر ايضـاً الصحاح ٢ : ٨٣٤ ، الافعال : ١١١ ، اساس البلاغة : ٩٨٥ ، لسان العرب ٧ : ٨٨

(٣) الكامل : للمبرد ٢ : ٥٠٢

(٤) ن . م والشطر الثاني من قول ابن ماوية (وجاءَت الخيلُ أثابي زمر) لسان العرب ٥ : ٨٨ والظاهر ان الشاعر لم يقصد بقوله هذا الصوت الذي —

والنقر أيضاً تصويت الأصابع وذلك : (ضَمُّك الابهامَ الى طرف الوسطى ثم تَنقر فيسمع صاحبك ذلك) (١) .

هذه هي المعاني التي اقترنت في ايحاءاتها، بنقر الخيل، ومنها أيضاً تطور معنى آخر وهو قولهم : النقرة، الحفرة، (٢) ثم أطلقت على الآبار وعلى كل منخفض (٣) .

ونجد للنقر معنى حسيا آخر مستمداً من معنى الحفر، وذلك ان يُنقر الخشب فتحفر فيه نقرة لغرض من الأغراض (٤) .

ونستعيد الآيات الكريمة التي وردت فيها كلمة الناقور . (فاذا نُقِرَ في الناقُورِ فذلكَ يَوْمئذٍ يومٌ عسيرٌ، على الكافرينَ غيرُ يسيرٍ، ذَرني ومن خَلَقْتُ وحيدا، وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهُودا، ومهدت

- يسكن به الفرس، وإنما المقصود به سرعة الخيل في الحروب وهو الذي يفتخر به ابن ماوية إذ يكون أهلا للحروب والغزوات التي تسمع فيها قوائم الخيل المسرعة وهجومها عليه زمراً كثيرة، وهو المعنى الذي يكمله الشطر الثاني، وربما جاءحديث المبرد عن النقير الذي هو التصويت على سبيل الاستطراد، وبيت امرىء القيس في ديوانه : ٧٥ .

(١) الصحاح ٢ : ٨٣٥، لسان العرب ٧ : ٨٩ .

(٢) الغريب المصنف : الورقة ٢٤٥، لسان العرب ٧، ٩٠، وانظر أيضاً قول المخبل السعدي في المفضليات : ١١٦ .

(٣) الغريب المصنف الورقة ٢٤٥، مقاييس اللغة ٥ : ٤٦٨، لسان العرب ٧ : ٨٦، ٩ . وانظر أيضاً قول المخبـــل السعدي في المفضليات : ١١٦، ديوان ابن مقبل : ٣٤١ .

(٤) الصحاح ٢ : ٨٣٥ مقاييس اللغة : ٥ : ٤٦٩، أساس البلاغة : ٩٨٥ لسان العرب ٧ : ٨٦ .

له تمهيدا ، ثم يطمع ان ازيدا ، كلا انه كان لاياتنا عنيـدا ، سأُرهقُهُ صعودا) (١) . ومن سياق هذه الآيات يتضح لنا معنى الناقور ، وكيف انهم قرنوا بينه وبين الصور آلة النفير فاذا كان الصُّور أشبه مايكون بالبوق وانه اطلق آنذاك على القرن ينفخون فيه فان الناقور الذي جعل مرادفاً له عند بعض المفسرين يكون على هذه الشاكلة ويقرب نقر الخشب صورته ! وذلك ان تنقر الخشبة حتى تصبح مجوفة ينفخ فيها ، ويفيدنا في رسم هذه الصورة قولهم النقير ، لاصل الخشبة التي تنقر فيُنْبَذ فيها الرطب والبسر (٢) ، مما يعطينا صورة للنقر الذي يجوف الخشبة أو أي آلة يعمل فيها .

وبما ان النقر قد اقترن بالصوت المفزع وهو نقر الخيل في الشدائد فاننا نستطيع ان نجد في الآية الكريمة ايحاء آخر في رسم صورة الفزع الأكبر الذى يحيط النفخ بالصور والناقور وكيف انه يرهب من يسمعه ، ويجعل الكافر موقناً بالمصيبة العظيمة التي ستحل به ، ويذكره هذا بالرعب والفزع الذي يشعر به حين يسمع نواقر خيل الأعداء القوية ويساعده جو الآيات العام على هذا التصور وهو معنى واضح الملامح عميق الصلة بالبيئة العربيـة التي كثرت الغارات فيها وتعوّد العربي صريخ الخيل وسرعة سيرها ، ومايوحيه نقر قوائم الخيل خاصة عند الغارات من معاني الفزع والهول مما يقرن يوم القيامة بصورة الفزع والرعب المفاجيء ، وهو معنى تشترك فيه كل التعابير التي تخص القيامة منذ ساعة النفير .

وبما ان النقر قد اقترن بالصوت المفزع الى جانب معنى الضرب والحفر فانّ ايحاءً آخرَ يضاف الى الكلمة ، وهو دلالتها على الصوت . وهذا المعنى هو الذي فسّر به بعضهم قول طرفة المشهور :

---

(١) سورة المدثر ٧٤ : ٨ ـ ١٧ .

(٢) الصحاح ٢ : ٨٣٥ ، لسان العرب ٥ : ٨٦

يالَـكِ مِـن قُبَّـرَةٍ بِمَعْمَرِ
خَلا لَكِ الجُوُّ فَبيضِي واصْفِري
ونقِّـري مـا شئتِ أن تُنَقِّـري
قدرحَلَ الصيادُ عنكِ فابْشِـري (١)

فقيل التنقير مثل الصفير (١) .

أما معنى النفخ الذي يفهم من كلمة النقر (فاذا نُقِـرَ في الناقورِ فذلكَ يَوْمئذٍ يومٌ عسيرٌ) (٣) فهو معنى جديد اكتسبته الكلمة من طبيعة استعمال الآلـة حيث ينفخ فيها . ونستطيـع ان نقول ان كلمة النقر قد ضُمنَتْ معنى النفخ في الآية الكريمة على اسلوب العرب في تضمين كلامهم معاني لم يعرفوها من قبل (٤) . ومن هنا عُدي الفعل (نقر) بالحرف (في) واستعمال هذا الحرف هو الذي يبعد معني الضرب الذي قد يتبادر الى الذهن فلو كان معنى النقر كذلك لقيل نُقِـرَ الناقورُ ، أو نُقِـرَ بالناقورِ كما قيل نَقَرْتُ الشيء ثَقَبْتُهُ بالمنقارِ ، ونَقَرَ الطائرُ الحبَّ بمنقاره ، ونَقَر النقَّارُ الرحى بمنقارِهِ ، ونَقَرَ العودَ ، والدفَّ ، ونقَـر رأسَهُ باصبعه نقرةً) (٥) أما تعدية النقر بالحرف (في) فانه يقوي ماذهب اليه المفسرون

(١) ديوان طرفة : ١٩٣ .

(٢) الأزهري عن لسان العرب ٥ : ٨٧ ، الصحاح ٢ : ٨٣٦ ، ومن الجائز ان يراد بالنقر هنا المعنى المادي وهو التقاط الحب .

(٣) سورة المدثر ٧٤ : ٧ .

(٤) قال ابن هشام في موضوع التضمين : (قـد يشربون لفظاً فيعطونه حكمه ويسمى ذلك تضميناً ، وفائـدته أن تؤدى كلمة مؤدى كلمتين) . مغني اللبيب ٢ : ٦٨٥ ، وانظر أيضاً شرح الفية ابن مالك ١ : ٤ ، ٥ ، همع الهوامع ٢ : ١٣٠

(٥) الصحاح ٢، ٨٣٤ ، أساس البلاغة : ٩٨٤ ، لسان العرب ٧: ٨٠ ، ٨٦

من ان معنى النقر هو النفخ وان الناقور هو الذي ينفخ فيه .

ومن هذين التعبيرين تتشكل الصورة الأولى للنفير في يوم القيامة ، اذ يدعى الناس ، ويحشرون من قبورهم على صوت مفزع يبعث من آلة هي الصور أو الناقور ، وقد ورد في الكتاب القديم ذكر للبوق الذي ينبه الناس ويحشرهم من قبورهم (١) ، مما يؤكد تفسير الصور والناقور على انهما آلتان ينفخ فيهما يوم القيامة .

ب - الداعي والمنادي

أما الصورة الثانية فيشكلها تعبيران آخران هما الداعي والمنادي فقد ورد الداعي في قوله « ويَسْألونَكَ عن الجِبالِ فقُلْ يَنْسِفُها ربي نَسْفاً ، فيَذَرُها قاعاً صَفْصَفا ، لاترى فيها عِوجا ولا أمتا ، يَومئذٍ يَتّبعونَ الدّاعي لاعِوَجَ له ، وخَشَعَتِ الأصواتُ للرحمنِ فـلا تَسْمَعُ إلا هَمْسا » (٢) . وقال أيضاً : « فتَوَلَّ عنهم يومَ يدعُ الداعِ الى شيءٍ نُكُرٍ ، خُشَّعَا أبصارُهُم يَخْرجُونَ من الأجداثِ كأنَّهم جَرادٌ منتشر مُهْطِعِين الى الداعِ ، يقولُ الكافرونَ هذا يومٌ عَسِرٌ » (٣) . فالداعي في هذه الآيات الكريمة هو الذي يدعو الناس الى موقف القيامة فيحشرهم اليه (٤) ، وقد خشعت أبصارهم ، ونُكست رؤوسهم وأدركوا حقيقة النفير

---

(١) جاء في سفر متي ٢٤ : ٣١ (ويرسل ملائكته ببوق ، وصوت عظيم ، فيجمعون مختاريه من الرياح الأربع من أقاصي السماوات الى اقاصيها) ، وانظر أيضاً سفر تسالونيكي ٤ : ١٥ .

(٢) سورة طه ٢٠ : ١٠٥ - ١٠٨ .

(٣) سورة القمر ٥٤ : ٦ - ٨ .

(٤) جامع البيان ٢٦ : ٢١٤ ، ٢٧ : ٨٩ ، التبيان ٩ : ٤٤٥ :

الذي يدعوهم ، واذا كان السياق العام هو الذي يوحي لنا بهـذه الصورة المرعبة فان كلمة الداعي وحدها تعطي من الصور والايحاءات المتعددة مايزيد ملامح صورة النفير وضوحاً ويعكس لنا جوانب متعددة من البيئة العربية .

فالداعي في المجال اللغوي استعمل للدلالة على معان مختلفة قـد تبدو بعيدة الأصل عن المعنى القرآني ، ولكن معرفة الصور الحسية التي تفرعت عنها تعيننا على ربط المعاني بعضها ببعض ، وفهمها من التعبير القرآني الكريم .

ومن الصور الحسية الأولى الواردة في الشعر الجـاهلي صورة تداعي الكثيب اذا تحرك بعض الرمل فانهال وانهدم ، قال ابن منظور (تداعى الكثيب من الرمل اذا هيل فانهال) (١) . قال النابغة ذاكراً الكثيب المتداعي .

تَـخْـفي بأظْـلافِـهـــا حتى اذا بَـلَـغَـتْ
يُبْـسَ الكَـثيبِ تَـداعَـى التُـربُ فانهدما (٢)

وقال زهير بن أبي سلمى واصفاً صورة قريبة من صورة النابغة :

يَـمْـري بأظْـلافِـهِ حتى اذا بَـلَـغَـتْ
يُبْـسَ الكثيبِ تَـداعَـى التربُ فانْـخَـرَقا (٣)

فسرعة سير الثور ، وركضه ، تهدم الكثيب ، وتهيل ترابه مرة واحدة وهذا هو الذي يطلق عليه اسم التداعي ، وقال طرفة متغزلا :

واذا قامَـتْ تداعَـى قاصِـفٌ   مالَ منْ أعْـلى كثيبٍ مُـنْـقَـعِـرْ (٤)

---

(١) لسان العرب ١٨ : ٢٨٧ .

(٢) أمالي المرتضى ٢ : ١٣ ، والبيت غير موجود في ديوان النابغة الذبياني ومقارنته ببيت زهير المذكور أعلاه يثير الشك في نسبته الى قائله .

(٣) شرح ديوان زهير : ٤٦ .

(٤) ديوان طرفة . ٧٣ .

أما داعية اللبن فهو مايترك في الضرع ليدعو مابعده (١) . وقد ورد في الحديث النبوي الشريف ، ان الرسول (ص) قال لرجل بعثه لِحلب ناقته أنْ دَعْ داعي اللّـبن (٢) وقال ابن منظور شارحاً قول الرسول (ص) السابق : أي ابق في الضرع قليلا من اللبن ، ولا تستوعبه كله فان الذي تبقيه فيه يدعو ماوراءه من اللبن فينزله ، واذا استقصى كل مافي الضرع أبطأ درّه على حالبه قال الأزهري : « ومعناه عندي دع مايكون سبباً لنزول الدرة ! وذلك ان الحالب اذا ترك في الضرع لأولاد الحلائب لبينة ترضعها طابت أنفسها فكان أسرع لافاقتها » (٣) .

وحركة تداعي الكثيب واضحة في داعية اللبن ، ولكنها على صورة أخرى فهي أيضاً حركة ناتجة عن وجود أخرى سابقة لها ، وهي البقية القليلة من اللبن التي تستدعي نزول مابعدها الا ان ماتوحيه من الصور بعيد عن مغنى داعي النفير لأن في اللبن ايحاء الخير والفرح ، أما داعي النفير فانه محاط بالفزع ، والهول وما يتبع ذلك من صور رهيبة مرعبة .

ومن هذا الاستعمال المادي جاء قولهم المجازي : « تداعت عليهم القبائل من كل جانب اجتمعت عليهم وتألبت بالعداوة » (٤) . وبهذا المعنى وردت في الحديث النبوي الشريف (٥) .

---

(١) الصحاح ٦ : ٢٣٣٧ ، مقاييس اللغة ٢ : ٢٨٠ ، ثمار القلوب : ٤٩٤ أساس البلاغة : ٢٧٢ ، لسان العرب ١٨ : ٢٨٢ .

(٢) مسند الامام أحمد ٤ : ٧٦ ؛ وانظر أيضاً سنن الدارمي ٢ : ٨٨.

(٣) لسان الغرب ١٨ : ٢٨٤ ، أنظر أيضاً المخصص ٧ : ٤٠ .

(٤) أساس البلاغة ٢٧٢ ، وانظرشواهد الشعر فيالطرائف الأدبية : ١٤ .

(٥) مسندالامام أحمد ٤ : ٢٧٨ ، ٢٦٨ ، ٢٧٤ ، ٥ : ١٧٨ ، سنن الدارمي ٢ : ٤٢٦ ، لسان العرب ١٨ : ٢٨٧ .

هذه الصور المتداخلة نستطيع ان نجدها في أحد جوانب صورة الداعي المفزع فالناس يتراكضون نحوه ، ويتدافعون بسرعة كما تتدافع أجزاء الكثيب حين ينهال بعضها على بعض ونفهم انهم في تداعيهم ، وتدافعهم نحو الداعي يسيرون بصورة تلقائية تماماً كما ينهال كثيب الرمل اذا تساقطت بعض أجزائه .

ونستطيع أن نلمح في الداعي صورة أخرى لها دلالة أعمق للبيئة العربية ! وذلك ان الداعي أطلق في بيئتهم الحربية المتنازعة على الشخص الذي يُنَفِّر ويدعو للأمر الملم الشديد ويستصرخ قومه ، فكأن صياحه يكون سبباً لتداعي قومه حوله ونجدتهم له ، وقد كثر افتخار شعرائهم بتلبية دعوة الداعي وتسارعهم نحوه مع الفزع الذي يثيره في نفوسهم ، قال متمم بن نويرة (١) راثياً أخاه .

وقد كانَ مجذاماً إلى الحَرب ِ ركضُهُ

سريعاً الى الداعي اذا هو أفْزَعا (٢)

أي انه كان شجاعاً بطلا يسرع الى استجابة صرخة الداعي ، مع نا غيره يفزع منها ويهرب . وقال النابغة الجعدي (٣) مفتخراً :

---

(١) متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد بن يربوع يكنى أبا نهشل شاعرجاهلي أدرك الاسلام فاسلم وحسن اسلامه واستفرغ شعره في مراثي أخيه مالك بن نويرة الذي قتل في حروب الردة توفي نحو سنة ٣٠ ه انظر معجم الشعراء : ١٩٤ .

(٢) أمالي اليزيدي : ١٩ .

(٣) شاعر معمر عاش في الجاهلية والاسلام ، وقد اختلف في اسمه هل هو قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة ام حبان بن عبد الله الا انهم اتفقوا على انه من مضر وان سبب تلقيبه بالنابغة لأنه قال الشعر في الجاهلية ، ثم اجبل دهراً ثم نبغ بالشعر في الاسلام توفي نحو سنة ٥٠ ه أنظر طبقات فحول الشعراء ١٠٣ ، الشعر والشعراء ١ : ٢٤٧ ، الأغاني ٥ : ٥ ، المؤتلف والمختلف : ٢٩٣ .

يَسْتَخِفّونَ الى الداعي بِهِمْ ... وإلى الضيفِ اذا الضيفُ نَزَلْ (١)

وحين يسمع صوت الداعي في الحي يسرع الرجال نحوه ، ويتتابع ركض الخيل المسومة الى حومة القتال :

متى ما ادعُ في أسدٍ تُجبْني ... مُسَوَّمةٌ على خَيْلٍ صيامِ
تَتَابَعُ نحوَ داعيها سِراعاً ... كما انْسَلَ الفريد من النِظام (٢)

ووصف طرفة بن العبد دعوة الداعي في الحي ، وكيف انها تثير الفزع ، والهلع فيُجرد الشجعان سيوفهم ، ويعتلون جيادهم الطوال السريعة .

حينَ نادى الحيُّ لمّا فَزِعوا ... ودعا الدّاعي وقدْ لَجَّ الذُّعُرْ
أيُّهـا الفتيانُ في مَجْلِسنا ... جَرِّدُوا منها وراداً وشُقُرْ
أعوَجِياتٍ طِوالاً شُزَّباً ... دُوخِلَ الصنعةُ فيهاوالضُّمُرْ (٣)

فالداعي في هذه الصور المتعددة (٤) يعكس لنا جانباً من جوانب البيئة العربية التي ساد فيها الاضطراب والفوضى ، فالأمن مفقود ، والاحياء مُعَرَّضة للغارات المفاجئة ، ومايتبعها من السلب ، والنهب ، والقتل . . ويأتي دور الداعي الذي يستصرخ قومه ، وينبههم الى الحادث المفاجيء ، فاستعمال الداعي هنا يستلزم صياح أحد ، أو استغاثة مهولة تتبعها إجابة من الآخرين ، فكأن في المسألة طرفين متلازمين تلازم حركة الكثيب الأولى

(١) ديوان النابغة الجعدي : ٩٧ .

(٢) الحماسة البصرية : الورقة ٤٨ (ب) .

(٣) ديوان طرفة : ٨٠ ط صادر .

(٤) انظر شواهد أخرى للداعي في ديوان عامر بن الطفيل : ٨٢ ، ديوان عبيد : ١٣١ ، ديوان بشر : ٨٦ ، ديوان طرفة : ٧٧ ، ديوان الشماخ : ١٠ ، المفضليات : ١٦٦ ، الوحشيات : ٤٣ ، العين : ٤٢ ، الصناعتين : ١٦٨ ، الأشباه والنظائر ١ : ١٠٥ ، ديوان الحماسة : ٥٨ .

بانهدام الرمل والكثيب من جميع جوانبه ، أو حركة داعية اللبن التي تستدر مابعدها ، فالداعي يستصرخ ويستنجد فيجاب ويغاث ، وحتى اذا لم ينجد فان دعوته في الأصل كانت طلباً للاجابة والنجدة .

ويستدل على هـذا بالاستعمال القرآني للكلمـة ، ومشتقاتها ، وتلازم الاجابة لها في كثير من الآيات القرآنية ، فالله سبحانه وتعالى يستجيب دعاء من يدعوه مخلصاً « واذا سَأَلَكَ عِبادي عني فأني قَريب أجيبُ دَعْوَةَ الداعي إذا دعاني » (١) وكذلك اقترنت الاجابة بالدعاء في الحـديث عن الآلهة التي اتخذها المشركون من دون الله تعالى فجاءت الآيات القرآنيـة الكريمة تبين لهم بأنهم انما يعبدون مالايسمع دعاءهم ، ولا يستجيب لهم : « ويوم يقـول نادوا شركائي الذين زعمتم فَدَعوهم فـلم يَستَجيبُوا لهم » (٢) . فالحجة القوية في مناقشة المشركين هي انهم يدعون آلهة لاتسمع دعاءهم ، فالاجابة ملازمة للدعاء وان كانت سلبية . أما الآيات التي ذكر فيها الدعاء دون ملازمة الاجابة فانها تفسر على ضوء قوله تعالى : « ادعوني استجبْ لكم » (٣) أو ان الدعاء في الأصل انما يكون في انتظار الاجابة .

هذه الاجابة ملازمة لدعوة الداعي يوم القيامة قال تعالى : « ويَسألونَك عن الجِبالِ فَقُـلْ يَنْسِفُها ربي نَسْفاً ، فَيَذَرُها قاعاً صَفْصفا ، لاتَرى فيها عِوَجاً ولا أمتا . يَومئذ يَتَّبعونَ الداعي لاعِوَجَ له وخَشَعتِ الأصوات للرحمنِ فلا تَسْمَعُ الا هَمْسا » (٤) حين نقرأ هـذه الآيات

(١) سورة البقرة ٢ : ١٨٦ ، وانظر أيضاً النمل ٢٧ : ٦٢ ، غافر ٤٠ : ٦٠

(٢) سورة الكهف ١٨ : ٥٤ ، وانظر أيضاً القصص ٢٨ : ٦٤ ، الشعراء ٢٦ : ٧٢ ، فاطر ٣٥ : ١٤ الأحقاف ٤٦ : ٥١ ، الأعراف ٧ : ١٩٤ .

(٣) سورة غافر ٤٠ : ٦٠ .

(٤) سورة طه ٢٠ : ١٠٥ ـ ١٠٨ .

الكريمة المتسلسلة السياق ترتسم في الذهن صورة الناس حين يفزعون لصيحة الداعي المهولة التي تنفرهم الى ساحة الحساب فيتراكضون حوله ، ويستجيبون له بصورة تلقائية يتبع بعضهم البعض الآخر ، وقد ملأ الفزع ، والهلع قلوبهم . وتساعدنا صورة الداعي في الحروب على فهم ايحاءات مختلفة لهلع صيحة الداعي ونفيره ، فهي لاتوحي معنى الاجابة فحسب ، انما ترسم في الذهن كل ماتوحيه البيئة الحربية في حياة العرب حين يفاجيء الحي بصريخ الداعي الذي يخبرهم بالغارة ، وتضاف الى هذا صورة تداعي الكثيب التي تصور لنا الناس في تراكضهم نحو الداعي بأنهم يتدافعون بعضهم فوق بعض وقد ملأ الرعب والفزع قلوبهم .

أما المنادي فانه تعبير آخر للشخص الذي يدعو الناس يوم القيامة والذي سمي أيضاً بيوم التَّنادِ قال تعالى على لسان الرجل المؤمن حين يخاطب قوم فرعون محاولا هدايتهم : (وقال الذي آمن ياقوم إني أخافُ عليكم مثلَ يومِ الأحزابِ ، مثلَ دأبِ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ ، والذينَ من بَعْدِهم وماالله يُريدُ ظُلْماً للعِبادِ ، وياقومِ إنى أخافُ عليكم يومَ التنادِ ، يَومَ تُولُّونَ مُدْبِرينَ مالكم من اللهَ من عاصمٍ ومن يُضْلِلِ اللهُ فما لَهُ من هادٍ » (١) وقال سبحانه وتعالى أيضاً « واستمعْ يومَ ينادِ المنادِ ، من مكانٍ قريبٍ ، يومَ يَسْمَعونَ الصيحةَ بالحَقِّ ذلك يومُ الخروجِ ، انّا نحنُ نُحيي ونُميتُ ، والينا المصيرُ ، يومَ تَشَقَقُ الأرضُ عنهم سِراعاً ، ذلكَ حشرٌ علينا يسيرٌ » (٢) .

هذه الآيات الكريمة صورت لنا حقيقة الموقف حين يهب الناس على صوت المنادي فيهرعون نحوه ملبين نداءه ، مسرعين الى ساحة الحشر المهولة .

(١) سورة غافر ٤٠ : ٣٠ ـ ٣٣ .

(٢) سورة ق ٥٠ : ٤١ ـ ٤٤ .

أما المفسرون فقد اختلفوا في تفسير التناد نتيجة لاختلافهم في قراءتها ان عامة قراء الأمصار (يوم التنادِ) بتخفيف الدال وترك اثبات الياء بمعنى التفاعل من تنادى القوم تناديا (١) وقال الأزهري : القراء على تخفيف الدال (٢) وهذه القراءة توجه تفسير الآية عدة توجيهات .

١ — فسرّ التناد على انه الخطاب والكلام الذي يكون بين الناس يوم القيامة كما قال جلّ ثناؤه : (ونادى أصحابُ الجَنَّةِ أصحابَ النارِ أنْ قَدْ وَجَدْنا ماوَعَدَنا ربُّنا حقا ، فهل وجدتم ماوعَدَ رَبّكم حقاً ؟ قالوا : نَعَمْ) (٣) . وقال (ونادى أصحابُ النارِ أصحابَ الجَنَّةِ أنْ أفيضوا علينا من الماءَ) (٤) فلذلك تأوله قارئو هذه القراءة (٥) .

ونجد ان هذا التوجيه اعتمد على قول العرب : التنديدُ رفعُ الصوت (٦) قال أبو زيد (٧) ، وهو مجرد النداء الذي يكون بصوت مرتفع عال (٨)

---

(١) جامع البيان ٢٤ : ٦٠ .

(٢) لسان العرب ٤ : ٤٢٩ .

(٣) سورة الأعراف ٧ : ٤٤ .

(٤) سورة الأعراف ٧ : ٥٠ .

(٥) جامع البيان ٢٤ : ٦٠ ، وانظر أيضاً الكشاف ٣ : ٥٣ .

(٦) لسان العرب ٤ : ٤٣ ، ابن السكيت عن المخصص ٢ : ١٣٣ ، الفاخر : ٢٨٨ .

(٧) أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري كان عالماً باللغة والنحو أخذ عن أبي عمرو بن العلاء ، وأخذ عنه أبوعبيد القاسم بن سلام ، والسجستاني . وكان ثقة من أهل البصرة وكان سيبويه اذا قال سمعت الثقة يريد به أبا زيد ، توفي في البصرة سنة ٢١٤ أو سنة ٢١٥ ، أنظر نزهة الألباء : ٨٥ ـ ٨٨ .

(٨) المفردات فى غريب القرآن : ٥٠٥ .

وقد وردت بهذا المعنى في أربع وخمسين آية (١) ، ولكننا نجد ان السياق العام الذي ورد فيه تعبير التناد أو المنادي مليء بالرعب والفزع لامجرد مخاطبة الناس بعضهم بعضا فالناس في خوفهم يسرعون نحو الداعي وقد ذلت نفوسهم وخشعت . وانما تكون مخاطبة الناس كما تصوره سورة الأعراف بعد الحساب حين يساق المجرمون الى جهنم ، وينعم المؤمنون بالجنة . أما ساعة الحشر حين يجتمع الناس على صوت المنادي فلا مجال للمحاورة والحديث بينهم .

٢ – وفسر البعض الآخر ممن قرأ (التنادِ) بالتخفيف ان المقصود به ليس مجرد المخاطبة بين الناس ، وانما هو أعظم من ذلك وأرهب حيث يتصايح الناس خوفاً ورهبة مما ينتظرهم من العذاب . وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا التأويل حيث قال : « مُدْبِرين ينادي بعضهم بعضا ، وهو الذي يقول الله يوم التناد » (٢) . وسنجد ان هذا التفسير يعضد التفاسير الأخرى في رسم صورة المنادي .

٣ – ويمكن ان يفسر التناد بأنه اليوم الذي ينادى فيه الناس فيجتمعون لصوت المنادي الذي ينبههم وينفرهم من قبورهم وهو التفسير الذي فسر به قوله تعالى (واسْتَمِعْ يومَ ينادِ المنادِ من مكانٍ قريبٍ ، يَومَ يَسْمَعُونَ الصَّيحةَ بالحَقِّ ذلكَ يومُ الخروج) (٣) . فقد وصفوا هذا المنادي بأنه (ملك قائم على صخرة بيت المقدس وينادي أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة) (٤) . ويقوي هذا التفسير الصور السابقة التي مرت بنا

---

(١) راجع المعجم المفهرس : ٦٦١ .

(٢) جامع البيان ٢٤ : ٦١ .

(٣) سورة ق ٥٠ : ٤١ .

(٤) جامع البيان ٢٦ : ١٨٣ ، التبيان ٩ : ٣٧٦ ، وانظر أيضاً مجالس ثعلب ٢ : ٣٨٦ .

والتي تصور قيام الناس بعد النفير الذي يوجه اليهم بواسطة الصُّور ، أو الناقور أو الداعي . وقد اعتمد في هذا التفسير على أحد معاني الكلمة ، وهو دلالتها على الاجتماع . قال أبو زيد : « نَدَّ القومُ وانتَدوا : اجتمعوا ، والمنادي والندي المجلس مجتمعين فيه ، فاذا تفرقوا فليس بندي » (١) قال بشر بن أبي خازم :

وما يَنْدُوهُمُ النادي ولكنْ بكل مَحَلَّةٍ منهمْ فِئامُ (٢)

الفِئامُ الجماعة من الناس . يريد ان قومه كثيرون لايجمعهم نادٍ وانما تجد منهم جماعة في كل مكان . ومعنى الجمع تؤكده آيات أخرى كقوله تعالى : « ونفخ فى الصُّورِ فَجَمَعْناهُمُ جمعا » (٣) وكذلك تسمية يوم القيامة بالحشر ، لأن الناس يجمعون ، ويساقون فيه الى الحساب (٤) .

أما قراءة من قرأ (التنادّ) بتشديد الدال فانه قد اعتمد فيها على صورة وثيقة الصلة بالبيئة العربية ، تلك هي صورة الابل حين تفر من صاحبها وتهرب بعيدا عنه ، فيقال عنها حينذاك (نَدَّت) . هذا المعنى هو الذي اعتمد عليه فى هذه القراءة من الندّ (وذلك اذا هربوا فندُّوا في الأرض كما تَندُّ الابلُ اذا شَرَدَتْ على اربابها) (٥) وقال أبو الهيثم : (هو من

(١) المخصص ٣ : ١٤٥ ، وانظر أيضاً مقاييس اللغة ٥ : ٤١١ ، المفردات ٥٠٥ ، أساس البلاغة : ٩٤٦ ، وقد وردت بهذا المعنى في سورة العنكبوت ٢٩ : ٢٩٠ ، وسورة العلق ٩٦ : ١٧ ، وانظر الشعر في ديوان طرفة : ٨٠ .

(٢) ديوان بشر بن أبي خازم ٢٠٩ ، المفضليات : ٣٣٦ .

(٣) سورة الكهف ١٨ : ١٠٠ .

(٤) مجاز القرآن ١ : ٢٠٤ ، ٢ : ٢٠ ، وانظر أيضاً الصحاح ٢ : ٦٣٠ ، مقاييس اللغة ٢ : ٦٧ .

(٥) جامع البيان ٢٤ : ٦١ .

ندَّ البعيرُ نداداً أي شَرَدَ) (١) وهذا التفسير أقرب التفاسير الى الحياة البدوية ، لأن الصورة التي يوحيها أسرع الى الذهن من الصورة الأخرى لأنها صورة عالقة في ذهن العربي ، مرتسمة أمام ناظريه ، لأن الابل عماد حياته في الصحراء قد شهدها في هدوئها ، ونِفارها ، وخبر حركاتها وسكناتها ، ومن هنا وفرت التعابير التي تخص الابل ورسخت في الذهن العربي توحي له بالصورة المادية حتى اذا استعارها للتعبير عن معنى جديد مشابه لها أثارت في الذهن الصورة الحسية الأولى الى جانب المعنى الجديد الذي استعملت فيه . قال ذو الاصبع العدواني (٢) مفتخراً بكرامته ، وعزة نفسه حيث يشرد وينفر من البلد الذي لاكرامة فيه متمثلا في ذهنه صورة الابل حين تنفر من صاحبها قال :

عَفٌّ نَدُودٌ اذا ماخفْتُ من بَلَدٍ
هَوْناً فَلَسْتُ بوَقّافٍ على الهونِ (٣)

فصورة الابل حين تنفر من صاحبها واضحة في ايحاءات البيت السابق ولكن موحيات التعبير القرآني أعمق آثاراً ، لأنها ترسم حول التعبير صورا أخرى تزيد ملامح صورة نفار الابل وضوحا وبيانا ، فيوم التناد هو اليوم

---

(١) عن لسان العرب ٤ : ٤٢٩ ، وانظر أيضاً جمهرة اللغة ١ : ٧٧ ، ٣ : ١٩٠ ، الصحاح ١ : ٥٤٠ ، مقاييس اللغة ٥ : ٤١١ ، المخصص ٧ : ٨٥ باب ترك الابل واهمالها .

(٢) ذو الاصبع العدواني واسمه حرثان بن حارثة بن محرث ، وقيل له ذو الاصبع لأن أفعى ضربت ابهام رجله فقطعتها ، وهو أحد الحكماء الشعراء قيل انه عمر دهراً . أنظر الشعر والشعراء ٢ : ٥٩٧ ، المعمرون : ٥٨ ، المؤتلف والمختلف : ١٧٠ .

(٣) المفضليات : ١٦٣ .

الذي يفر الناس فيه بعضهم من بعض يشبهون في ذلك الابل حين تنـد على وجهها بعيداً عن اصحابها ، وتنفر هاربة منه ، ومن الطبيعي ان الابل لا تفر من اصحابها الا اذا فزعت واضطربت اضطرابا شديدا . وبذلك شبه حال الناس حين يسمعون صوت النفير المفزع يفر كل انسان بنفسه ناسياً اهله وأولاده . لان هول الموقف لا يبقي لهم تفكيراً ، ويكون الناس عنـد سماعهم صوت النفير كما تصورهم الآيات الكريمة : (يوم تكونُ السماءُ كالمُهْلِ ، وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ ، ولا يَسْألُ حميمٌ حميماً ، يُبصَّرونَهم يَوَدُّ المُجرمُ لو يَفتدي من عذاب يومئذٍ بِبَنيه ، وصاحبته واخيه ، وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الأرضِ جميعاً ثم ينجيه) (١) . ومع اننا نجـد ان المعاني الأخرى التي توحيها كلمة المنادي ، والتناد ، تجتمع كلها لترسم صورة ساعة النفير الا ان صورة الابل الشاردة اوضح ملامح ، واعمق ابعادا من الصور المعنوية الاخرى وهـذا التوجيه للآية الكريمة يرسم صورة الناس المفزعين المدبرين الذين يتصايحون ، ويتصارخون بالويل والثبور ذلك لان الآية التي ورد فيها (التناد) قد أتبعت بقوله جل من قائل : (يومَ تُوَلُّون مُدبرينَ مالَكُم من اللهِ من عاصم) (٢) .

واذا عدنا الى التفاسير السابقة نجـد ان المفسرين اعتمدوا على أربع استعمالات للكلمة — كما مرت بنا — وهي النـداء بمعنى رفع الصوت والمخاطبة ، ثم التنادي بمعنى التصايح من الخوف والثبور ، وثالثها النداء حيث يجتمع الناس على صوت يناديهم ، وهو الاستعمال الذي قـد يبدو متعارضاً مع الاستعمال الرابع الذي هو النفور :

وتبدو هذه التفاسير بعيدة بعضها عن البعض الآخر ولـكن تتبع

---

(١) سورة المعارج ٧٠ : ٨ ـ ١٤

(٢) سورة غافر ٤٠ : ٣٣

استعمال الكلمة يعيننا على ايجاد تفسير واحد يجمع كل التفاسير السابقة ، وذلك اذا اعتبرنا الفعل الثلاثي المضعف (نَدَّ) هو اصل الكلمة وهو يدلُّ على التجمع ، ثم فُكّ ادغام الحرف الاخير فقيل (نَدَيَ) . قال ابن فارس : (النون والدال والحرف والمعتل يدل على تجمع) (١) . ومنه النـدى الذي هو البَلَلُ والرطوبة (٢) ، ثم استعير في وصف الصوت النديّ من حيث انه من تكثر رطوبة فمه حسن كلامه ، ولهذا يوصف الفصيح بكثرة الريق (٣) ، وهو معنى نلمحه ايضاً في المنادي لان صوته يكون عالياً يُسْمِعُ كل من في القبور . ثم تطورت الكلمة الى نَدَّ بمعنى تفرق كما مر بنا (٤) ، ثم قيل نادى بمعنى صاح وخاطب ولا يوجد فرق او تضاد بين معنى ندَّ الذي هو التفرق وبين ندَّ الملازمة للمنادي بمعنى التجمع ، ذلك لان كل تَجَمّعٍ يكون نتيجة لتفرق وكل تفرق متأتٍ عن تجمع ، فكلاهما حركة متصلة تصل الاولى الثانية وتكون نتيجة لها (٥)

---

(١) مقاييس اللغة ٥ : ٤١١

(٢) اعتبر ابن فارس هذا المعنى اصلا اخر للكلمة بعد ان وضع لها الاصل الاول الذي هو التجمع ، ولكننا نجد انه استعمال آخر للكلمة بعد ان فُكّ ادغام حرفها الاخير ويظهر فيه معنى التجمع ايضاً ، لان الرطوبة او البلل تنتشر على النبت اذا وجدت .

(٣) المفردات : ٥٠٥

(٤) يلاحظ في هذا الباب قول الخليل في الثنائي المضاعف كالصلصلة مثلا انظر العين : ٧

(٥) وقريب من هذا بحث ابن جني حول مادة (قول) فانها كما يقول (اين وجدت ، وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتأخره عنه انما هو للخفوف والحركة » انظر الخصائص ١ : ٥

والتفسير الذي نراه جامعاً لكل المعاني السابقة يوضحه لنا استعمال كلمة المنادي في الشعر الجاهلي ، وذلك لانها اطلقت مرادفة لمعنى الداعي الذي مرّ بنا سابقاً ، فالمنادي هو الذي يستصرخ القوم عند الحروب والغارات المفاجئة ، ويدعوهم الى الامر الهام الذي ينتظرهم . قال بشر بن أبي خازم :

بشيب لا تخيم عن المنادِي وُمرْدٍ لا يُروّعَها اللقاء (١)

وصريخ المنادي يرهب من يسمعه في الحروب ، ومن هنا فهو مدعاة للمفخرة بين الشعراء فيفخر شاعرهم بنجدته لصريخ المنادي ، ودعوته الى الحرب والدفاع قال دريد بن الصمة :

اني اذا نادَى المُنادي لَيْلةً إحدى ليالي الحَقّ لم أتَغفَل (٢)

فالمنادي اقترنت صورته بصورة الفزع والرعب الذي يثيره الصريخ المُفاجيء فما ان يسمع القوم صوته حتى يعرفوا حقيقة امرهم وهي ان غارة مفاجئة قد داهمتهم قال الكلحبة العربني (٣)

ونادَى منادِي الحيّ أنْ قــد أتيتُمُ

وقد شَرِبَتْ ماء المَزادَةِ أجْمعا (٤)

وحين ينادي المنادي مؤذنا للحرب والغارة يجتمع حوله الناس ملبين نداء الدفاع عن القبيلة وشرفها ، ومن الناحية الاخرى قد يسبب صريخ المنادي هرب الجبناء من الناس ومن هنا جاء معنى التفرق والتجمع الذي

---

(١) ديوان بشر بن ابي خازم : ٦

(٢) الوحشيات : ٢٥٥

(٣) اسمه هبيرة بن عبد مناف بن ثعلبة بن يربوع ، احد فرسان بني تميم وساداتها ، شاعر محسّن والكلحبة لقبه ومعناه في اللغة صوت النار . المؤتلف والمختلف : ٢٦٣ ــ ٢٦٤ ، خزانة الادب ١ : ١٨٩ .

(٤) المفضليات : ٣١ :

يفهم من كلمة المنادي في الآية الكريمة .

ثم ان القوم ينادي بعضهم بعضاً في الحروب والهجمات المفاجئة ليحملوا الجميع على الحرب والاغاثة قال طفيل الغنوي .

فباتوا يسنون الزجاج كأنهم
اذا ما تنادوا خشرم متحدب (١)

ونعود الى الآية الكريمة حيث نجد ان كلمة التناد استعملت مطلقة دون الاشـارة الى تنادِ الابل ، او تنادي القوم وصياحهم ، واستعمالها مطلقة هو الذي يزيد من هول الوصف والفزع ليوم القيامة ، وتجتمع كل المعاني التي تتداعى عند ذكر كلمة التناد ، وتتعاون كلها على رسم صورة الناس المدبرين من الفزع ، وقد اشار الزمخشري الى هذا في تفسير قوله تعالى : (ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان (٢) . قال : (فان قلت فأي فائدة في الجمع بين المنادي وينادي ؟ قلت : ذكر النداء مطلقاً ثم مقيداً بالايمان تفخيما لشأن المنادي ، لانه لا منادي اعظم من منادٍ ينادي للايمان ! وذلك ان المنادي اذا اطلقت ذهب الوهم الى منادٍ للحرب او لاطفاءِ نائرةٍ ، او لاغاثة المكروب ، او لكفاية بعض النوازل او لبعض المنافع) (٣) .

ومن هنا جاءت الروعة في التعبير القرآني ، وتجلى الاعجاز فى كلمة واحدة مطلقة عن التحديد بإيحـاء خاص ، فاوحت بكل ما توحيه كلمـة المنادي بمغانيها المختلفة فهي ترسم في الذهن شتى الصور الزاخرة بالحركة

---

(١) ديوان طفيل : ٢١ ، وانظر تنادي الخيل في الحـرب ديوان بشر بن ابي خازم : ١٠ المخصص ٦ : ١٤١

(٢) سورة آل عمران ٣ : ١٩٣

(٢) الـكشاف ١ . ٣٦٩

والانفعال ، ذلك لان الناس يهبّون من قبورهم اثر منبه مفزع هو المنادي الذي يدعوهم الى يوم الحساب فيجتمعون تلبية لندائه ، ولكنهم في نفس الوقت يتنادون بينهم ويتصايحون خوفاً ، وهلعا ، ويفر بعضهم من بعض هارباً على وجهه كما تندُّ الابلُ بكل ما يحمله هذا المعنى الاخير من ايحاءات وثيقة الصلة بالبيئة العربية .

وعلى هذا فكل تفاسير المفسرين السابقة يمكن ان تفهم مجتمعة في التعبير القرآني ، وهي نفس الايحاءات المرعبة المليئة بالحركة السريعة التي مرت بنا في الداعي ومن تعبيري الداعي والمنادي تتشكل الصورة الثانية من صور النفير العام الذي يكون قوامه صوتاً مفزعاً ينادي الناس ، ويجمعهم من قبورهم الى ساعة الحِساب .

ج ـ الصيحة والزجرة :

واخيراً فهناك اللوحة الثالثة التي يشكلها تعبيران ايضاً هما الصيحة والزجرة ، قال سبحانه وتعالى (ويقولون متى هـذا الوَعْدُ ان كنتم صادِقينَ ؟ ما ينظرونَ الاّ صيحةً واحدةً تأخُذُهمُ وهم يَخِصمّون فلا يَستطيعونَ توصيةً ولا إلى أهْلِهم يَرْجعونَ ، ونُفِخَ في الصُّور فاذا هُمَ مِنَ الاجداث الى رَبِّهِم ينسلون ، قالوا : يا وَيلنا مَنْ بعثنامن مَرْقَدِنا ؟ هذا ما وَعَدَ الرَّحمنُ وَصدقَ المرسلون ، ان كانتْ الا صيحةً واحدةً فاذا هُمْ جميعٌ لَدَيْنا مُحْضَرون) (١) .

وقد فسرت الصيحة بالنفخة (٢) ، وتفسيرها هذا متأتٍ من طبيعة استعمالها وكونها مبهمة غامضة ، فهي توحي مع السياق العام بكل معاني

(١) سورة يس ٣٦ : ٤٨ ـ ٥٣

(٢) جامع البيان ٢٣ : ١٤ ، التبيان ٩ : ٣٧٦ ، الكشاف ٣ : ١٦٥

الرعب والفَزع وبما ان النفخ في الصُّور او الناقور يتبعه صوت شديد يلائم شدة يوم القيامة فهذا الصوت هو الذي فهم منـه معنى الصيحة فقالوا انها النفخة ، وفي قوله تعالى : (واسْتَمِعْ يومَ يُنادِي المُنادِي مِنْ مكان قَريب) (١) . روي عن ابن عباس انه فسر المنادي بالصيحة (٢) . ونفهم هذا التفسير اذا تذكرنا ان نداء المنادِي ، وصريخه عنـد الملمات انما يكون بصوتٍ مرعبٍ عالٍ – كما مرَّ بنا – وان صوت المنادِي يوم القيامة يكون مرعباً مفزعاً عالياً لينبه الناس من قبورهم ويدعوهم ليوم الحساب .

والصياح في الاصـل هو الصوت الشديد الجافي كما يقول صاحب العين (٣) . وقال السجستاني الصرخة : الصيحة الشديدة عند الفزع وقيل هو الصوت الشديد ما كان (٤) ، وهو الاصل الذي وضعه ابن فارس للكلمة حين قال (الصاد والياء والحاء اصل صحيح وهو الصوت العالي) (٥)

وكما لازم المنادي والداعي البيئة العربية في حروبها ، وصريخها عند الملمات فكـذلك الصيحة اذ انها اطلقت على الغارة إذا فُوجىء الحي بهـا (٦) وتصايح القوم بمعنى تداعوا (٧) ولما كان الصياح مقابلا للصريخ الذي هو صوت غير اعتيادي فان سماعه يؤذن بشرٍ ، وأذىً يلحق القوم

(١) سورة ق ٥٠ : ٤١

(٢) جامع البيان ٢٦ : ١٨٣

(٣) عن المخصص ٢ : ١٣٣

(٤) ن ٠ م ٢ : ١٣٢

(٥) مقاييس اللغة ٣ : ٣٢٤

(٦) لسان العرب ٣ : ٣٥٣

(٧) اساس البلاغة : ٥٥٠

وانـــذار لهم من حادث مفاجىء مرعب . فاذا سمع الصياح تبادر الى الذهن الرعب ، والفزع ، قال النابغة الذبياني :

كأنَّ على الحدوجِ نِعاجَ رَمْلٍ زَهاها الرعبُ او سَمِعَتْ صياحا(١)

وقال ايضاً مادحا بني جذيمة بأنهم اذا سمعوا الصياح بادروا الى الاجابة :

قومٌ اذا كَثُرَ الصياحُ رأيتهم وفراً غداةَ الرَوعِ والانْفارِ (٢)

وفي هذا دلالة على ماتوحيه كلمة الصيحة من انها وسيلة للنفير مقترنة بالرعبِ والصوت المفزع في البيئة العربية ، ولما كانت الصيحة مقترنة بالفزع فان الهلاك متوقع بعدها لأن فيها انذاراً لما بعدها . ومن هنا فسّر أبو عبيدة الصيحة بالهلاك قال : (فأخذَتْهم الصيحةُ مصبحين أي الهلَكة ، ويقال صيح بهم أي أهلكوا) (٣) وذلك لأن الهلاك يتبع الصيحة القوية الصادرة عن الرعب ، وهول الحادث .

أما الزجرة فقد قال تعالى : (يَوْمَ تَرْجِفُ الراجِفةُ ، تَتْبَعُها الرادِفَةُ ، قلوبٌ يومئذٍ واجِفَةٌ أبصارُها خاشِعَةٌ ، يقولون أإنّا لمردودون في الحافرةِ ، أإذا كنا عظاما نَخِرةً ؟ قالوا : تلك اذاً كرّةٌ خاسِرةٌ ، فانما هي زجرةٌ واحدة فاذا هم بالساهرة) (٤) .

---

(١) ديوان النابغة الذبياني : ٢٧ ، وانظر شواهد أخـــرى من الشعر في المفضليات : ١٢٤ ، الوحشيات : ٩٦ ، الحيوان : ٥ : ٦٠٢ .

(٢) ديوان النابغة الذبياني : ٦ .

(٣) مجاز القرآن ١ : ٣٥٤ .

(٤) سورة النازعات ٧٩ : ٦ ـ ١٤ ، والساهرة : وجه الأرض المستويةأنظر الكشاف ٣ : ٣٠٩ ، المخصص ١٠ : ٦٨ ، ١٤٦ .

فقد فسرت الزجرة هنا بالنفخة (١) وقرنت بالصُّور قال السجستاني : (زجرة واحدة يعني نفخة الصُّور) (٢) . ثم فسر نوع الزجرة ودلالتها فقال : (الزَّجْرَةُ : الصيحة بشدة وانتهار) (٣) أما الزمخشري فقد فسّرها بالصيحة ثم حدد الصيحة بأنها النفخة الأولى قال : (فان قلت بِمَ تعلق قوله فانما هي زَجرة واحدة ؟ قلت بمحذوفٍ معناه ، لاتستصعبوها فانها هي زجرة واحدة ، يعنى لاتحسبوا تلك الكرة صعبة على اللهِ عزّ وجل فانها سهلة هينة ، ماهي إلا صيحة واحدة يريد النفخة الأولى) (٤) ، وحددها الطوسي بالنفخة الثانية (٥) .

وكما استطعنا ان نتعرف على سبب جمع المفسرين بين الصيحة والتعابير الأخرى للنفير ، فكذلك هنا ، لأنه لما كانت الآيات الكريمة التي تخص نفير يوم القيامة مرتبطة كلها بصوت مرعب مفزع ، فان هذا الجو نفسه يملأ ايحاء كلمة الزجرة مما يوجه المفسرين الى تفسيرها بالنفخة والصيحة ، ولم تقترن الزجرة بالصريخ المفزع عند الملمات كما هو الحال بالصيحة فحسب انما الملاحظ اقترانها بالشدة والهول أكثر مما هو في الصيحة ، لما في الأولى من ايحاء القوة والعنف . هذا المعنى الشديد المرعب استمد ايحاءه من البيئة العربية نفسها حيث اطلقت الكلمة على معنى حسي يشهده العربي في كل وقت وهو معنى الصيحة والانتهار التي يزجر بها الحيوان ويساق على أثرها بشدة ، وعنف . قال الخليل : (نَعَقَ الراعي بالغَنَم نعيقا : صاح بها

(١) تنوير المقياس : ٣٨٠ ، جامع البيان ٣٠ : ٣٥ .
(٢) غريب القرآن : ١٢٢ .
(٣) ن . م .
(٤) الكشاف ٣ : ٣٠٩ .
(٥) التبيان ١٠ : ٢٥٤ ،

زجرا (١) ، وقال ابن سيدة في باب الزجر بالخيل ، والبغال ، والحمير : (زَجَرْتُ الدابةَ والرجلَ والسبعَ ونحو ذلك ازجُرهُ زجراً ، وازدجرتُهُ فانزجَرَ وازْدَجَرَ) (٢) ، وقال الراغب : (الزجرةُ طردٌ بصوتٍ .. ثم يستعمل في الطرد تارة ، وفي الصوت أخرى ، واستعمال الزجر لصياحهم بالمطرود نحو ان يقال اعزُبْ وتنحَّ وراءَكَ) (٣) .

وقد اختلف في هـذا الصوت الذي يُزْجَرُ به الحيوان تبعاً لنوع الحيوان ، وما اعتاده من الصوت الذي يؤثر فيه ويزجره (٤) ، ومن هنا قيل زَجَرَ البعيرَ أيْ ساقَهُ (٥) ، لأن السوق نتيجة للصيحة أو نتيجة لزجر الراعي لها بشدة تدفعها نحو المسير ، ومن هنا جاء تفسيرهم لقوله تعالى : (والصافاتِ صَفّاً ، فالزاجراتِ زَجْرا) (٦) حيث فسرت الزاجرات بالملائكة لأنها تَزْجُرُ السحابَ أي تسوقه (٧) .

وسوق الابل بالزجر ينمّ عن قوة وشدة اعتاد العربي ان يسوق ابله بها اذا أراد اسراعها أو اذا أحجمت عن المسير ، ومن هنا عابوا على امرىء القيس قوله في مفاخرته مع علقمة الفحل واصفاً فرسه :

---

(١) العين : ٨٩ .

(٢) المخصص ٦ : ١٨٢ .

(٣) المفردات : ٢١١ .

(٤) التهذيب : الورقة ١١٧ ، ١٣٣ ، وانظر أيضاً الغريب المصنف الورقة ٣٩٠ ، المخصص ٧ : ٨٠ .

(٥) الصحاح ٢ : ٦٦٨ ، لسان العرب ٥ : ٤٠٧ .

(٦) سورة الصافات ٣٧ : ١ - ٢ .

(٧) جامع البيان ٢٣ : ٣٣ ، أساس البلاغة : ٣٩٤ .

فللساقِ أُلهوبٌ وللسَّوْطِ درَّةٌ
وللزَّجْرِ منه وَقْعُ أهوجَ مِنْعَبُ (١)

ذلك لأن الفرسَ الجيدة لاتحتاج الى القوة والزجر في سيرها ، فاعتبر هذا مأخذاً عابوه عليه (٢) .

واذا زجرت الابل فانها لاتسرع فحسب بل تصيبها الخفة والطيش لما في الزجرة من نَهْرٍ شديد يثير رعبها وخوفها ، ومن هنا فخروا بالناقة التي لاترعب اذا زجرت (٣) .

واذا كانت الغارات المفاجئة تستدعي السرعة في الهجوم والكر والفر فقد اقترن الزجر باختلاط أصواتهم في الحروب ، قالت الخرنق بنت هفان (٤) .

قَوْمٌ اذا ركبوا سَمِعْتَ لهم   لَغْطاً من التأييهِ والزَّجْرِ (٥)

وأنشد أبو عثمان المازني (٦) :

---

(١) ديوان امرىء القيس : ٥١ .

(٢) الصناعتين : ٧٤ .

(٣) أراجيز العرب : ١٧ ، أنظر أيضاً المخصص ٧ : ١٢٣ .

(٤) هي الخرنق بنت بدر بن هفان وبعضهم يسميها الخرنق بنت هفان من بني ضبيعة ، وهي اخت طرفة بن العبد لامه ، شاعرة من الشهيرات في الجاهلية تزوجها بشر بن عمرو بن مرثد سيد بني أسد وقتله بنو أسد فكان أكثر شعرها في رثائه ورثاء أخيها طرفة أنظر خزانة الأدب ٢ : ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

(٥) الحماسة البصرية : الورقة ١٢٤ (أ) .

(٦) هو بكر بن محمد بن حبيب بن بقيه ، أبو عثمان المازني من مازن شيبان أحد الأئمة في النحو . من أهل البصرة ووفاته فيها . أنظر معجم الأدباء ٢ : ٢٨٠ فما بعدها .

لما سَمِعْتُ زَجْرَهم هِقَطُ عَلِمْتُ أنَّ فارِساً مُنْحَطُّ (١)

ومن هذا المعنى الحسي جاء الاستعمال المعنوي للزجر وهو دلالته على النهر ، والردع مطلقاً . قال الزجاج الزجر : النهر (٢) . وقد وردت بهذا المعنى في الشعر الجاهلي (٣) . ومنها قالوا : الزواجر : المواعظ لأنها تزجر الانسان وتمنعه عن السيآت (٤) .

ومن هنا يتضح لنا ان استعمال الزجرة في القرآن الكريم مطلقة يزيد من ايحاء العنف والقوة الذي لازم ساعة النشور لأنها صوت مبهم ، ولكنه مفزع يرعب كل من يسمعه ، وقد قرن الزمخشري الزجر بمعناه الحسّي حين فسّر الآية قال هو (من قولهم زجر البعير اذا صاح عليه) (٥) وقد مر بنا ان زجر البعير ليس صياحا عليه فحسب بل هو نهر ، وسوق بشدة وقوة مما جعل الزجرة في القرآن الكريم وسيلة للنفير تثير في الذهن صورة للبيئة العربية مقترنة بالرعب والسرعة والسوق الشديد ، فكأنّ الناس لايوقظون على الصوت المفزع فحسب انما يساقون ويدفعون بكل ماتحمله كلمة السوق

(١) الكامل للمبرد ١ : ٢٣٧ .

(٢) لسان العرب ٥ : ٤٠٧ ، وانظر أيضاً الصحاح ٢ : ٦٦٨ .

(٣) أنظر ديوان النابغة الذبيـاني : ٦٨ ، ديوان الحطيئة : ١٧٥ ، ديوان عروة بن الورد : ٧٢ ، شرح ديوان كعب بن زهير : ٢١٣ ، الكامل للمبرد ١ : ١١٦ .

(٤) أساس البلاغة : ٣٩٤ . وهو المعنى الذي فسر به قوله تعالى في سورة القمر ٥٦ : ٤ (ولقد جاءَهُم من الأنبـاء مافيه مزدجر) ، فقصص الأنبياء ، والاقوام السالفة زجر للمشركين ، لأن فيها مايردعهم ، ويزجرهم عماهم عليه مقيمون من التكذيب بآيات الله . جامع البيان ٢٧ : ٨٩ .

(٥) الكشاف ٣ : ٣٠٩ .

من معاني الذلة والعنف تماما كما يساق ويزجر البعير الذي تعوّد القوة والعنف من صاحبه .

فحشر الناس من قبورهم مصحوب في كل صور النفير بالرعب والفزع ، وقد أضاف تعبير الزجرة معنى آخر هو الذل والعنف ، كما ان توكيدها بكلمة (واحدة) يدل على القوة والسرعة لأنها تبين سهولة قيام الساعة عند الله ، وسرعة قيامها إثْرَ صيحة وزجرة واحدة لا أكثر .

وبهذين التعبيرين الصيحة والزجرة تتشكل في الذهن لوحة ثالثة للنفير وحشر الناس إثْرَ منبه عظيم يرعبهم .

هذه اللوحات الثلاث عرضت في القرآن الكريم لبيان غرض واحد هو النفير الذي يُحشر بواسطته الناس يوم القيامة ، واذا كانت هذه التعابير قد اختلفت وتنوعت فان الروح مشتركة فيها جميعاً ، فالصُّور والناقور قوام اللوحة الأولى هما وسيلتا النفير ينفخ فيهما فيسببان صوتاً مرعباً يجتمع على إثْره الناس . أما الداعي والمنادي فانهما يصيحان بصوت مرعب مفزع فيهرع الناس نحوهما تلبية للنداء ، وقد ذهلت عقولهم ، وفزعت قلوبهم . أما الصيحة والزجرة فقد صورتا النفير بصوت مرعب واحد يفاجيء الناس فيحشرهم ليوم القيامة . فصوت النفير المرعب مشترك في اللوحات الثلاث ، كما ان الايحاءات التي ترسمها الآيات الكريمة في الذهن هي نفسها في كل التعابير الا وهي الفزع واسراع الناس نحو النفير ، وقد ذلت نفوسهم واحاطهم الرعب والفزع ، وشُغِل كل منهم عن غيره ، لايفكر إلا في الهول الذي ينتظره ، والذي رأى بوادره في النفير المفزع الذي دعوا بواسطته

٢ ـ مدة النفير :

حين كثرت التعابير التي تصور النفير اختلط على المفسرين أمر تحديد

المرات التي يدعى فيها الناس الى النفير لذلك نراهم مثلا قد اختلفوا في تحديد الصيحة ، فقد فسرها بعضهم مطلقة عن التحديد بالنفخة الأولى ، أو الثانية أو الثالثة عند بعض المفسرين (١) وعند الطوسي والزمخشري النفخة الثانية (٢) وفسّرها الطبري بالنفخة الثالثة (٣) ، وكذلك الحال مع الزجرة (٤) .

واختلاف المفسرين في تحديد المرات التي يدعى فيها الناس يمكن أن نجد له تعليلا ، فهم لم يفهموا ان التعابير الستة التي مرت بنا انما هي وسائل متعددة الوجوه لبيان صورة واحدة هي صورة النفير الذي يدعى بواسطته الناس وان هذه التعابير تشترك كلها في بيان هذه الصورة ، ثم اننا نجد في سياق الآيات التي ورد فيها ذكر الصُّور اشارات الى تكرر النفخ فيه ، مما يدفع الذهن الى الاعتقاد بتكرار النفير أكثر من مرة قال الله سبحانه وتعالى (ونُفِخَ في الصُّور فَصعِقَ مَنْ في السماوات ومَنْ فى الأرض إلا من شاءَ اللهُ ثم نُفِخَ فيه أخرى فاذا هُم قيامٌ ينظرونَ) (٥) وقال أيضاً (يومَ ترجفُ الراجفةُ ، تَتْبعُها الرادِفَةُ) (٦) .

ويبدو انه لاتعارض بين توكيده عزَّ وجلّ الآيات التي تخص النفير بكلمة (واحدة) (وما يَنْظُرُ هؤلاء إلا صيحةً واحدةً مالها من فُواق) (٧)

---

(١) جامع البيان ٢٣ : ١٤ ، الكشاف ٣ : ٥٥ .

(٢) التبيان ٩ . ٣٧٦ ، الكشاف ٣ : ١٦٥ .

(٣) جامع البيان ٢٣ : ١٧ .

(٤) التبيان ١٠ : ٢٥٤ ؛ الكشاف ٣ : ٣٠٩ ؛

(٥) سورة الزمر ٣٦ : ٦٨ .

(٦) سورة النازعات ٧٩ : ٦ ـ ٧ .

(٧) سورة ص ٣٨ : ١٥ .

لاتعارض بين هذا التوكيد وبين فهم المفسرين للنفخات وتحديدها بالأولى والثانية والثالثة ! لأن النفير الذي يدعى اليه الناس انما يكون مرة واحدة سواء كان ذلك بالصُّور أو بدعوة الداعي ، وانما يُنْفَخُ في الصُور أول مرة فتموت الخلائق وهي التي يصعق لها من في السماوات والأرض ، وتختتم فيها الحياة ، وتتلو هذه نفخة أخرى وهي نفخة النفير التي تبعث الناس من قبورهم إعلاماً لساعة الحساب ، ومن هنا نجد ان النفير ليوم القيامة انما يكون بنفخة واحدة لاعلاقة لها بالنفخة التي تسبق موت الخلائق ، وفناء العالم ، وهي بهذا لاتدخل ضمن بحثنا للنفير وحشر الناس من قبورهم . ونجد لهذا التوكيد دلالة أخرى وهي تصويرها لسرعة مدة النفير ، وانه يكون بطواعية ودون تأخير ، ومما يؤكد كون التعابير الستة السابقة وسائل عديدة لتصوير النفير وانها لايراد بها تحديد عدد المرات ان كلمة (واحدة) لازمت النفخة ، والصيحة ، والزجرة ، فلو كان القصد اظهار العدد للازمت تعبيرا واحداً دون التعابير الأخرى .

وعند النفير المرعب الذي ينبه الناس بواسطته يجدون أنفسهم وجهاً لوجه أمام الهول والفزع ، وتنفصم الأواصر الدنيوية التي يتقرب بها الناس بعضهم الى بعض ، فلا انساب تنفعهم ولا سلطان ينتشلهم من العذاب الذي ينتظرهم فيتمنون العودة الى الحياة الدنيا ، وانى لهم ذلك ؟ اذ لامفر لهم بعد ان قامت الساعة ونُودي للحساب . هذه الفكرة صورت بتعبير رائع في آية قرآنية كريمة تعكس لنا صورة زاخرة بالحياة الانسانية وفيها انعكاس للبيئة العربية : قال سبحانه وتعالى (كَذَّبَتْ قَبْلَهم قومُ نوحٍ وعادٍ وفرعونَ ذو الأوتادِ ، وثمودَ وقومُ لوطٍ وأصحابُ الأيكةِ أولئك الأحزابُ ، إنْ كلٌ الا كَذَّبَ الرسلَ فحقَّ عقاب وما ينظر هؤلاءِ

الا صيحةً واحدةً مالها من فُواق) (١) :

وقد اختلف المفسرون في قراءة الفواق بالفتح أو الضم ، واختلفوا في تفسيرها تبعاً لذلك قال الفراء : (مالها من فُواق يقرأ بالضم والفتح أي مالها من راحة ، ولا افاقة ، ولا نظرة ، وأصلها من الافاقة في الرضاع اذا ارتضعت البهمة امها ثم تركتها حتى تنزل شيئاً من اللبن فتلك الافاقة الفواق) (٢) . وقال أبو عبيدة مالها من فُواق من فتحها قال : مالها من راحة ، ومن ضمها فُواق وجعلها من فُواق ناقة وهو مابين الحلبتين) (٣) أما الطبري فاختلاف القراءة لاتغني عنده اختلافاً في المعنى لأنهما قراءتان لكلمة واحدة تعنيان معنىً واحداً (٤) . وقد جمع الزمخشري المعنيين في تفسيره حين قال : (مالها من فَواق وقرىء بالضم مالها من توقف مقدار فُواق الناقة وهو مابين حلبتي الحالب ، ورضعتي الراضع ، يعني اذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان كقــوله تعالى : (فاذا جاءَ أجَلُهُم لايستأخرونَ ساعةً) (٥) .

أما عند اللغويين فنجد ان ابن فارس قد وضع معنى الاوبة والرجوع أصلا للكلمة ، وحاول ان يربط المعاني الأخرى به كفُواق الناقة مثلا ، ولكن الظاهر إن معنى الاوبــة والرجوع متأخر عن معنى فُواق الناقة ،

(١) سورة ص ٣٨ : ١٢ ـ ١٥ .

(٢) لسان الغرب ١٢ : ١٩٤ .

(٣) مجاز القرآن ٢ : ١٧٩ ، غريب القرآن : ١٨٥ ، تأويل مشكل القرآن ١١٣ ، مجالس ثعلب ١ : ١٦١ ، الصحاح ٤ : ١٥٤٦ ، مقاييس اللغة ٤ : ٤٦١ ، المخصص ٧ : ٣٧ .

(٤) جامع البيان ٢٣ : ١٣٣ .

(٥) الكشاف ٣ : ٤٦١ .

وذلك لأن الثاني معنى حسي اسبق في الوجود في البيئة الغربية التي اهتمت اول ما اهتمت بالمعاني المتعلقة في بيئتها ، ثم اشتقت منها المعاني الأخرى ومنها المجازية مثلا .

وفُواق الناقة رجوع اللبن في ضرعها بعد الحلب (١) ، أو هو مابين الحلبتين من الوقت ، لأنها تحلب فترة ثم تترك يرضعها الفصيل لتدرّ ثم تُحلب (٢) وقد وردت في الشعر الجاهلي دالة على هذا المعنى الحسي كما وردت في شواهد أخرى دالة على المعاني المجازية قال الأعشى :

حتى اذا فِيقَةَ في ضَرْعِها اجتمعت
جاءَت لترضع شقّ النفسِ لو رَضعا (٣)

وقال أيضاً متغزلا بصاحبته مشبها اياها بالظبية ثم يستمر واصفاً الظبية :

ماتعادى عنه النهارَ ولا تعـ ـجُوهُ الا عفافة أو فواق

أي انها لاتبتعد عن رضيعها طول النهار ، ولا تؤخر رضاعته الا ريثما يجتمع في ضرعها بعض اللبن (٤) وقال الطرماح وهو الشاعر الخارجي الذي ينحو في شعره نحو الاعراب وأهل البادية قال يصف سرعة قداح اجيلت فيشبهها بغزلان تذكرت فيقة ارامها :

تَخُورُ بالأيدي اذا استُعجِلَتْ عَدْواً على خِفَةِ اجسامها
خوارَ غزلانَ لِوى هيثَمٍ تذكرتْ فِيقَةَ ارامِها (٥)

ووردت كذلك في الحديث النبوي الشريف في قوله (ص) من قاتل

---

(١) العين : الورقة (٥٦) ، مقاييس اللغة ٤ : ٤٦١ .

(٢) تأويل مشكل القرآن :١١٣،الصحاح ٤ :١٥٤٦ ، غريب القرآن : ١٨٥

(٣) ديوان الأعشى : ١٣ ، وانظر أيضاً شرح القصائد السبع : ١٣ .

(٤) ديوان الأعشى : ٣٢ .

(٥) ديوان الطرماح : ١٦٣ .

في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة (١) . وروى عنه (ص) انه قال : عيادة المريض قدر فواق ناقة (٢) . ومن هـذا المعنى الحسي اشتقت باقي المعاني الأخرى المعنوية منها والمجـازية فالأفاويق ما اجتمع من السحاب من ماء فهو يمطر ساعة بعد ساعـة (٣) . وصورة فواق الناقة واضحة هنا في اجتماع الماء في السحاب بين الفينة والأخرى .

ومن المجاز تَفَوَّقْتُ الماءَ شربته شيئاً بعـد شيء (٤) ، وكذلك الفُواق وهو الذي يأخذ الانسان عند النَزَع ، وكذلك الريح التي تشخص في صدره (٥) والفواق ترديد الشهقة (٦) فكأن نزع الموت سمي فواقاً لأن الروح عند النزع تقبض ثم تعود ، كما يرجع اللبن عند فواق الناقة .

وقولهـم مايفيق وما يستفيق من الشرب (٧) : واستفاق من مرضـه وأفاق (٨) . وهذا المعنى مستمد أيضاً من المعنى الحسي المستعمل في الآية وهو فواق الناقة ، وقد صَرَّح المفضلُ بن سلمة بهذا الأصل وعلاقتـه بافاقة الشرب ، (مايَفيقُ وما يَسْتَفِيق من الشرب معناه انه لايدعه ، وأصل هذا من قولهم استفقْتُ الناقةَ وهو ان تَحلبها ثم تدعها حتى يثوب لبنها

---

(١) سنن الدارمي ٢ : ٢٠١ ، وانظر أيضاً مسند الامام أحمد ٢ : ٢٠٦ .

(٢) لسان العرب ١٢ : ١٩٤ .

(٣) أساس البلاغة : ٧٣٢ ، المخصص ٧ : ٣٨ .

(٤) أساس البلاغة : ٧٣٢ ، المخصص ٧ : ٣٨ ، ٩ : ١٠٨ :

(٥) الصحاح ٤ . ١٥٤٦ ، المخصص ٣ : ١١٧ ، ٥ : ٧٨ .

(٦) لسان العرب ١٢ : ١٩١ ، النوادر ١ : ١٠٣ ، المخصص ٦ : ٢٣ :

(٧) الفاخر : ٢٨١ .

(٨) الصحاح ٤ : ١٥٤٧ ، المخصص ٥ : ٨٧ .

ثم تحلبها . فقولهم مايفيق وما يستفيقُ أي ليس له وقت معلوم .) (١) .

ومن هنا نرى ان قوله سبحانه وتعالى : (وما يَنْظُرُ هؤلاءِ إلا صيحةً واحدةً مالها من فواق) (٢) انما يرسم للسامع صورة واضحة الملامح للبيئة العربية اذ انها توحي أول ماتوحي بالأصـل الحسي وهو فواق الناقة الى جانب المعنى المجـازي المراد من الآية وهو معنى العودة والرجوع . ونحن نعرف أهمية الناقة في الحياة العربية وصلة العربي بها ، وكيف ان لغته قد وفرت بالألفاظ التي تخص الابل (٣) . فتنقل الآية الكريمة الى الذهن الفترة القليـلة التي يستلزمها فواق الناقة ، ويعكس لنا هذا المعنى أهميـة الناقة ، وكيف انها ربطت حياة العرب بها حتى صار يحدد بعض أوقاته ، بظاهرة تحدث أمام ناظريه ، وهي الفترة القصيرة التي تستدعي نزول اللبن من الضرع ومن هنا جاء الاعجاز القرآني يرسم صوراً شتى في ذهن القارىء في كلمة واحدة لها دلالتها على البيئة العربية كالفواق بدل ان يقرر بتعبـير معنوي خالص بأن النفير الذي يدعى اليه الناس لامفر منه ولا مهرب من عذابه ، وقد أكد هذا المعنى في آيات أخرى للدلالة على سرعة قيام الساعة (وما أمـرُ الساعةِ الا كـلَمـْحِ البَصَرِ أو هو أقـرب) (٤) . (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبَصَر) (٥) .

هذه هي صور النفير بتعابيرها المختلفة التي تصور سرعة قيام الناس

---

(١) الفاخر : ٢٨١ ،

(٢) سورة ص ٣٨ . ١٥ .

(٣) أنظر المخصص كتاب الابل ٧ : ١ ـ ١٧٤ .

(٤) سورة النحل ١٦ : ٧٧ ،

(٥) سورة القمر ٥٤ : ٥٠ .

من قبورهم والهلع الذي يعتورهم عند سماعهم صوت النفـير المفزع ، وفي كل هذه الصور وجدنا ملامح متعـــددة الجوانب للبيئة العربيـة تسرع الى الذهن لترسم صورة حية الى جانب المعنى المعنوي المراد ايضاحه في الآيات الكريمة .



الفصل الثانى

اضطراب السماوات والأرض

١ ـ اضطراب الأرض .

أ ـ رجتها وزلزلتها

ب ـ تكسر الجبال وتفتتها

١ ـ سير الجبال وتشبيهها بالسراب

٢ ـ نسفها

٣ ـ بسها

٤ ـ تشبيهها بالعهن

٥ ـ سرعة انهيارها

٢ ـ اضطراب السماوات

أ ـ تحولها الى سائل

ب ـ دورانها

ج ـ تشققها وانفطارها

د ـ تناثر النجوم

١ ـ اضطراب الأرض

بعد مشهد النفير المفزع الذي مرت بنا صوره سابقاً تحدث في الكون عدة ظواهر تشترك كلها في اظهار جو رهيب مفزع يقف الناس أمام هوله وفي كل تعبير نجد تصويراً انسانياً رائعاً وتجسيداً واضحاً للبيئة العربية .

أ ـ رجتها وزلزلتها

ان الظاهرة التي تعرض للارض عبر عنها بعدة تعابير تشترك كلها في ايجاد صورة واحدة تتمثل فيها حالة الأرض بعد النفير . قال الله سبحانه وتعالى : (واستمعْ يومَ ينادي المنادي من مكانٍ قريبٍ ، يومَ يسمعونَ الصَيحةَ بالحقِ ذلك يومُ الخروجِ ، إنا نحن نُحيي ونميتُ ، والينا المصير يومَ تَشقَقُ الأرضُ عنهم سِراعا ذلك حَشرٌ علينا يسيرٌ) (١) .

فالأرض بعد صيحة المنادي تتصدع وتتفطر كما يقول المفسرون (٢) .
وفي سورة الواقعة نجد تصويرا لحال الأرض فيه حركة ملازمة للتشقق ، والتصدع . قال سبحانه وتعالى : (اذا وقعت الواقعةُ ، ليس لوقعتها كاذبةٌ خافِضةٌ رافعةٌ ، اذا رُجّتِ الأرض رجا ، وبُسّتْ الجبال بسا) (٣) .
فرجة الأرض هنا معناها اضطرابها ، وحركتها السريعة أثر صعقة النفير (٤)

---

(١) سورة ق ٥٠ : ٤١ ـ ٤٥ .

(٢) مجاز القرآن ٢ : ٢٤٧ ، جامع البيان ٢٦ : ١٨٤ ، التبيان ٩ : ٣٧٥ ، الكشاف ٣ : ١٦٥ .

(٣) سورة الواقعة ٥٦ : ١ ـ ٥ ،

(٤) مجاز القرآن ٢ : ٢٤٧ ، جامع البيان ٢٧ : ١٦٧ ، التبيان ٩ : ٤٨٨ ،

والرج في اللغة (أصل يدل على الاضطراب . . . والرج تحريك الشيء تقول رججت الحائط رجا ، وارتج البحر) (١) وقال ابن دريد (وسمعت رجة القوم ، أي أصواتهم ، وكذلك رجة الرعد أي صوته) (٢) . فكأن القوم لايسمع صوتهم الا اذا اضطربوا ، وارتجوا لأمر مفزع ، وكذلك الرعد يسمع صوته حين تصطدم سحابتان بعضها ببعض ، فكأن صوتها يأتي نتيجة الاضطراب والرجة .

وهناك دلالة حسية أخرى غير معنى الاضطراب ، وهي تلك التي أشار اليها أبو عبيدة بقوله مفسراً رجة الأرض : (اضطربت والسهم يرتج في الغرض) (٣) . وقال الطبري : (اذا رجت الأرض رجا ، يقول تعالى اذا زلزلت الأرض فحركت تحريكا من قولهم السهم يرتج في الغرض بمعنى يهتز ويضطرب) (٤) .

وهذا التفسير ينقل الى الذهن صورة الرمح حين يرتج ويضطرب . بالاضافة الى دلالته على لصوق صورة الرمح في البيئة العربية المضطربة ، حيث الغزوات المفاجئة والموت المحتم اذا اهتز الرمح ، واضطرب في يد حامله . ولطالما ذكر الشعراء الرماح وآلات الحرب في أشعارهم ، ووصفوها بدقة ، لأنها ركن أساسي في حياتهم المضطربة (٥) .

---

(١) مقاييس اللغة ٢ : ٣٨٤ ، وانظر أيضاً المفـردات : ١٨٦ ، أساس البلاغة : ٣٢٣ ، لسان العرب ٣ : ١٠٦ .

(٢) جمهرة اللغة ١ : ٥١، وانظر شاهدالشعر في ديوان امرىءالقيس : ٢١٦

(٣) مجاز القرآن ٢ : ٢٤٧ .

(٤) جامع البيان ٢٧: ١٦٧ ، وانظر أيضاً التبيان ٩: ٤٨٨ الكشاف٣ : ١٩٩

(٥) أنظر في هذا الموضوع بحث وصف الرماح في البيئة الجاهلية في كتاب الوصف في شعر العراق : ٥٨ .

ومع اقتران هذا التوجيه بصورة واضحة من البيئة العربية وهي اهتزاز الرماح ، فان هناك تصويراً أشمل لرجة الأرض المرعبة ، وذلك ان ترج الأرض فيضطرب على أثرها كل ماوجد عليها من بناء ، وجبال ، فتتداعى أركان الكون الواحدة تلو الاخرى وقد ذكره الطوسي الى جانب اهتزازة الرمح بقوله : (وقيل ترتج الأرض بمعنى انه ينهدم كل بناء على الأرض) (١) . وقال الزمخشري : (رجت الأرض ، حركت تحريكاً شديداً حتى ينهدم كل شيء فوقها) (٢) .

فالأرض عند اضطرابها ترتجج رجاً شديداً مرعباً مثل ارتجاج الرمح عند اشتداد الحروب ، ونتيجه لهذه الاضطرابات السريعة يسود الاضطراب الكون كله ، فينهدم كل ماعليها من بناء وجبال .

والزلزلة تعبير آخر يصور الظاهرة التي تعرض للارض ، وقد فسرت بالاضطراب ، والحركة الشديدة ، قال ابن عباس (تزلزلت الأرض زلزلة واضطربت الأرض اضطرابة ، فانكسر ماعليها من الشجر ، والجبال ، والبنيان) (٣) . ولعل أقرب المعاني الحسية التي وصلتنا لاستعمال الكلمة هي زلزلة الأرض على اعتبارها احدى الظواهر الطبيعية التي تحدث في الأرض قال ابن دريد : (الزلزلة الاضطراب . أخذ من زلزلت الأرض زلزالا) (٤) ومن هذا المعنى زلة القدم ، وذلك ان يقال : (زَلَلْتَ يافلان

---

(١) التبيان ٩ : ٤٨٨ .

(٢) الكشاف ٣ : ١٩٣ .

(٣) تنوير المقياس : ٣٩٤ ، جامع البيان ٣٠ : ٣٦٥ ، وانظر أيضاً جمهرة اللغة ١ : ١٤٩ مقاييس اللغة ٣ : ٤ ، لسان العرب ١٣ : ٣٢٧ .

(٤) جمهرة اللغة ١ : ١٤٩ ، معجم مقاييس اللغة ٣ : ٤ .

بالفتح ، تَزِلُّ زليلا ، اذا زلّ في طين) (١) . و (زحلوقة زُلّ أي زَلَق ، قال الراجز :

لمن زحلوقة زُلّ بها العينانُ تَنْهَلُّ) (٢)

وهذا الاستعمال مرتبط بالاستعمال المادي ، وهو الاضطراب ، فكأن الأرض تضطرب تحت قدمي الرجل ، فيقال عنه زلت قدمه (٣) .

لقد اقترنت الزلزلة بالاضطراب ، والحركة المفزعة في الذهن العربي لما تتركه من أخطار ، وآثار جسيمة في أرواح الناس ، وممتلكاتهم ، وهذا الاقتران هو الذي جعلهم يطلقون الكلمة على المصيبة والداهية (٤) . قالت الخنساء ترثي أخاها بأن الجبال الشوامخ رجت لمصيبة فقده ، وان الأرض هي الأخرى اضطربت وزلزلت :

فإنْ تلكُ مرّةٌ أودْتْ به فقد كان يكثر تَقْتالها
فَخَرّ الشوامخُ من فقدِهِ وزُلزلت الأرضُ زِلزالها(٥)

---

(١) لسان العرب ١٣ : ٣٢٥ .

(٢) الصحاح ٥ : ١٧١٧ ، وانظر أيضاً لسان العرب ٣ : ٣٢٥ ، والبيت غير منسوب .

(٣) أنظر في هذا ديوان الحطيئة : ٥٥ ، المفضليات ٩٥ ، ٢٣٩ ، شرح ديوان الحماسة ٢ : ٨٩٧ ، ١ : ٤٥٣ .

(٤) التهذيب ١ : الورقة (١٢٣) جمهرة اللغة ١ : ١٤٩ ، الصحاح ٥ : ٧١٧ ، أساس البلاغة : ٤٠٥ ، لسان العرب ١٣ : ٣٢٧ ، وبهذا المعنى فسر قوله تعالى (وزلزلوا زلزالا شديدا) سورة الاحزاب ١٣ : ١١ ، أنظر مجاز القرآن ٢ : ٢٣٤ تفسير التستري : ١٦ ، تفسير ابن أبي حاتم الرازي : الورقة ٣(ب) لسان العرب ١٣ : ٣٢٧

(٥) الكامل للمبرد ٣ : ١٢١٦ ، والبيت الثاني غير موجود في شرح ديوان الخنساء : ٢١٨ ، وانظر أيضاً أمالي اليزيدي : ٣٢ ، وانظر أيضاً ديوان المزرد بن ضرار : ٣٥ .

ومن هنا يتضح معنى الزلزلة وما توحيه من الاضطراب ، والحركة السريعة الشديدة وحين نفهم هذه المعانى نستطيع ان نتحسس أي معنى مفزع ، وحركة مرعبة توحيها الآيات الكريمة : (اذا زُلْزِلتْ الارضُ زِلزالهَا ، وأخرجَتْ الارضُ اثقالهَا ، وقالَ الانسانُ : مالها ؟ يومئذ تحدثُ اخبارَها) (١) . فنجد فيها تصويرا حيا لحال الارض بعد النفير بحيث ترج رجا شديدا وتزلزل بما فيها من جبال واناس ، وتلفظ مافي جوفها من الدفائن وهي ترسم في الذهن زلزلة الارض ، واضطرابها الشامل كما ترسم لنا ذلك الاضطراب الذي يعترِي الانسان ، فيشعر كأن الأرض تهتز تحته ، وتضطرب .

ب ـ تكسر الجبال وتفتتها :

اما الجبال فانها هي الاخرى يصيبها من الاضطراب ما يصيب الأرض من هول موقف القيامة ولتصوير حال الجبال . واضطرابها عدة تعابير قرآنية تجتمع كلها لايجاد صورة واحدة لاضطراب الجبال يوم القيامة . وفي كل تعبير منها نجد دلالة واضحة للبيئة العربية واول هذه التعابير هو

١ ـ سير الجبال وتشبيهها بالسراب :

تسيير الجبال من أول الصور التي تصور حال الجبال يوم القيامة : قال الله تعالى : (يومَ نُسَيِّرُ الجبالَ ، وترى الارض بارزةً ، وَحشَرناهُمْ فلم نغادرْ منهم احدا) (٢) .

وفي سورة النمل شبه سير الجبال بمرور السحاب : (وترى الجبال

ـ البزيدي : ٣٢ ديوان المزرد بن ضرار : ٣٥

(١) سورة الزلزلة ٩٩ : ١ ـ ٤

(٢) سورة الكهف ١٨ : ٤٦

تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب . (١) ٠ قال ابن عباس : (ساكنة مستقرة ، وهي تمر مرّ السحاب في الهواء) (٢) . وفي الطبري رواية أخرى عن ابن عباس ايضاً تعلل كون الجبال جامدة (لانها تُجمعُ ، ثم تُسَيَّر : فيحسب رائيها لـكثرتها انها واقفة ، وهي تسير سيراً حثيثا كما قال الجعدي :

بأرْعَنَ مثـلَ الطَوْدِ تَحْسَبُ انهم
وقوفُ لحاج : والركابُ تَهمْلَجُ (٣)

واضاف الطوسي : (اي من اجل كثرتهم ، والتفافهم تحسب انهم وقوف ، فكذلك الجبال) (٤) .

وذكر القاضي عبد الجبار بن احمد (٥) تعليلا آخر لهذا التعبير : وهو قوله ، (وقـد قيل انها تبلغ في سرعة الحركة ، مالا يكاد يظن انها

---

(١) سورة النمل ٢٦٧ : ٨٨

(٢) تنوير المقياس : ٢٣٩ ، وانظر ايضاً جامع البيان ١٥ ، ٢٥٧ ، ٢١ الكشاف ٢ ، ٢٦١

(٣) جامع البيان ٢٠ ، ٢١ ، والبيت في ديوان النابغة الجعدي ١٨٧ ، الارعن يريد به الجيش العظيم شبهه بالجبل الضخم ذي الرعان وهي الفضول ، وقيل الارعن لكثرته ، وتهملج تمشي الهملجة وهي السير الحسن في سرعة . والبيت شاهد على ان الشيء الضخم تراه وهو يتحرك فتحسبه جامدا ساكناً مع انه مسرع في سيره . . . وذلك هو شأن الجبال يوم القيامة .

(٤) التبيان ٨ : ١٢٤ وانظر ايضاً ٢ : ٤٦٣

(٥) هو عبد الجبار بن احمد الهمداني ، قاضي اصولي كان شيخ : المعتزلة في عصره ولقب بقاضي القضاة توفي سنة ٤١٥ هـ انظر تاريخ بغداد ١١ : ١١٣ لسان الميزان ٣ : ٣٨٦

متحركة خصوصاً اذا كان المرء يتحرك مع حركتها : فيكون اسرع كراكب السفينة ، فانه يظن مع سائر الركاب أنهم ساكنون ، وان كانوا يتحركون اسرع حركة (١) .

ومشهد سير الجبال شبه في سورة النبأ بالسراب ، وسنجد ما لهذا التعبير ، من دلالة على الهيئة العربية . قال الله تعالى : (يومَ يُنْفَخُ في الصُّورِ فتأتونَ افواجا ، وفُتِّحَتْ السماءُ فكانت ابوابا ، وسُيِّرَتْ الجبالُ فكانت سرابا) (٢) .

قال الطبري مفسراً هذا التشبيه : ونسفت الجبـال ، فاجتثت من اصولها : فصيرت هباء منبثاً لعين الناظر كالسراب الذي يظن من يراه عن بعد ماء وهو في الحقيقة هباء) (٣) وقد قال اللغويون عن السراب بانه الذي تراه في نصف النهار كأنه ماء (٤) .

وتشبيه الجبال بالسراب له دلالة جميلة على البيئة العربية : فطالما عانى العربي في صحرائه الواسعة من خداع السراب حين يراه امام ناظريه ويتصوره ماء ، ولكنه في حقيقته من خدع الصحراء ومن خيـال العربي المتعطش الى الماء . قال الاعشى في حديثه عن سد مأرب : وكيف انه بتدميره اضاع المياه على بني حمير .

فطـارَ القُيُـولُ وقيلاتُها ببهماءَ فيها سرابٌ يَطِمْ (٥)

---

(١) تنزيه القرآن : ٢٦٤

(٢) سورة النبأ ٧٨ : ١٨ — ٢٠

(٣) جامع البيان ٣٠ : ٨ : وكذا فسر قوله تعالى في سورة التكوير ٨١ : ١ انظر جامع البيان ٣٠ : ٦٥ ، الكشاف ٣ : ٣١٥

(٤) الصحاح ١ : ١٤٧ ، لسان العرب ١ : ٤٤٨

(٥) ديوان الاعشي : ٤٣

يريد بذلك ان هؤلاء القيول قد ابدلوا بالماء الوفير الذي كان متوفراً قبل انفجار سد مأرب بالحرمان من الماء : والضلال في الصحراء الواسعة حين لا يجدون الا السراب الخداع المؤلم . وقال لبيد مفتخراً بناقته التي تتحمل المسير في البيداء حيث يرتفع فيها السراب ، ويشتد الحر :

فبتلك اذ رقصَ الّلوامعُ بالضحى واجتاب اردية السراب إكامها (١)

وقال آخر راسما صورة قوم يخدعهم السراب فيسيرون على غير هدى بقوله :

ومَـهْمه فيـه السرابُ يسبحُ يداب فيـه القومُ حتى يطلـحوا
ثم يبيتونَ كأنْ لم يَبـْرحوا كأنما أمسَوا بحيث أصبحوا (٢)

انها صورة خالدة في الذهن العربي : صورة السراب الذي تتأمله العين فتخدع : وتتصوره ماء ، ولكن سرعان ماتتبين خيبتها حين يجدُ الانسان في السير ، فلا يجد غير الخيبة ، والفشل ، وبهذا استعير السراب لكل من يتأمل شيئاً لا وجود له ، وقد ورد بهذا المعنى في القرآن الكريم في تشبيه أعمال الكافرين التي تذهب هباء يوم القيامة :

(والذين كفروا اعمالُهم كسراب بقيعةٍ يحسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتى اذا جاءَهُ لم يَجدْهُ شيئاً ، ووجدَ اللهَ عندهُ فوفّاهُ حسابَهُ ، واللهُ سريعُ الحسابِ) (٣) .

ومن هنا نستطيع ان نتصور حال الجبال يوم القيامة ، ودلالة التعبير الدقيق على البيئة العربية اذ تفتت الجبال ، وتتكسر فتبدو كأنها سراب خادع كالذي يشهده العربي في صحرائه الواسعة . وبهذا تحمل الآية الى

(١) شرح ديوان لبيد : ٣١٢ : ٣٠١ المفضليات : ١٧١
(٢) الصناعتين : ٢٨٤ والبيت غير منسوب
(٣) سورة النور ٢٤ : ٣٩

جانب التصوير المادي لحال الجبال كل معاني الخيبة ، وضياع الامل يوم القيامة حين يواجه الكافر هذا الاضطراب المفزع ، وهو صفر اليدين من الاعمال الحسنة .

٢ — نسفها :

والتعبير الثاني الذي يصور تفتت الجبال ، وانهدامها الهائل هو نسفها في قوله تعالى حين سأل المشركون الرسول عن الجبال اذا قامت القيامة : (ويسألونَكَ عن الجبالِ ، فقلْ ينسِفُها ربي نَسْفا ، فَيَذَرُها قاعاً صَفْصفا ، لا ترى فيها عِوَجا ولا أمتا) (١) . وقد فسر نسف الجبال هنا بمعنى قلعها ، واجتثاثها ، قال ابن عباس : (يقلعها ربي قلعا (فيذرها) فيترك الارض (قاعا) مستوية (صَفْصَفَا) املس لانبات فيها (لا ترى فيها عِوَجا) واديا ، ولا شقوقا (ولا امتــا) ولا شيئاً شاخصاً من الأرض) (٢) . واضاف الطبري الى معنى القلع معنى التذرية ، والتفتت قال : (يذريها ربي تذرية) ويطيرها بقلعها ، واستئصالها من اصولها : ودك بعضها على بعض وتصييره اياها هباء منبثا) (٣) وقد اعتمد في هذا التفسير على المعنى اللغوي المعروف وهو قولهم : (نسفتُ البناءَ نسفاً : قلعتُه (٤) . و (المِنسفة آلة يقلع بها البناء) (٥) .

واذا تتبعنا الترتيب التاريخي للكلمة نجد ان معنى القلع معنى متطور

---

(١) سورة طه ٢٠ : ١٠٥ — ١٠٧

(٢) تنوير المقياس : ١٩٨

(٣) جامع البيان ١٦ : ٢١١ ، وانظر ايضاً التبيان ١٠ : ٢٢٥

(٤) الصحاح ٤ : ١٤٣١ ، وانظر ايضاً اساس البلاغة : ٩٥٣ ، لسان العرب ١١ : ٢٤٢

(٥) ن . م

عن معنى حسّي آخر ، ذلك هو معنى نسف الريح التّراب إذا كانت شديدة فتذروه في الجو (انتسفت الريح الشيء مثل التّراب : والعصف ، كأنها كشفته عن وجه الارض . وسلبته) (١) .

وقـــد تكرر ذكر نسف الرياح التّراب في اشعارهم ، ومقدماتهم الطلية حين وصفوا ديار الحبيبة بعد ان هجرتها ، وكيف لعبت بها الرياح ونسفت ترابها . قال النابغة :

أهاجَكَ من سُعداكَ مغنى المعاهدِ   بروضـةِ نعمّي فذات الأساودِ
تعاوَرَها الارواحُ يَنْسِفْنَ تُربَهَا   وكلُّ ملتٍّ ذي اهاضيبَ راعدِ (٢)

ومن هذا المعنى الحسي استعار العرب معنى حسيا آخر يتكرر ايضاً في حياتهم اليومية حين تنسف الابل التراب بقوائمها ، فتذروه على جانبي مسيرها ، فقيـــل : (ناقة نسوف اذا نسفت التراب بخفي يديها في سيرها) (٣) . وهو معنى يظهر فيه معنى القلع المصحوب بتطاير وتذرية .

ثم احتاج العربي في بيئته الى ما يذري به طعامه ، وينسفه ليستخلص الجيد من الرديء ، وهو الذي أطلق عليه النسافة (٤) : ومنه المِنسف ، وهو الغربال (٥) .

---

(١) مقاييس اللغة ٥ : ٤١٩ ، وانظر ايضاً المخصص ٩ : ٨٩ لسان العرب ١١ / ٢٤١

(٢) ديوان النابغه الذبياني : ٤٢ ، وانظر ايضا المنازل والديار : ٢٠٦

(٣) ابو زيد عن لسان العرب ١١ : ٢٤١ ، وانظر ايضاً النوادر ١ : ٤١٩ ، الصحاح ٤ : ١٤٣٢ ، مقاييس اللغة ٥ : ٤١٣ ، المخصص ٦ : ١٧٢ ، ٧ : ٩١ وانظر الشعر في شرح ديوان زهير : ١٩١ ، ديوان سحيم : ٤٨

(٤) الغريب المصنف الورقة : (٢٨٤)

(٥) الصحاح ١ : ١٤٣١ ، اساس البلاغة : ٩٥٣

وحركة التراب تذروه الرياح واضحة كل الوضوح في كل المعاني الاخيرة حيث يتطاير التراب تحت قدمي الناقة بعد ان تقتلعه ، وكذلك حين تقتلع النبات بمقدم فيها : واخيراً في حركة المنسف الذي تنسف فيه الحبوب ، فيظهر النسف ، وحركة تطايره في تطاير الحبوب ، واستخلاص الجيد من الردىء منها . ويتبين لنا فيها ان الاستعمال المادي الاول مازال محافظاً على معناه في كل معاني الكلمة ، وبقيت صورته الأولى هي الصورة الغالبـــة على الذهن العربي حيث تقتلع الريح التراب : وتنسفه في الجو وتذروه فقوله تعالى : (ويسألونكَ عن الجبالِ فقلْ ينسِفُها ربي نَسْفا فيذَرُها قاعا صَفْصفا لا ترى فيها عِوَجا ولا أمتا) (١) نجد فيه صدى البيئة العربية التي طالمـــا اجتاحتها الرياح القوية ، فانتسفت الرمال من الصحراء الواسعة ، وقد ورد في القرآن الكريم تصوير رائع لهذا المشهد ، حين شبهت به اعمال الكافرين التي تذهب هباء (مثل الذين كفروا بربِّهم أعمالُهم كرماد اشتدتْ به الريحُ في يومٍ عاصفٍ لايقدرونَ مما كَسبُوا علي شيءٍ ذلك هو الضلالُ البعيدُ) (٢) .

٣ — بسها .

قال الله سبحانه وتعالى : (اذا وقعتْ الواقعةُ ، ليس لوقعتها كاذبةٌ ، خافضةٌ رافعةٌ اذا رُجَّتْ الارضُ رَجّاً وبُسَّتْ الجبالُ بَسّا فكانتْ هَباءً مُنبثا) (٣) .

فبس الجبال ـ وهو تفتتها ـ (٤) استعمل مجازاً ، وهذا المجاز ينقل

---

(١) سورة طه ٢٠ : ١٠٥ — ١٠٧

(٢) سورة ابراهيم ١٤ : ١٨

(٣) سورة الواقعة ٥٦ : ١ — ٥

(٤) اللغات في القرآن : ٤٨

الى الخيال صورتين من صور البيئة العربية : الأولى ان تفتت الجبال حتى تكون كالعجين : والسويق قال ابن السكيت ، (بَسَستُ السويقَ ، والدقيقَ ابُسّه بَسّاً : اذا بللته بشيء من المـــاءِ ، وهو أشدّ من اللتِ) (١) والبسيسةُ هي (التي تُلَتُّ بسمنٍ او زيت ولا تُبَلُّ) (٢)

ومن هذا المعنى الحسي فهم بعضهم الآية الكريمة السابقة فقـــال أبو عبيدة مفسراً بس الجبال : (مجازُها كمجازِ السويق المبسوس أي المبلول والعجين ، قال لص من غطفان واراد ان يخبز ، فخاف ان يعجل الدقيق ، فاكله عجيناً وقال :

لاتخبزا خبزاً وُبسّا بَسّا (٣)

وصورة بس السويق التي ينقلها ابو عبيدة تفسر لنا الآية الكريمة ، وتصور حال الجبال يوم القيامة ، وكيف انها اذا زلزلت الأرض واضطربت يصيبها الاضطراب فتتفتت وتحطم حتى تكون كالعجين المبسوس الذي طالما استعمله العرب في حياتهم ومعيشتهم فعرفوا مـــدى ما يصوره تعبير البس للجبال من الدقة في التحطيم . والتحول الى فتيت ناعم .

اما الصورة الثانية للبس فانها مستمدة ايضاً من البيئة العربية : وهي صورة سوق الابل : وتسييرها . قال الزجاج شارحاً الآية : (يجوز ان

---

(١) عن لسان العرب ٧ : ٣٢٧

(٢) الغريب المصنف : الورقة (٩٣) الصحاح ٢ : ٩٠٥ ، لسان العرب ٧ : ٣٢٤ ، ٣٢٥

(٣) مجـــاز القران ٢ : ٢٤٧ وانظر ايضاً جامع البيان ٢٧ : ١٦٧ التبيان ٩ : ٤٨٨ الكشاف ٣ : ١٩٣ ، والبيت مذكور مع ابيات في الحيوان ٤ : ٤٩٠ جمهرة اللغـــة ١ : ٣٠ ، الصحاح ٢ : ٩٠٥ ، وروي في المخصص عن صاحب العين (وُنسّا نَسّا) ٧ : ١٠٤

يكون معنى بست : سيقت وانشد : وانبس حبات الكثيب الأهيل) (١)
وقال الزمخشري مضيفاً الى التفسير الأول قوله : (او سيقت من بس
الغنم اذا ساقها كقوله « وسيرت الجبال » (٢) . فهذا التفسير يعطينا
صورة للتعبير الذي استعملت فيه الكلمة للدلالة على السوق قيل (البس :
السوق اللين وقد بَسَستُ الابلَ أبسُّها بالضم بسّا) (٣) . قال ابو
زبيد (٤) مسمياً الراعي بالمبس :

فلحا اللهُ طالبَ الصلحِ منا ما اطاف المُبِسّ بالدهماءِ (٥)

وقال عبده بن الطبيب (٦) يصف فرسه ، وكيف انه يستجيب له
اذا ابسه ، وساقه بين الخيل :

---

(١) عن التبيان ٩ : ٤٨٨ : وانظر الرجز في الحيوان ٤ : ٢٥٦

(٢) الكشاف ٣ : ١٩٣

(٣) الغريب المصنف : الورقة « ٣٩٩ » : وانظر ايضاً جمهرة اللغة
١ : ٣٠ ، الصحاح ٢ : ٩٠٦ ، أساس البلاغة : ٤٦ ، المخصص
٨ : ٩ وانظر ايضاً ديوان النابغة الجعدي : ٣ ، ديوان الشماخ : ٣٣

(٤) هو المنذر بن حرملة من بني حية : وقيل حرملة بن المنذر بن
معد يكرب ، وكان نصرانيا وعلى دينه مات : وهو ممن أدرك الجاهلية .
ذكره السجستاني في المعمرين : توفى نحو ٦٢ هـ : انظر المعمرون : ١٠٨
الاغاني ١١ : ٢٣

(٥) جمهرة اللغة ١ : ٣٠ ، ديوان الحماسة : ٣٥

(٦) هو عبدة بن الطبيب شاعر مخضرم ادرك الاسلام فأسلم : شهد
مع المثنى بن حارثة قتال هرمز سنة ١٣ هـ وكان مع الذين حاربوا الفرس
بالمدائن توفي نحو سنة ٢٥ هـ . انظر الاغاني ١٨ : ١٦٣ تاريخ الامم
والملوك ٤ : ٤٣ ، ٢١٥

اذا ابَّس به في الألفِ بَرَّزهُ   عوج مركبة فيها براطيلُ (١)

وسواء كان بس الابل سوقها باللين ، او سوقها زجرا ، فانه معنى يدل على دفع واستجابة لهذا الدفع الا ان دلالتها على القوة والزجر ترسم في الذهن ايحــاء الهول والفزع المقترن بكل مظهر من مظاهر النفير وما يتبع ذلك من قوة في اضطراب السموات والأرض ، وهــذا المعنى ينسجم مع السياق العام الذي مرت بنا صوره في تعبير الزجرة : وما فيها من دلالة السوق والزجر .

وهناك استعمال آخر للبس ، وهو ان تبس الابل ، والغنم ، وتهدأ بصوت خاص حتى تــدر لبنها يقال : (أبسَسْتَ بالمعزِ إذا أشلَيتها الى الماء) (٢) و (ابسَّس بالابل عند الحلب اذا دعا الفصيل الى امه وابس بامه له (٣) . ومن هنا قيل في الناقة التي لاتدر الا عند الرفق بها والابساس لها : بانها تبس (٤) . وانشد الازهري (٥) قول الراعي واصفا حال الناقة يهدأها صاحبها تارة بالابساس ، واخرى بالنقر :

---

(١) المفضليات : ١٤٣

(٢) الصحاح ٢ : ٩٠٦

(٣) لسان العرب ٧ : ٣٢٥

(٤) انظر الغريب المصنف : الورقة « ٣٦٩ » وانظر ايضاً الصحاح ٢ : ٩٠٥

(٥) هو محمد بن احمد بن الأزهر : ابو منصور ولد سنة ٢٨٢ هـ اخذ عن الربيع بن سليمان ، ونفطويه ، وابن السراج ، وأدرك ابن دريد ولم يرو عنه ، صنف كتاباً مشهورا في اللغة وهو « تهذيب اللغة » توفي سنة ٣٧٠ هـ انظر نزهة الألباء : ٢٢١ ـ ٢٢٢ بغية الوعاة : ٨

لعاشرةٍ وهو قــد خافها فظلّ يُبَسْبِسُ او يَنقُرُ (١)

وقال آخر يصف ناقته اذا جالت ، واضطربت : وكيف يهدأها بالبس :

عَنْسٌ أذا جالَتْ به أبسّا وَبلَغتْ منه التراقي نَفْسا (٢)

فمعنى البسُ هنا واضح ، وهو دعوة الغنم ، او الابل نحو الماء ، او عند الحلب ويلاحظ في هذه الدعوة انها تترك الحيوان لينا سلس القيــاد ، يستجيب لدعوة الراعي . وفي كلا المعنيين نجــد استجابة وطاعة ، فالابل اذا سيقت ، وزجرت استجابت للسوق وسلست لراعيها ، فسارت امامه طائعة ، وكذلك الابل ، والغنم اذا بست نحو الماء ، أو للحلب ، استجابت الى صوت راعيها فدرّت حليبها ، او سارت معه نحو الماء : وفي هــذا المعنى نجد روعة التصوير القرآني لحال الجبال ، ذلك لأن الاضطراب الذي يسود السموات والارض ، يصيب الجبال ، فتزلزل ، وتكون ارتجافها اطاعة لأمر الله سبحانه وتعالى حين يأمر بقيام الساعة .

وفي معنى البس صورة واضحة للبيئة العربيـــة التي اعتادها العربي ورأى فيها بس الحيوان ، ودعوته ، فسرعان ما يتخيل بس الجبــال ، واستجابتها لدعوة الله جلّ وعلا ، فيزداد ايحاء الآية الكريمة وترتسم في الذهن سرعة الاحداث ، والاضطرابات يوم القيامة ، لأن الطواعية ، والاستجابة السريعة لارادة الله سبحانه وتعالى تنتج منها سرعة مذهلة في الاضطراب الكوني .

وفي سورة الحاقة تعبير آخر يصور حال الجبال : (فاذا نفخ في

---

(١) الأزهري عن لسان العرب ٧ : ٣٢٥

(٢) ديوان الحطيئة : ٢٨٦ ، والشطر الأول في شرح ديوان زهير: ٣٥٥ وهو غير منسوب الى قائله .

الصُّور نفخةٌ واحدةٌ ، وُحملتْ الارضُ والجبال ، فُدكّتا دكةً واحدةً ، فيومئذ وقعتْ الواقعةُ) (١) . ففي هذه الآيات الكريمة نجــد تصويراً جامعا لاضطراب الارض وتفتت الجبال معــاً يتجسد فى تعبير الدك بما يحمله من معاني القوة والرعب ، ما تعجز عنه صفحات ، فالدك في اللغة يحمل معنى الهدم الذي يصاحبه دق ، وتفتت (٢) .

٤ — تشبيهها بالعهن :

ان انهدام الجبــال ، وتفتتها يسبب تناثر اجزائها وتطايرها تبعا للانكسارات السريعة التي تصيب الجبال . هذا التناثر صُوّر في القرآن الكريم بصورة مادية طالما لصقت في ذهن العربي لطول ما اعتادها ، وشاهدها في بيئته ، وذلك تشبيهها بالصوف قال الله تعالى : (يومَ تكونُ السماءُ كالمُهْلِ ، وتكونْ الجبالُ كالعِهْنِ ولا يسأل حميمٌ حميما) (٣) . وقال سبحانه وتعالى : « القارعةُ ، مالقارعة ؟ وما ادراكَ مالقارعةُ ؟ يومَ يكونُ الناسُ كالفراشِ المبثوثِ وتكون الجبــالُ كالعِهْنِ المنفوشِ » (٤) .

---

(١) سوره الحاقة ٦٩ : ١٣ — ١٦

(٢) الصحاح ٤ : ١٥٨٣ ، مقاييس اللغة ٢ : ٢٥٨ ، اساس البلاغة ٧٨ : وقد اعتبر الاب ماراغناطيوس الدك كلمة سريانية قال : دَكدكَ دقّ مراراً : صيَّر شيئاً ترابا ورميما تدكدكتْ الجبال ، تهدمت . انظر الالفاظ السريانية مجلة المجمع العلمي العربي دمشق م ٢٣ ج : ٤٩٧

(٣) سورة المعارج ٧٠ : ٨ — ٩

(٤) سورة القارعة ١٠١ : ١ — ٥

وقـــد فسر المفسرون العهن بالصوف (١) . وكذا ورد المعنى في كتب اللغة (٢) وهذا التشبيه له دلالته على البيئة العربية . ذلك لان الصوف من منتجات حيوانها الذي هو عماد حياتها ، وقـد تكرر ذكر الصوف ، او آلآت غزله في الشعر الجاهلي ، (٣) ثم اننا نجـــد للصوف لمحات في احدى صور البيئة العربية التي اعتادها العربي ، وهي تلك التي نجدها في وصف الاطلال وما تبقى فيها من الدمن ، والآثار ، ومن بينها الصوف المتناثر قال زهير بن ابي سلمى ،

كأنَّ فتاتَ العِهْنِ في كلِ منزلٍ نزلنَ به حَبُّ الفنا لم يُحَطَّمِ (٤)

قال ثعلب شارحاً البيت بأنه « شبه ماتفتت من العهن الذي علق بالهوادج اذا نزلن بمنزل بحب الفنا » (٥) . وقول ثعلب هـــذا يعطينا توضيحاً آخر لاهمية الصوف في الحياة العربية ، ولصوقه في الذهن العربي وذلك استعمالهم الصوف لتزيين الهوادج ، وهي الصورة التي طالما ذكرها الشعراء في اشعارهم ، وشبهوها ـ باختلاف الوان الصوف ـ بالبسر الاحمر

---

(١) تنوير المقباس : ٣٦٧ ، غريب القرآن : ١٧٧ ، جامع البيان ٢٩ : ٧٣ . الكشـــاف ٣ : ٢٦٨ ، وفي قراءة ابن مسعود كالصوف المنفوش بدل كالعهن ، وقد علق ابن قتيبة على هذه القراءة بانهافي الكلمة « مما يغير صورتها في الكتاب ، ولا يغير معناها » انظر تأويل مشكل القرآن : ٢٨ ـ ٢٩

(٢) العين : ٤٣ ، الصحاح ٦ : ٢١٦٩ مقاييس اللغة ٤ : ١٧٧ المسلسل : ١٨١ المحكم ١ : ٦٦ لسان العرب ١٧ : ١٧٠

(٣) ديوان امرىء القيس : ٢٥ ، امثال العرب : ١٧

(٤) شرح ديوان زهير : ١٣

(٥) ن . م : ١٣

والأصفر مع خضرة النخل (١) .

٥ - سرعة انهيارها

اما سرعة انهيار الجبال فقد صورت بتعبير الكثيب المتداعي المنهال في قوله تعالى : (وَذَرْني والمكذبين أولي النعمةِ ، وَمَهِّلهُمْ قليلا ، ان لَدينا انكالا ، وجحيما ، وطعاما ذا غُصةٍ ، وعذاباً اليما يومَ ترجفُ الأرضُ والجبالُ ، وكانتْ الجبالُ كثيباً مهيلاً) (٢) . قال ابن عباس مفسراً الآية الكريمة (تراباً مهيلا : وهو الشيء الذي اذا رفعَت اسفَله سقطَ عليكَ اعلاه مثل الرمل) (٣) وقال الطبري : (يقول : وكانت الجبال رملا سائلا متناثراً : والمهيل مفعول من قول القائل : هلت الرملَ فأنا أهيلُهُ ، وذلك اذا حُرِكَ اسفلُهُ ، وانهالَ أعلاه) (٤) .

والكثيب عبارة عن قطعة تنقاد محدودبة كما يقول الاصمعي (٥) . فاذا تحرك من إحدى جوانبه انهال بسرعة ، ومن هذه الصورة الحية المجسدة في الذهن الغربي جاء التصوير الرائع لحال الجبال في اضطرابها . وسرعة انهيارها ، وهو تصوير يستطيع العربي ان يتمثله امام ناظريه . نظراً لتكرر صور الكثبان في الجزيرة العربية ، وما يطرأ عليها من صور انهيار رملها ، وتساقطها . وقد لصقت صورة الكثيب في أذهانهم ، فراحوا يكررونها في تشبيهاتهم وتعابيرهم (٦) .

---

(١) انظر ديوان امرىء القيس : ٤٣ ، ٥٧ ، ١١٥ .

(٢) سورة المزمل ٧٣ : ١١ - ١٤

(٣) تنوير المقياس : ٣٧١ ، وانظر ايضاً غريب الحديث ١ : ٢٥٢

(٤) جامع البيان ٢٣ : ١٣٦ ، وانظر ايضاً التبيان ١ : ١٦٧

(٥) عن الغريب المصنف : الورقة (٢١٥)

(٦) المفضليات : ٩٢ ، وانظر أيضاً الحماسة البصرية : الورقة -

هذه التعابير تشترك كلها فى رسم صورة الجبال حين تضطرب وتنهار فتتناثر أجزاؤها وتتلاشى عظمتها ، وتصبح هباء منثورا ، وحالها فى هذا حال الأرض بصورة عامة حين تزلزل وتضطرب بعد صعقة النفير .

ومن التعابير التي مرت بنا مجتمعة تتشكل لنا صورة رهيبة لاضطراب الأرض ، وما عليها يوم القيامة . اضافة الى دلالة كل تعبير على مظهر من مظاهر البيئة العربية كما مرّ بنا .

٢ - اضطراب السماوات :

أ - تحولها الى سائل :

ويشمل الاضطراب السماء أيضاً فيصيبها ما يصيب الارض من اختلال التوازن ، وانهيار النظام الكوني فاذا بها تنشق ، وتتحول الى سائل عبر عنه بالوردة ، وشبهت في حالها بالدهان قال الله تعالى : (فاذا انشقت السماءُ فكانت وردة كالدِّهان . . .) (١) .

لقد ذهب المفسرون في تفسير الآية الكريمة الى توجيهين : الأول هو انها تكون ملونة كألوان الدهن ، أو الورد ، وهذا التفسير لا يحدد لونها وانما هو تعميم للالوان المختلفة قال ابن عباس : (فصارت ملونة كالدهان ، كالوان الدهن ، ويقال : وردة كالوان الورد) (٢) .

وقال ابو عبيدة : (فكانت وردة كالدهان في لونها : جمع دهن

- ١٩١ (ب) الطرائف الأدبية : ٦٢

(١) سورة الرحمن ٥٥ : ٣٧

(٢) تنوير المقياس : ٣٣٧

تمور كالدهان صافية وردة لونها كلون الورد ، وهو الجُلّ) (١) .

اما التوجيه الثاني فهو ان السماء يكون لونها يوم القيامة الحمرة مع السواد ، وقــد ذكره ابن عباس ايضاً الى جانب التوجيه الأول قال : (ويقال كالاديم المغربي أي حمرة مع سواد) (٢) . وقال الراغب : (وقيل في صفة السماء اذا احمرت احمراراً كالورد امارة للقيامة . قال (فكانت وردة كالدهان) (٣)

ويبــدو ان الذي فهموا الآية الكريمة على ان السماء تكون ملونة كالوان الورد ، لم يذهبوا بكلمة الورد الا إلى الورود الحقيقية التي تكون بطبيعتها متعددة الألوان ، والاشكال . ومن الناحية الثانية فان السماء شبهت في الآية الكريمة بالدهان ، والدهان ايضاً لا يحدد لونه .

اما الذين قالوا بأن لون السماء يكون أحمر يوم القيامة فانهم ذهبوا إلى لون معروف ولكثرة هذا اللون في الورود اقترنت كلمة الورد به ، ثم أطلق الورد بصورة عامة على اللون الأحمر فاطلق على الحيوانات التي على هذه الصفة في اللون ، واقترن ، أكثر ما اقترن ، بالخيل قال الأصمعي معدداً الوان الخيل : الوردة : فرس وَردٌ ، وَوردة وخيل وراد) (٤) .

ومن هنا نقل لنا توجيه آخر اقترن أول ما اقترن بالخيل الوِراد التي تغنى الشعراء بذكرها ، وتمتع بالنظر اليها الفرسان ، هذا التوجيه هو

(١) مجاز القرآن ٢ : ٢٤٥ ، وانظر ايضاً الصناعتين : ٢٤١ التبيان ، ٩ : ٤٧٦ ، المخصص ٦ : ١٥١

(٢) تنوير المقياس : ٣٣٧ ، وانظر ايضاً ادب الكاتب : ١٤٣

(٣) المفردات : ٥٤١ ، وانظر ايضاً الكشاف ٣ : ١٩٠

(٤) عن المخصص ٦ : ١٥٠ ، وانظر ايضاً الخيل : ١٠٦ ، ديوان الشماخ : ٣٠

الذي نقله الفارسي فيما روى (١) عن أبي عبيدة : (أما قوله ـ فاذا انشقت السماءُ فكانتْ وردةً كالدهان ـ فقيل انه أراد ـ والله أعلم ـ فرسا وردة وتكون في الربيع الى الصفرة ، فاذا اشتد البرد كانت وردة حمراء ، فاذا كانت بعد ذلك كانت وردة الى الغبرة ، فشبه تلون الوردة من الخيل ، وشبه الوردة في اختلاف الوانها بالدهن ، واختلاف الوانه) (٢) ، ويبدو ان ابا عبيدة لم يقصد ان السماء تكون كالفرس ، لأن مثل هذا التفسير لم يذكره في مجازه ، كما لم يذهب اليه أحد غيره وانما أراد به ان السماء تكون متعددة الألوان يوم القيامة كتغير لون الفرس الورد ، وهو بهذا يعطينا تعليلا لتسمية هذا الضرب من الخيل ، ذلك لأنها تتلون باختلاف فصول السنة فتضرب الوانها الى الصفرة في الربيع ، والى الحمرة في البرد ثم الى الغبرة بعد ذلك .

وبهذا نستطيع ان نجمع بين هذا التوجيه ، والتوجيه الأول الذي حدد فيه لون السماء بالحمرة ، وتشبيهها بالورد ، وفي كلا التوجيهين نجد صدى البيئة العربية واضحاً في الصور التي تثيرها الآيات الكريمة . فكون السماء متعددة الألوان يوم القيامة يرسم في الذهن صورة الورود المنتشرة في الصحراء العربية حيث تفترش الأرض أيام الربيع بشتى الصور والألوان الزاهية ، وهي التي شبه بها لون السماء ، ولكن مثل هذا التفسير ـ وان امدنا بوجه الشبه وهو تعدد الألوان ـ لاينسجم مع السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة (فاذا انشقتْ السماءُ فكانت وردةً كالدهانِ فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذبان ؟

---

(١) هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبدالغفار الفارسي النحوي ، من أكابر أئمة النحويين أخذ عن أبي بكر بن السراج ، وأبي اسحاق الزجاج ، فضله بعضهم على المبرد توفي سنة ٣٧٧ ه . أنظر نزهة الألباء : ٢١٧ .

(٢) العين : الورقة (٢٨٩) .

فيومئذ لايُسئَلُ عن ذنبِهِ انسٌ ولا جانٌ فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذبان ؟ يُعرَفُ المجرمون بسيماهم فيُؤخذُ بالنواصي والأقدام ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون) (١) . كما ان هذا التفسير لاينسجم مع الآيات الأخرى التي ورد فيها ذكر السماء ، ووصف حالها يوم القيامة ، ذلك لأن ماتوحيه الورود بل الزرع بصورة عامة انما هو ايحاء الفرحة والنشوة (٢) . وهو ايحاء بعيد كل البعد عن الموقف الرهيب يوم القيامة ، ذلك الموقف الذي تضطرب له السماوات والأرض ، فتتساقط أرجاؤها ويتبدل حالها . أما التوجيه الثاني فانه ينسجم تماماً مع السياق العام للايات الكريمة فالسماء تكون كلون الأديم الأحمر أو الفرس الورد ، ونجد فيه وجه الشبه وهو تعدد الألوان وتلونها ، نظراً لانكفاء السماء واضطرابها وبهذا التوجيه نبعد عن الذهن صورة الورود الممتعة التي لاتنسجم مع سياق الهول والفزع الأكبر يوم القيامة .

وتحول السماء الى سائل متلون شبه في تعبير آخر بالمُهْل قال الله تعالى : (انهم يرونه بعيداً ، ونراه قريباً ، يوم تكون السماء كالمُهل ، وتكون الجبالُ كالعِهنِ ، ولا يَسألُ حميمٌ حميا) (٣) . وقد فسر المُهْل بتفسيرين الأول ماذكره ابن عباس وهو قوله : (كالمُهل : كدردي الزيت) (٤) أما التفسير الثاني فهو الفضة المذابة أو المعادن المذابة بصورة عامة ، وقد

---

(١) سورة الرحمن ٥٥ : ٣٧ ـ ٤٣ .

(٢) أنظر الفصل السادس (الثواب بالجنة) ١ ـ وصف طبيعتها .

(٣) سورة المعارج ٧٠ : ٧ ـ ١١ .

(٤) تنوير المقياس : ٣٦٧ ، وانظر أيضاً جامع البيان ٢٩ : ٧٣ ، التبيان ١٠ : ١١٦ ، الكشاف ٣ : ٢٦٧ ، ودردي الزيت وغيره مايبقى في أسفله . الصحاح ١ : ٤٦٧ .

ذكره ابن عباس أيضاً الى جانب التفسير الأول قال : (ويقال كالفضة المذابة) (١) .

أما أبو عبيدة فقد ذهب الى ان كل معدن اذا اذيب اطلق عليه المهل قال مفسراً قوله تعالى : (يغاثوا بماء كالمهل . . .) (٢) قال : (كل شيء أذبته من نحاس أو رصاص ، ونحو ذلك فهو مُهْل) (٣) ، ومثل هذا الاضطراب في تفسير المهل نجده في أقوال اللغويين فهو دردي الزيت تارة (٤) والنحاس الذائب تارة أخرى (٥) ، وهو الصديد عند آخرين (٦) .

ويبدو ان مرد هذا الاضطراب يرجع الى التعميم الذي أطلق فيه اللفظ في البداية اذ هو - كما يبدو - اطلق على كل فلز ذائب كما ذهب أبو عبيدة من قبل ، وقد سئل ابن مسعود في قوله تعالى : (كالمُهْل يشوي الوجوه) (٧) عن المهل (فدعا بفضة فأذابها فجعلت تميع ، وتلون ، فقال : هذا من

---

(١) تنوير المقياس : ٣٦٧ ، وانظر أيضاً الكشاف ٣ : ٢٦٨ ، نقلا عن ابن مسعود .

(٢) سورة الكهف ١٨ : ٢٩ .

(٣) مجاز القرآن ١ : ٤٠٠ .

(٤) هو قول أبي عمرو بن العلا ، كما في الصحاح ٦ : ١٨٢٢ ، لسان العرب ١٤ : ١٥٥ ونقل مثل هذا عن أبي زيد في المخصص ٥ : ٩٠ ، وأنظر أيضاً مقاييس اللغة ٥ : ٢٨٢ :

(٥) الصحاح ٦ : ١٨٢٢ ، مقاييس اللغة ٥ : ٢٨٢ ، لسان العرب ١٤ : ١٥٦

(٦) جمهرة اللغة ٣ : ١٧٥ ، الصحاح ٦ : ٨٢٢ ، أساس البلاغة : ٩٢٢ ، لسان العرب ١٤ : ١٥٥ .

(٧) سورة الكهف ١٨ : ٢٩ .

أشبه ماأنتم راؤون) (١) ، وقال ابن دريــد (المهل ماذاب من صفر أو حديد) (٢) .

أما اطلاق لفظ المُهْل على الزيت ، أو على الدهان ، فبسبب مشابهة الزيوت والدهون للمعادن المذابة على اعتبارها سوائــل أولا وانها متنوعة الألوان بتنوع الأشكال ثانياً . ومن هنا فلا تضاد في معاني المهل ، لأنه متأت من تعميم اللفظ ، ثم اطلاقه على أجزاء متعددة .

أما ملامح البيئة العربية فنجدها واضحة في تشبيه حال السماء بالمهل ، ذلك لأن الزيوت ، والدهان بنوعيها النباتية أو المستخلصة من المعادن المذابة مما اعتادها العربي في بيئته واحتاج اليها في شؤون حياته البسيطة ، فكثيراً مايطلى البعير بالمُهْل ، فترتسم صورة المُهْل المذاب في الذهن العربي سواء في كونه مذاباً أو للونه الخاص . وذكر ان الابل تطلى بنوع من القطران في الشتاء مما يدل على معرفتهم المُهْل ، واعتيادهم عليه باعتباره مادة مهمة ، يحتاجون اليها كل شتاء لابلهم ـ اعز حيوانهم ـ روى ابن منظور : (المهل والمهلة ضرب من القطران ماهيٌّ رقيق يشبه الزيت ، وهو يضرب الى الصفرة من مهاوته وهو دسم تدهن به الابل في الشتاء) (٣) .

ومن الطبيعي ان يكون المهل الذي عرفه العربي ، واستعمله في طلي ابله متعدد الضروب ، والألوان ومن هنـا جاء اختلافهم في تفسير المهل لأنه اطلق في البداية على أنواع من السوائل المذابة (٤) .

ومن هنا نجـد ان قوله : (انهم يرونه بعيــدا ونراه قريبا ، يوم

---

(١) عن لسان العرب ١٤ : ١٥٦ .

(٢) جمهرة اللغة ٣ : ١٧٥ ، وانظر لسان العرب ١٤ : ١٥٦ .

(٣) لسان العرب ١٤ : ١٥٥ .

(٤) انظر ص ٨٣ .

تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل حميم حميما) (١) يعطينا نفس الايحاءات والصور التي أوحتها من قبل الآية التي ورد فيها ذكر (وردة) والتي شُبِّهَ فيها سيلان السماء بالدهان . قال الأزهري معقباً على تفسير المهل : (ومثله قوله فكانت وردة كالدهان ، قال أبو اسحاق كالدهان : أي تتلون كما تتلون الدهان المختلفة) (٢) .

أما قتادة فقد فسر تحول السماء الى مهل بتحولها الى لون الحمرة (٣) :
وقد اعتمد في هذا التفسير أيضاً على قوله تعالى : (فكانت وردة كالدهان)(٤)

وفي كل هذه التفاسير التي مرّ ذكرها وجدنا صورة البيئة العربية واضحة الملامح ، تتداعى في الذهن عند قراءة الآيات الكريمة ، فتجسد هول القيامة ومشاهد الاضطراب المفزع .

ب - دورانها

قال الله سبحانه وتعالى واصفاً اضطراب السماء يوم القيامة : (يوم تَمورُ السماءُ مَوْرا وتسيرُ الجبالُ سَيْراً ، فويلٌ يومئذٍ للمكذبين) (٥) فعُبِّرَ عن اضطراب السماء بتعبير المور ، وقد فسره بعضهم بالدوران قال ابن عباس : (تدور السماء مورا بأهلها دورانا كدوران الرحى وتموج الخلائق بعضها في بعض من الهول) (٦) ، وقال أيضاً في مور السماء بأنه

(١) سورة المعارج ٧٠ : ٧ - ١١ .
(٢) لسان العرب ١٤ : ١٥٦ ، وانظر أساس البلاغة ٣ : ١١١ .
(٣) جامع البيان ٢٩ : ٧٣ .
(٤) سورة الرحمن ٥٥ : ٣٧ .
(٥) سورة الطور ٥٢ : ٩ - ١١ .
(٦) تنوير المقياس : ٣٢٩ .

شقهـا وانفطارها (١) . وقال بعضهم معنى مور السماء انكفـاؤها . قال أبو عبيدة : (يومَ تمورُ السماءُ مَوْرا أي تكفأ قال الأعشى :

كأن مِشيتَها في بيتِ جارتِها مورُ السحابةِ لاريثٌ ولاعجلُ (٢))

وفي معاني الكلمة اللغوية مايجمع بين التفسيرين السابقين ، ذلك لأن الريح اذا كانت قوية فانها تسفي التراب فيقال مارت (٣) والمور الغبار (٤) وهي صورة اعتادها العـربي في بيئته الصحراوية الرملية . وقد تكررت بصورة خاصة في شعر شعرائهم حين ذكروا ديار الحبيبة ، ووصفوها بعد ان هجرت ، وتركت خواء تسفيها الرياح ، وتمور عليها رمال الصحراء : فمن ذلك قول الحطيئة :

لمن الديـارُ كأنهـنَّ سطور بِلوى زَرود سفى عليها المُورُ (٥)

وقال زهير بن أبي سلمى واصفاً الديار المهجورة :

لَعِبَ الريـاحُ بها وغَيَّرها بعدي سوافي المُورِ والقَطْرِ (٦)

أما الناقة الموّارة فهي السريعة (٧) . وهو استعمال مادي أيضاً وله

---

(١) اللغات في القرآن : ٤٧ .

(٢) مجاز القرآن ٢ : ٢٣١ ، ورواه الجوهـري عن أبي عبيدة والأخفش أنظر الصحاح ٢ : ٨٢٠ ، ورواية ديوان الاعشى : (مرّ السحابة) : ٥٠ ، ومن الجائز انها في الديوان من تحريف النساخ ، أو انها رواية أخرى للبيت غير رواية أبي عبيدة والأخفش ،

(٣) جمهرة اللغة ٢ : ٤١٧ ، وانظر أيضاً شرح ديوان كعب بن زهير : ٢٥٣

(٤) الصحاح ٢ : ٨٢٠ ، مقاييس اللغة ٥ : ٢٨٤ .

(٥) ديوان الحطيئة : ٣٧٦ .

(٦) شرح ديوان زهير : ٨٦ ، وانظر أيضاً شرح ديوان كعب بن زهير : ٢٥٣

(٧) الصحاح ٢ : ٨٢٠ ، مقاييس اللغة ٥ : ٢٨٥ ، المخصص ٧ : ١٢٩ .

علاقته الوثيقة بالاستعمال السابق ، لأن الناقة اذا أسرعت تركت التراب يمور على جانبي طريقها وتدفعه بيدها في سيرها السريع قال طرفة :

صهابية العثنون موجدة القرى   بعيدة وخد الرجل موارة اليد(١)

ومن هنا نفهم قوله تعالى : (يومَ تمورُ السماءُ مَوْرا) (٢) أي تدور دوراناً سريعاً . وفي حركة دوران أي جسم تقلب أعاليه على اسافله فالتراب حين تسفيه الرياح ، ويمور موراً سريعاً ينقلب ، والناقة الموارة تقلب التراب على جانبي طريقها ، وتجعله يدور بسرعة سيرها ومن هنا يتضح لنا سبب تفسيرهم مور السماء بانكفائها ، ودورانها .

وهناك استعمال آخر لتعبير المور وهو قولهم مار الدم على وجه الأرض أي سال ، وانصب (٣) ، وقد وردت في الشعر الجاهلي أيضاً في وصفهم للحروب ، وذكرهم لها ونستطيع ان نقرن هذا المعنى بمور التراب ، ذلك لأن سيلان الدماء على الأرض فيه اضطراب ، ودوران ، وحركة وهي صورة كثيراً ماتتكرر في بيئة العرب الحربية حيث الغارات والحروب الدامية التي تترك الدماء بين عشية وضحاها تمور على الأرض ، وتسيل . ومن الناحية الأخرى فان هذا المعنى يعيننا على تصور اضطراب السماء ودورانها يوم القيامة ، وذلك ان حركتها تشبه حركة التراب السريعة حين تسفيه الرياح وتمور جوانبها كما يمور الدم على الأرض .

ويبدو ان هذه الصورة كانت أقرب الى ذهن الزمخشري حين فسر الآية الكريمة فقال : (تمور السماء : تضطرب وتجيء وتذهب ، وقيل المور

(١) ديوان طرفة : ٣٩ ، وانظر أيضاً الطرائف الأدبية : ٦٤ .

(٢) سورة الطور ٥٢ : ٩ .

(٣) أنظر قول ثعلب في شرح ديوان زهير : ٧٨ ، وانظر أيضاً شرح ديوان الحماسة ٤ : ١٦٣٧ .

تحرك في تموج) (١) .

ج - تشققها وانفطارها

من الطبيعي ان دوران السماء وانكفاءها الذي صورته الآيات السابقة لايترك السماء الا منهارة الجوانب ، متصدعة الأرجاء . وقـد صور هذا التصدع بتعبير آخر هو قوله تعالى : (اذا السماء انفطرت ، واذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، واذا القبور بعثرت علمت نفس ماقدمت وأخرت) (٢) :

وقال تعالى أيضاً : (فكيف تتقون ان كفرتم يوماً يجعل الولدان شيبا ، السماء منفطر به ، كان وعده مفعولا) (٣) . فقد فسر الانفطار بالانشقاق (٤) . وهو معنى تؤكده آيات أخرى كقوله تعالى : (وانشقت السماء فهي يومئذ واهية (٥) . وقد وردت كلمة الانفطار في مواضع أخرى من القرآن الكريم في غير هـذا المعنى كقوله تعالى : (اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين) (٦) .

---

(١) الكشاف ٣ : ١٧٢ .

(٢) سورة الانفطار ٨٢ : ١ - ٥ .

(٣) سورة المزمل ٧٣ : ١٧ - ١٨ .

(٤) تنوير المقياس : ٣٧٢ ، مجاز القرآن ٢ : ٢٧٤ ، جامع البيان ٣٠ : ٨٥ درة التنزيل: ٣٨٨ ، التبيان ١٠ : ٢٩٠ ، الكشاف ٣ : ٢٨٣ ، ٣١٩ ، وقد وردت بنفس المعنى في غير مواضع القيامة وذلك في سورة مريم ١٩ : ٩٠ ، الشعراء ٤٢ : ٥ ، الملك ٦٧ : ٣ .

(٥) سورة الحاقة ٦٩ : ١٦ :

(٦) سورة الأنعام ٦ : ٧٩ ، وانظر أيضاً المعجم المفهرس : ٥٢٣ .

وقد فسر الانفطار في الآية السابقة بالخلق والابداع (١) . ومن ظاهر اللفظ تبدو العلاقة بين الاستعمالين بعيدة ، ولكن معرفة التطور التاريخي للكلمة يدلنا على انهما يرجعان الى أصل واحد ، ومعرفة هذا الأصل يعكس لنا صورة من البيئة العربية وأثرها في ابتداع الألفاظ وتطورها :

فمن المعاني الحسية التي استعملت فيها الكلمة هو قولهم تفطر النبت (وذلك عند أول طلوعه) (٢) ، ومنه قيل فطر ناب البعير أي طلع وانشق وبعير فاطر (٣) .

ومن هنا جاء الاستعمال المعنوي للكلمة ، وهو اطلاق اللفظ على الشق بصورة عامة (٤) ، وذلك ان النبت حين يطلع يكون طلوعه بعد تشقق الأرض ، ونموه وكذا الحال مع نمو الأسنان ، وطلوعها . أما معنى الخلق والابداع الذي جعله ابن فارس الأصل الأولي للكلمة (٥) ، فانه معنى متطور عن المعنى الحسي الأول ، وبعكسه قول ابن عباس : (كنت لا أدري

---

(١) تنوير المقياس : ٩٠ ، مجاز القرآن ١ : ١٨٧ ، ٣٨٢ ، المفردات : ٢٣٩ الكشاف ١ : ٤٩٧ .

(٢) أنظر قول أبي حنيفة في باب (بدء النبت وانتهائه) المخصص ١٠ : ٨٦ ، ٢١٣ ، وانظر أيضاً مجالس ثعلب ١ : ٢٩١ ، ٢٩٢ ، المفردات : ٣٩٠ ، وانظر الشعر في ديوان امرىء القيس : ١٥٧ .

(٣) العين : ٢٦١ ، مجاز القرآن ١ : ١٨٧ ، ٢ : ١٢ ، الزينة : الورقة ١٩٦ (ب) ، الصحاح ٢ : ٧٨١ ، أمالي القالي ١ : ٢١ ، الكشاف ٣: ٢٥٣ ، وانظر باب أسنان الأولاد وتسميتها في المخصص ١ : ٣٣ .

(٤) الصحاح ٢ : ٧٨١ ، مقاييس اللغة ٤ : ٥١ ، المفردات : ٢٨٩ ، وانظر الشعر في الحيوان ٤ : ٣٩١ .

(٥) انظر مقاييس اللغة ١ : ١٤٣ .

مامعنى فاطر السماوات والأرض حتى اختصم الي اعرابيان في بئر فقال أحدهما انا فطرتها ، أي ابتدأتها) (١) . ذلك لأن شق البئر ابتداع في حد ذاته .

ومن هنا نفهم العلاقة الوثيقة بين قوله تعالى واصفاً تشقق السماء وانفطارها وبين الآيات التي ورد فيها معنى الانفطار بالخلق والابداع ، وانهما من أصل حسي واحد هو تفطر النبت أو الاسنان .

وبعد هذا العرض السريع لمعنى كلمة الانفطار تتبين لنا الدلالة العظيمة والصور الرهيبة التي توحيها الآيات الكريمة في تصوير انفطار السماء ، وذلك انها حين تمور ، وتضطرب تتصدع جوانبها ، وتنشق ، ولا تعكس الآية الكريمة معنى الفطر الذي هو الشق فحسب ، وانما تنقل لنا تلك التلقائية التي تظهر في استجابة الكون كله لأمر الله تعالى ، وهي التي نجدها في فطر النبات ، وفطر ناب البعير ، وانشقاقه ، لأن هاتين الظاهرتين انما تحدث للنبت أو للبعير بصورة طبيعية ، وفق نظام الخلائق الذي وضعه الله سبحانه وتعالى . ويؤكد هذا المعنى الاسلوب البياني الذي سارت عليه الآيات الكريمة حيث اسند الفطر والشق الى السماء مباشرة ، وصرف عن الاسناد الى مُحدث الفطر والشق وهو الله سبحانه وتعالى ، لأجل توجيه الذهن الى ان الظواهر التي تحدث يوم القيامة مسخرة لهذه الأحداث ، مهيأة لها . وهي ظاهرة تطرد فيها كل التعابير القرآنية التي تخص اضطراب السماوات والأرض . وأول من التفت الى هذه الناحية - فيما قرأت - الدكتورة بنت الشاطيء بقولها (ولا أعرف أحداً من المفسرين ، أو البلاغيين ، التفت الى اضطراد هذه الظاهرة الاسلوبية في القرآن ، مع وضوحها الى درجة العمد ، والاصرار وسرها البياني دقيق جليل . فاطراد اسناد الحدث الى غير محدثه بالبناء للمجهول ، والاسناد المجازي أو المطاوعة ، يدل على العمد المقصود به مانسميه

---

(١) الزينة : الورقة ١٩٦ (ب) الكشاف ١ : ٤٩٧ .

التلقائية ، والاقناع النفسي بان الكون كله مهيأ يومئذ للحدث الخطير ، وان الكائنات مسخرة بقوة لذلك الحدث ، فما تحتاج فيه الى امر ، ولا الى فاعل فالأرض تزلزل تلقائياً ، وتدك بانبعاث قاهر ، والجبال ترج وتنسف ، والبحار تسجر ، والنجوم تطمس ، وتبعثر ، في طواعية تلقائية) (١)

د ـ تناثر النجوم

ومن الطبيعي ان يصيب الخلل والاضطراب النجوم ايضاً ، بعد أن يختل النظام الكوني العام ، فتنهار السماء ، وتمور مورا عظيما ينتج عنه تغير حال النجوم ، وانهيارها ايضاً . قال الله تعالى : (والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا ، والناشرات نشرا . . . . فاذا النجوم طمست واذا السماء فرجت ، واذا الجبـال نسفت ، واذا الرسل اقتت ، لاي يوم اجلت ؟ ليوم الفصل) (٢) فبعد القسم القرآني تتابعت الآيات الكريمة تعرض الظواهر التي تصيب الكون ، ومن بينها النجوم قال ابن عباس مفسرا طمس النجوم بانه اذا (ذهب نورها) (٣) .

اما في اللغة فان حقيقة الطموس هي ، (الدروس والامحاء . . . وانطمس الشيء ، وتطمس أي انمحى ودرس) (٤) : وقال ابن فارس هو « اصل يدل على محو الشيء ومسحه » (٥) .

---

(١) التفسير البياني : ٧٠

(٢) سورة المرسلات ٧٧ : ١ ـ ٣ ، ٨ ـ ١٢

(٣) تنوير المقياس : ٣٧٧

(٤) الصحاح ٢ : ٤١ ، لسان العرب ٧ : ٤٣٢

(٥) مقاييس اللغة ٣ : ٤٢٤ ، لسان العرب ٧ : ٤٣٢

فتفسير طمس النجوم في الآية الكريمة بذهاب نورها من باب الامحاء والمحق ، لان النجوم اذا تغيرت ، وامحت معالمها ذهب نورها . وهو معنى اكدته آيات كريمة أخرى كقوله تعالى : « اذا الشمس كورّت ، واذا النجوم انكدرت ، واذا الجبال سيرت ، واذا العشار عطلت . . . علمت نفس ما احضرت » (١) فقد فسر الانكدار بالتساقط والاسراع تارة والتغير تارة اخرى قال ابن عباس : « اذا النجوم انكدرت ، تساقطت على وجه الأرض » (٢) وقال ابو عبيدة : « انكدرت : يقال انكدر فلان انصبّ » (٣) . اما تفسير الانكدار بالتغير فقد نقله الطبري عن ابن عباس وآخرين (٤) .

وتعبير الانكدار يعيد لنا تعبير الطمس في قوله تعالى : « فاذا النجوم طمست » (٥) لان تساقط النجوم يؤدي الى تغير لونها والى امحائها أيضاً ولكن الانكدار يعطينا ايحاء آخر اكثر من معنى التغير والسقوط ، ايحاءً مرتبطاً بالبيئة العربية ، وصورها المألوفة ، وذلك اطلاقهم الكدرة على خلاف الصفو في الماء (٦) . وللماء أهميته العظيمة في البيئة العربية الصحراوية

---

(١) سورة التكوير ٨١ : ١ ـ ٤ ، ١٤

(٢) تنوير المقياس : ٣٨٢

(٣) مجاز القرآن ٢ : ٢٨٧ : وانظر ايضاً جامع البيان ٣٠ : ٦٥ ، الكشاف ٣ : ٣١٥

(٤) جامع البيان ٣٠ : ٦٥

(٥) سورة المرسلات ٧٧ : ٨

(٦) انظر جمهرة اللغة ٢ : ٢٥٢ ، الصحاح ٢ : ٨٠٣ مقاييس اللغة ٥ : ١٦٤

وسنبحثه بالتفصيل فيما بعد (١) . تلك الأهميــة التي جعلت منه الركن الأساسي في حياتهم فاذا بتعابير الماء تصبغ كلامهم ، وصوره تملأ مخيلتهم فاذا اراد شاعرهم الفخر فانما يفتخر بشربه الماء الصافي العذب قبل غيره من الناس لعزته ومنعته ، بينما يشرب اعداؤه المــاء الكدر بعد ان يرده هو وقبيلته قال عمرو بن كلثوم :

وانّا الشاربون المــاءَ صفوا ويَشربُ غيرُنا كَدَرا وطينا (٢)

وأقصى ما يمدح به المرء ان يشبه بالماء العــذب في جوده وكرمه واذا مدح شخص بهذا فسرعان ما يبعد عنه ان يكون ماء كدرا ، وانما يمدح بانه كالماء العذب البارد .

انشد ابن الاعرابي :

لو كنتَ ماءً كنتَ غير كدرِ (٣)

فالماء الصافي هو الصورة المحببة للعربي في بيدائه الشحيحة ، فيطيب عيشه اذا توفر الماء ، وطاب ، فان ساءت معيشته ، او اصابته مصيبة استعاروا كدرته للتعبير عن العيش الضنك ، والحيــاة الذميمة ، فقالوا « كدر عيش فلان وتكدرت معيشته » (٤) .

ومن هنا ندرك مدى التصوير البليغ المعجز ، الذي يصوره تعبير

---

(١) انظر الفصل الخامس ، ٥ ـ شراب أهــل النار ، والفصل السادس أ ـ انهار الماء .

(٢) شرح القصائد السبع : ٤١٩ : ٢٧٣ ، وانظر ايضاً ديوان حاتم الطائي : ٣٦

(٣) الصحاح ٢ : ٨٠٣ ، والشعر غير منسوب الى قائله .

(٤) ن . م : ٨٠٤ ، وانظر ابضاً مقاييس اللغة ٥ : ١٦٤ وانظر شواهد الشعر في ديوان الاعشى: ٣٤ ، ديوان النابغة الجعدي : ٦٩ ، ٧٣ ، ديوان عدي

الانكدار في تصوير حال النجوم حين تتغير ، وتفقـد بهاءها ، فتكون صورة بغيضة تنقل الى ذهن العربي صورة المـاء الكدر ، والعيش الكدر وكل ما يناقض الصفو والجمال . وتغير النجوم بهذه الصورة المحزنة ينتج من اضطراب الكون كله ، ومور السماء ، وإنكفائها . فكدرة النجوم وتغيرها يدل على تغير واضطراب سريع في نظام سيرها ، ذلك الاضطراب الذي يؤدي بها الى الانهيار السريع . ومن هـذه الوجهة جاء تفسير من قال ان معنى انكدرت « اسرعت » (٢) . ومما مـر بنا يبدو أن الاسراع ليس اصلا ثانياً للكلمة كما ذهب ابن فارس (٣) ، وانما هو متطور عن المعنى الاول ، لان اسراع النجوم ناتج عن اضطراب النظام الدقيق الذي يسير الكون عليه فسرعان ما تهوى ، وتتساقط بسرعة رهيبة . وقد صور هذا المعنى بتعبير آخر هو قوله تعالى : « اذا السماءُ انفطرتْ ، واذا الكواكبُ انتثرتْ ، واذا البحارُ فُجِّرتْ » (٤) . ويزيد من دقة الوصف ما توحيه كلمة النثر من سقوط النجوم وتهاويها ، حتى تعـود صغيرة ، متناثرة ، لان النثر مقترن بالاجسام الصغيرة كما توحيه الكلمة .

ـ ابن زيد العبادي: ٦٠ ، شرح ديوان عنترة : ٨٠ ، جمهرة اشعارالعرب: ١٢٦ شرح ديوان الحماسة ١ : ١١٩

(١) مقاييس اللغة ٥ : ١٦٤

(٢) ن . م .

(٣) سورة الانفطار ٨٢ : ١ ـ ٣

(٤) قال اللهتعالى «اذا البحارُ سُجرِّت» سورة التكوير ٨١ : ٦ وقد فسر سجر البحار باختلاطها انظر مسائل نافع بن الأزرق : الورقة ١٠ « أ » وروي انها تجعل يوم القيامة ناراً انظر درة التنزيل : ٣٨٨ ، الكشاف ٣ : ١٧٢ ، وانظر ايضاً جمهرة اشعار العرب : ٩

وبعـــد ان مرّت بنا التعابير المختلفة التي صورت الظواهر الطبيعية التي تحـدث في الـــكون يوم القيـامة تتشكل في الذهن صورة متعـــددة الجوانب ، مليئة بالحركات لاضطراب الأرض والسماء ، وما فيهما من جبال وكواكب . فالارض ترج رجا شديدا . وتزلزل زلزالا عظيما شاملا وتحدث انكسارات للجبال فتفتت اجزاؤها ، وتتناثر جوانبها متلاشية في الكون المضطرب والبحار تختلط في هذا الخضم الكوني المختل النظام (١) اما السماء فتنهار متحولة الى سائل متعدد الألوان وقد تغير لون شمسها (٢) ونجومها ، وتهاوت كلها أثر الاختلاف الكوني العام .

لقد مرّت بنا الايحاءات المختلفة التى اوحتها التعابير القرآنية في وصف هذه المشاهد ، وما تعكسه من صور البيئة العربية ، فلنا ان نتساءل : هل استطاع الذهن العربي ان يتصور هذه الظواهر الرهيبة كما صورها القرآن الكريم ؟ .

واذا بحثنا في جوانب البيئة العربية وجدنا بعض ملامح هذه الصور المفزعة التي يصفها القرآن الكريم ، وهي وان كانت مـــلامح بسيطة لا تقاس بشيء مما يحدث يوم القيامة ، فان لها دلالتها على البيئة العربية والذهن العربي .

انها ملامح الزلازل والبراكين التي تحدث في الحيـــاة الدنيا . فهل تصور الذهن العربي الزلازل والبراكين ؟ ومن ثم الاضطراب الكوني يوم القيامة ؟ . امـا المصادر العربية فانها لم تذكر حدوث زلازل في الجزيرة العربية في العصر الجاهلي ، انما الذي نجده وصفا لبقايا البراكين وقد ذكرها

---

(١) قال الله تعالى « اذا الشمس كُوِّرت » سورة التكوير ٨١ : ١ ، وفسر تكوير الشمس بامحائها وذهاب نورها . انظر تنوير المقياس : ٣٨٢ ، مجاز القرآن ٢ : ٢٨٧ ، جامع البيان ٣٠ : ٦٣ وانظر ايضا المخصص ٩ : ٢٤

الذين كتبوا في جغرافية بلاد العرب من المحدثين فوصفوا آثار البراكين. قال الشرقاوي يصف هضبة الجزيرة بقوله : (تتغطى هذه الحافة في اليمن بطبقة من اللافا ، وهي نوع من الصخور البركاني) (١) . وقال بيربي واصفاً جبال الحجاز حتى خليج عــدن (ووراءه ترتفع جبــال سوداء جرداء ، انها جبال الحجاز التي تخترقها ممرات قليلة تربط بين الساحل والداخل ، واذا توجهنا جنوباً نحو خليج عــدن ، وجدنا الصخر البركاني) (٢) . اما هضبة نجد فوصفت بانها : (مغطــاة بحمم السائل البركاني) (٣) . اما الحرات فهي من بقايا البراكين في الجزيرة العربية وهي كما وصفتها المراجع القديمة : (أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها احرقت بالنار) (٤) ويقول شليفر أن هذه الحرات من مظاهر البراكين التي شملت الصحراء فغطت وجهها بالحجارة السود ، وربط بينها وبين زلزال وصفه السمهودي في حوادث سنة ٦٥٢ ه قال : (واصل هـذه الحرات البراكين الباطنية التي غطت باستمرار وجــه الصحراء المتموجة بطبقة من الحمم ، وهي توجد بصفة خاصة في شرق حوران وتمتد من

---

(١) هذا العالم : ٣٣٣

(٢) جزيرة العرب لبيربى : ٢٠

(٣) جزيرة العرب لوهبة : ١٤

(٤) صاحب العين ، والاصمعي عن معجم البلدان ٢ : ٢٤٧ ، وانظر الغريب المصنف : الورقة (٢٠٥) جمهرة اللغة ١ : ٥٩ ، الصحاح ٢ : ٦٢٦ ، مقاييس اللغة ٢ : ٧ شرح القصائد السبع ٤٧٤ ، المخصص ٥ : ٢٥٢ ، ١٠ : ٨٦ وانظرعن وجود الحرات في ديوان النابغة الذبيانى ٥٦ ، مختصر البلدان: ٣١ معجم البلدان ٢ : ٢٠٥ ، جغرافية العالم ١ : ٣١

هناك الى المدينة) (١) .

وربط الزلازل بالبراكين ظاهرة طبيعية أيضاً ، ذلك لأنهما تحدثان نتيجة لعوامل جغرافيـة يسببها تخلخل في طبقات الأرض ، وحركة ، واضطراب شامل (٢) . وهناك نوع من الزلازل سميت بالزلازل البركانية (وهي التي ترتبط هزانها بالهزات الناجمة عن انبثاق الـلاّفات في فوهات البراكين) (٣) . وقد حددت منطقة الزلازل في الجزيرة العربية بأنها تلك التي توازي السواحل الشرقية الآسيوية (٤) .

هذه الدراسات الجغرافية تثبت كلها وجود البراكين والزلازل في الجزيرة العربية ، لأنها أرض عرفت الانكسارات ، والتخلخل الطبقي الذي يصيب قشرة الأرض . أما المصادر الغربية القديمة (٥) فنجد فيها رواية يظهر عليها الطابع الاسطوري وذكرها هنا يطلعنا على معرفة الغرب للبراكين والزلازل ، وعلى مقدار تصورهم لجغرافية الجزيرة العربية . يذكر الجاحظ في حديثه عن نار (حرة بني سليم) ان الناس يزعمون بأنها نار خالد بن سنان أحد بني مخزوم في بلاد عبس . فاذا كان الليل فهي نار تسطع في السماء ، وانها كانت تأتي على كل شيء فتحرقه ، واذا جاء النهار فانما هي دخان يفور ويروى بأن خالداً هذا احتفر لها بئراً . . . ويروى

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة حرة ٧ : ٣٦٣ .

(٢) الزلازل عبارة عن (حركات تموجية تصيب قشرة الأرض في مناطق واسعة) أنظر قشرة الأرض : ٣٤٨ .

(٣) ن . م : ٣٥١ .

(٤) ن . م .

(٥) لقد قدمت المصادر الحديثة على المراجع القديمة (لأني اتبعت تسلسل الأقوال من الناحية العلمية لا التاريخية .

أيضاً ان النبي (ص) قال حين رأى ابنته : هذه بنت نبي ضيعه قومه (١) :

وتدلنا هذه الاسطورة على ان العرب عرفوا البراكين ، وعانوا من انفجارها في العصر الجاهلي ماعانوا ، حتى صاروا يطلقون عليها اسم العذاب الموجع (٢) ، ثم ان هذه البراكين والزلازل ظهرت في الجزيرة العربية في العصور الاسلامية المتأخرة ، ووصف السمهودي أحدها وهو - وان كان متأخراً - يفيدنا في رسم صورة واضحة لنموذج من الظواهر الطبيعية التي تجتاح الجزيرة العربية . ففي مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة حدث في المدينة زلزال له دوي عظيم فكانت الأرض تموج ، والجدارات تتحرك ، وذكر ان امير المدينة أرسل عدة فرسان الى هذه النار ، فذكروا انها ترمى بشرر كالقصر ، ولم يظفروا بجليـة أمرها وان الأمير حين ذهب بنفسه اليها لم يستطع مجاوزة موقفه من النار لأ إذ احجار كالمسامير تحتها نار سارية (ورأى ناراً كالجبال الراسيات ، والتلال المجتمعة تقذف بزبد الأحجار كالبحار المتلاطمة الامواج ، وعقد لهيبها الافق قتاماً حتى ظن الظان ان الشمس والقمر كسفا ، اذ سلبا بهجة الاشراق في الآفاق .. وقال المؤرخون ، واستمرت هذه النار مدة ظهورها تاكل الأحجار ، والجبال وتسيل سيلا ذريعا في واد يكون طوله أربع فراسخ وعرضه أربعة أميال ،

---

(١) الحيوان : ٤ : ٤٧٧ ، ثمار القلوب:٤٥٥ ، والجاحظ ينكر هذه الرواية ويقول (المتكلمون لايؤمنون بهذا ويزعمون انخالدا هذا كان اعرابياً ، وبرياً من من أهل شرج وناظرة ولم يبعث الله نبياً قط من الاعراب) ومن المحتمل انيكون قول النبي (ص) - ان صحت الرواية - مجازاً ، وأراد به انها ابنـة مصلح عظيم ، لم يعرف قومه قدره. ثم حاك الخيال العربي هذه الاسطورة مستنداً على ظاهرة الحرات الموجودة في الجزيرة العربية وما تحدث من الظواهر الطبيعية .

(٢) وفاء الوفاء ١ : ١٤٢ ، ١٥٠ :

وعمقه قامة ونصف وهي تجري على وجه الأرض والصخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك ولم يزل يجتمع من هذه المذابة في آخر الوادي عند منتهى الحرة حتى قطعت في وسط الوادي الشظاة الى جهة جبل ، وعبره فسد الوادي المذكور بسد عظيم من الحجر المسبوك بالنار) (١) .

والوصف الأخير لبقايا الأحجار المذابة يشبه وصف القدماء للحرة بأنها حجارة سود نخرة ، كما نجد في الوصف العام للزلزال بعض ملامح الاضطراب الكوني الذي يحدث يوم القيامة - والذي مرت بنا صوره - فالجبال تتكسر وتتناثر أجزاؤها ، وشبهت في القرآن الكريم بالسراب لتلاشيها ، وكثرة فتيتها المتناثر ، كما شبهت بالصوف المنتثر لما يحدث لها من اضطراب هائل اضافة الى الانكسارات الرهيبة التي تزلزل الأرض . . . واذا كان زلزال المدينة قد اقتصر على منطقة محدودة فملأ النفوس بالرعب ، والفزع ، فكيف بالانسان ، وهو يواجه هذه الاضطرابات الرهيبة في كل ركن من أرجاء الأرض ، فلا تسلم منه الجبال ، ولا الوديان ، بل حتى السماوات ، والكواكب والكون بأجمعه . . . انه رعب هائل يثيره القرآن الكريم في النفوس البشرية وهو رعب يشعر به العربي الذي شهد الزلازل في بيئته أو وجد آثارها في الحرات المتبقية فرسخت في ذهنه أحاديث هولها ، وأذاها ، هذا العربي يستطيع ان يتصور الرعب الذي يفزع الانسان حين يواجه الاضطراب الكوني وحده يوم القيامة (٢) . وتضاف الى هذا ظواهر طبيعية أخرى لم يشهدها الانسان في حياته الدنيا ، لأنها تنتج عن اختلال عام يتبعه تحول السماء الى سائل مذاب ثم انهيارها ، وتناثر نجومها وأجرامها كما مرّ بنا .

---

(١) وفاء الوفاء ١ : ١٤٢ - ١٥٠ .

(٢) ومن هنا اعتبر الجاحظ الزلازل من الظواهر التي يبعثها الله سبحانه وتعالى لترهيب البشر أنظر الدلائل والاعتبار : ١٣ .

الفصل الثالث

صفة الناس يوم القيامة

١ ـ سيرهم نحو النفير :

أ ـ سرعتهم : نسلهم ، تشبيه سيرهم بالطواف حول النصب
ب ـ تفرقهم وانتشارهم : تشبيههم بالجراد ، وبالفراش

٢ ـ صفاتهم النفسية :

أ ـ يأسهم .
ب ـ توقعهم العذاب .
ج ـ ذلتهم :

٣ ـ صفاتهم الجسدية :

أ ـ سواد وجوه المجرمين وبياض المؤمنين
ب ـ حشر المجرمين زرقا
ج ـ اشراق وجوه المؤمنين :

١ ـ سيرهم نحو النفير :

أ ـ سرعتهم :

يخرج الناس من قبورهم اثر سماع النفير المفزع يوم القيامة : فيقفون وجها لوجه امام الاضطراب الهائل الذي يختل فيه نظام السموات والأرض ومن هنا نجد في القرآن الكريم صوراً رائعة تصور مشاهد الناس عند خروجهم من القبور ، واول هذه المشاهد صورة سرعتهم في سيرهم نحو الداعي ، وقد عبّر عنها بعدة تعابير لكل منها دلالته على البيئة العربية :

نسلهم : قال الله تعالى : (ويقولون : متى هذا الوعدُ ان كنتم صادقين ؟ ما ينظرونَ الا صيحةً واحدةً تاخذهم وهم يَخَصمّون فلا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون ، ونفخ في الصُّور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون ، قالوا : يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) (١) وقال ايضاً : (وَحرامٌ على قرية اهلكناها انهم لا يرجعون ، حتى اذا فُتِحَتْ يأجُوجُ ومأجُوجُ (٢) وهم من كلِ حدَب ينسلون وأقتربَ الوعدُ الحقُ فاذا هي شاخصةٌ ابصارُ الذين كفروا ، يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين) (٣) فبعد نفخ الصور يخرج الناس من قبورهم فيتساءلون عن حقيقة الموقف الذي دعوا اليه وقد قال ابن عباس ان معنى ينسلون يخرجون (٤) .

---

(١) سورة يس ٣٦ : ٤٨ ـ ٥٢

(٢) ياجوج ومأجوج : قال المفسرون انهما امتان من الانس وقيل اسمان لرجلين انظر جامع البيان ١٧ : ٨٨ ، التبيان ٧ : ٢٧٧ ، الكشاف ٢ : ٣٣٧

(٣) سورة الانبياء ٢١ : ٩٥ ـ ٩٧

(٤) تنوير المقياس . ٢٧٥

اما ابو عبيدة فانه فسر النسل بالسير السريع وقرنه بعدو الذئب قال : (ينسلون : يسرعون ، والذئب يعسل وينسل) (١) . وقال أيضاً في تفسير سورة الانبياء : (ينسِلون : يعجاون في مشيهم كما ينسِلُ الذئبُ ويعسِل قال الجعدي :

عَسلانُ الذئبِ امسى قارباً بَرَدَ الليلُ عليه فَنَسَلْ (٢)

اما في اللغة فنجد ان معاني الكلمة متقاربة بعضها من بعض ، فالنسل بصورة عامة هو ضرب من السير السريع (٣) . ولكننا نجـد انه اقترن بضرب من مشي الذئب قال ابن دريد : وَعسَلَ الذئب يعسِلُ عَسَلا وَعسَلانا . وكذلك نَسَلَ نَسَلانا وهو ضرب من المشي يضطرب فيه (٤) . وقال الزمخشري : (ونَسَلَ الذئب اذا اسرع باعناق) (٥) وقد ذكر ابن منظور ان هذا الاستعمال هو اصل للكلمة ثم اطلق على السير السريع قال : (وقيل اصل النَسَلان للذئب ثم استعمل في غير ذلك وأنسلت القوم اذا تقدمتهم) (٦) .

ويبدو اننا لا نستطيع الجزم بان اصل النسلان هو سرعة سير الذئب ذلك لان الكلمة وردت في الشعر الجاهلي مقترنة بضروب عديدة من سير

---

(١) مجاز القرآن ٢ : ٤٢

(٢) مجاز القرآن ٢ : ٤٢ ، وانظر ايضاً جامع البيان ١٧ : ١٩١ ، ٢٣ : ١٥ التبيان ٧ : ٢٧٩ ، والبيت في ديوان النابغة الجعدي : ٣

(٣) الصحاح ٥ : ١٨٣ ، مقاييس اللغة ٥ : ٤٢٠ ، لسان العرب ١٤ : ١٨٤ وانظر ايضاً اعجب العجب : ٣٨ ، امثال العرب : ١٩ ، الطرائف الأدبية : ٧٥

(٤) جمهرة اللغة ٣ : ٣٢ ، ٥١

(٥) اساس البلاغة : ٩٥٤

(٦) لسان العرب ١٤ : ١٨٤

الحيونات المتوفرة في البيئة العربية .

فيقال عن الكلاب اذا اسرعت في سيرها نسلت (١) . وكذا الحيّات في سرعة انسلالها وسيرها (٢) . وبهذا لا نستطيع الجزم باصل استعمال النسل هل هو سير الذئب او الناقة او الكلب ، لان هذه الحيوانات كلها مما اعتاده العربي في بيئته وشهد عدوها وسرعة سيرها الا ان صورة نسل الذئب يقرب لنا الآية الكريمة لانه سير سريع فيه اضطراب ، وكذلك يكون حال الناس في سرعة سيرهم واضطرابهم نحو الداعي . وسياق الآيات العام يعيننا على فهم الاضطراب من تعبير النسل : (وما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخِصمون ، فلا يستطيعون توصيةً ولا الى اهلِهم يرجعون . ونُفِخَ في الصُّور فاذا هم من الاجداثِ الى ربهم ينسِلون ، قالوا يا ويلنا : من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعدَ الرحمنُ وصَدَقَ المرسلون) (٣) . لانه مقترن بالفزع والرعب من مفاجئة الموقف وهوله .

وهناك معنى آخر لكلمة النسل ، وذلك قولهم : النسالة شعر الدابة اذا سقط عن جسدها قطعاً (٤) . وواضح ان تساقط الشعر او الوبر لا يكون بالقوة ، انما يكون نتيجة لطبيعة الجسد حين تحدث له ظاهرة تستدعي سقوط الشعر تلقائياً . ونجد هذه الصورة نفسها في قولهم (النسل بالتحريك اللبن يخرج بنفسه من الاحليل) (٥) .

---

(١) انظر الحماسة البصرية : الورقة ٣٠٦ « أ »

(٢) المفضليات : ٢٤٠ ، شرح ديوان الحماسة ٤ : ١٨٠٦

(٣) سورة يس ٣٦ : ٤٩ ـ ٥٢

(٤) مقاييس اللغة ٥ : ٤٢٠ ، اساس البلاغة : ٩٥٣

(٥) الصحاح ٦ : ١٨٢٩ ، لسان العرب ١٤ : ١٨٤ ، وانظر الشعر في الطرائف الأدبية : ٦٦

ومن هذا المعنى الجديد لكلمة النسل تتشكل في الذهن صورة أخرى لسير الناس يوم القيامة ، ذلك لاننا نجـــد فيه معنى الطواعية والاستجابة السريعة التي تضفي على الآية ايحاء جديداً يتجلى في خروج الناس واسراعهم من قبورهم نحو الداعي بصورة طبيعية وهـــذا المعنى ينسجم مع مشاهد القيامة الاخرى ، اذ ان كل مظهر من مظاهر الطبيعة يتجلى فيـه تسخير محدد لاستجابة امر الله سبحانه وتعالى كما مّر بنا سابقاً (١) . فكأن الكون كله قد هيأ لاستقبال حادث عظيم وهو قيام الساعة والحساب : وتتعاون هذه الصورة مع المعنى الأول لكلمة النسل وهي تشبيه سير الناس بعـدو الذئب المضطرب ، ذلك لاننـا نجـد في الآيات الكريمة معنى الطواعية والاستجابة لأمر داعي الله ، كما يتجلى فيها اضطراب وقلق يشبه اضطراب الذئب في عـــدوه ، وكلا المعنيين منسجم مـع المشاهد الكونية التي مّر وصفها : (٢) :

تشبيه سيرهم بالطواف : اما سرعة سير الناس نحو الداعى فانها رسمت في آية أخرى بصورة تنقل لنا مشهدا من مشاهد البيئة العربيـــة الجاهلية ، فقد شبهت سرعتهم نحو الداعي بصورة الطواف حول النصب التي كان العرب يعبدونها قال الله تعالى : (يومَ يخرجون من الاجداث سراعاً كأنهم الى نُصُبٍ يوفِضون ، خاشعةً أبصارُهم تَرهَقُهم ذلةٌ ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) (٣) .

قال معظم المفسرين ان النصب واحدة الانصاب وهي حجارة كان

(١) انظر الفصل الثاني أ ـ اضطراب الأرض ـ٣ـ بسُّها

(٢) انظر الفصل الثاني ص ٩٥

(٣) سورة المعارج ٧٠ : ٤٣

ينصبها مشركو العرب فيعبدونها ، ويذبحون لها (١) . وقال اخرون : ان النصب هو ما نصب لهم من علامة او غاية يستبقون اليها (٢) . فهم في سرعتهم نحو الداعي كأنهم يستبقون إلى غاية نصبت لهم . وقد ذهب اللغويون مذهب المفسرين في النصب (٣) .

والملاحظ ان صورة الانصاب التي كانوا يذبحون عليها ، ويطوفون حولها أقرب الى الذهن عند قراءة الآية الكريمة من العلم او الغاية التي يستبق اليها . فقد اعتاد العرب صورة الانصاب على اعتبارها جزءً من حياتهم الدينية روى الطبري ان في مكة وحدها ثلاثمائة وستين حجرا يذبحون عليها القرابين (٤) ، وذكر ايضاً ان النصب وجدت في عكاظ (٥) والطائف وفي الحجاز (٦) . الا انهم اختلفوا في تحديد مدلولها ، فمنهم من قصرها على الحجارة يذبح عليها للالهة (٧) . ومنهم من عدها من

(١) تفسير الخمسمائة آية : الورقة ٤٧ (ب) جامع البيان ٢٩ : ٨٩ ، الزينة : الورقة ٢٣٩ (ب) ، التبيان ١٠ : ١٢٩

(٢) اللغات في القرآن : ٥١ ، جامع البيان ٢٩ : ٨٨ ، الزينة ، الورقة ٢٣٩ (ب)

(٣) جمهرة اللغة ٢٩٩ ، اساس البلاغة : ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، لسان العرب ٢ : ٢٥٥ – ٢٥٦

(٤) جامع البيان ٩ : ٥٠٨

(٥) اسماء جبال تهامة : ٧٩

(٦) وقد وصف Doughty أحد هذه الأنصاب واعتقد انها كانت موهوبة للات ووصفها بانها صخرة غير منظمة ورمادية اللون . انظر :

Travels in Arabia Desert Vol . II . p . 550 .

(٧) جامع البيان ٩ : ٥٠٨ ، الاصنام : ٤٢ ، الزينة : الورقة ٢٣٩ (ب) وانظر ايضاً تاريخ العرب لجواد علي ٧ : ٧٩

معبودات العرب يطوفون حولها ، وينحرون لها (١) .

والظاهر ان اختلافهم في النصب متأت من طبيعة وجود هذه الانصاب في البيئة العربية ، واختلاف نظرة الناس اليها من مكان الى آخر فهي في مكة حجارة يذبح عليهـا كما ذكر الطبري (٢) حتى اذا حج الغربي وأراد العودة الى أهله عزّ عليه فراق الكعبة فيأخذ من حجارة الحرم ماينحته على صورة أصنام البيت ، ويجعله قبلة له في بيته يطوفون حوله ، ويتمسحون به ويصلون له تشبيهاً له بأصنام الكعبـة . قال ابن الكلبي (واشتهرت العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لم يقدر عليه ، ولا على بناء بيت نصب حجرا أمام الحرم أو امام غيره مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب) (٣) . وقال ياقوت : (وأفضى بهم الأمر بعد طول المدة انهم كانوا يأخذون الحجر من الحرم فيعبدونه فذلك كان أصل عبادة العرب للحجارة في منازلهم شغفاً منهم بأصنام الحرم (٤) والذي يهمنا في هذا الأمر هو صورة طوافهم حول الأنصاب التي تنقل لنا سرعة السير في التعبير القرآني حين وصف سير الناس بعـد حشرهم من قبورهم وشبهه بالطواف حول النصب : وفي الشعر الجاهلي نجد ذكراً للانصاب على انها حجارة يذبح عليها (٥) . أما الصورة التي تعيننا على فهم الآية الكريمة فهي صورة طوافهم حول النصب وسرعتم في السير

(١) تفسيرالخمسمائة آية : الورقة ٤٧ (ب) ، جامع البيان ٢٩ : ٩٠، الزينة : (الورقة) ٢٤١ (أ) ، التبيان ١٠ : ١٢٩ .

(٢) جامع البيان ٩ : ٥٠٨ .

(٣) الأصنام : ٣٣ .

(٤) معجم البلدان ٤ : ٦٢٢ .

(٥) ديوان النابغة الذبياني : ١٢١ ، ديوان سلامة بن جندل : ٨ .

نحوه . قال المثقب العبدي (١) ذاكراً الطواف .

يطيف بنصبهم حُجَنٌ صغارٌ فقد كادتْ حواجبهم تشيبُ (٢)

وقال الطرماح واصفاً سرعة جري الثور وراء النعامة مشبهاً اياها بطواف قاضي النذر حول النصب :

طوفَ مُتَلِّيّ نذر على نُصُبٍ حول دَوارٍ مُجَمّرةٍ جُدُدُهْ (٣)

وتشبيه الطرماح يفيدنا في هذا الباب لأنه صادر عن الصورة الفنية التي علقت في الذهن العربي وهي صورة الطواف السريع حول النصب والتي بقيت في الاستعمال الأدبي مع زوال النصب والأصنام بانتشار الاسلام .

ومن هنا نجد الاعجاز العظيم في التعبير القرآني الذي وصف سرعة سير الناس نحو الداعي وشبهه بالطواف حول النصب : (يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم الى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) (٤) . ذلك التعبير الذي تحدى الاعتقاد الديني ولم يأخذ منه الا الصورة الفنية وهي صورة الطواف مع انها مازالت قريبة العهد الى الذهن العربي (٥) .

ونستطيع ان نلمح في الآية معنى آخر الى جانب سرعتهم في السير

---

(١) هو العائذ بن محصن بن ثعلبة . من بني عبد القيس ، من ربيعة . شاعر جاهلي من أهل البحرين اتصل بالملك عمرو بن هند وله فيه مدائح ، ومدح النعمان ابن المنذر أيضاً . أنظر الشعر والشعراء ١ : ٣١١ - ٣١٣ جمهرة أنساب العرب ٢٩٨ - ٢٩٩ ، خزانة الأدب ٤ : ٤٣١ .

(٢) الأصنام : ٤٢ ، والبيت غير موجود في شعر المثقب العبدي .

(٣) ديوان الطرماح : ٥٣ :

(٤) سورة المعارج ٧٠ : ٤٣ - ٤٤ :

(٥) وقد وردت في القرآن الكريم بهذا المعنى أنظر سورة المائدة ٥ : ٩٠

ذلك المعنى هو الضلال المتجلي في طواف المشركين حول النصب ، فكأن الناس حين يخرجون من قبورهم يسرعون نحو الداعي ، وهم في اسراعهم هذا يكتنفهم الضلال ، والحيرة ، كما هو الحال مع المشركين حين يطوفون حول النصب ولا يستجاب دعاؤهم ولا يجدي طوافهم . أما معنى السرعة فيؤكده وصف الكافرين بأنهم : (كأنهم الى نصب يوفضون) ، (١) لأن الايفاض هو السرعة كما قالوا (٢) وكلا المعنيين يتعاونان على رسم صورة الناس عند اسراعهم نحو الداعي .

ب ـ تفرقهم وانتشارهم

يفزع الناس عند سماعهم صوت النفير فيخرجون من قبورهم مضطربين هلعين ، وقد توضحت لهم حقيقة الموقف فيتفرقون وينتشرون ، وقد ملأ الرعب قلوبهم . وصورة انتشارهم المفزع صورت في القرآن الكريم بصورة واضحة المعالم ، إذ شبهوا مرة بالجراد المنتشر ، وأخرى بالفراش المبثوث قال الله تعالى : (فتولَّ عنهم يوم يدعُ الداع الى شيء نُكُرٍ خُشَّعاً أبصارُهم يخرجون من الأجداثِ كأنهم جرادٌ منتشرٌ ، مهطعين الى الداعي يقول الكافرون هذا يومٌ عسر) (٣) .

وتشبيه حال الناس في تفرقهم بالجراد ينقلنا الى البيئة العربية التي الف العرب فيها انتشار الجراد في صحرائهم الواسعة وقد ذكر الجراد في سورة

---

(١) سورة المعارج ٧٠ : ٤٣ .

(٢) تنوير المقياس : ٣٦٨ ، تأويل مشكل القرآن : ٣١٧ ، جامع البيان ٢٩ : ٨٨ ، التبيان ١٠ : ١٢٩ .

(٣) سورة القمر ٥٤ : ٦ ـ ٨ .

الأعراف على انه مما أرسل مع القمل والطوفان على آل فرعون (١) : ولرسوخ صورة الجراد في الذهن العربي شبهوا بها الناس الجبناء حين يفرون من الحرب فزعين خائفين .

كما انها تنقل لنا صورة زحف الجراد حين يملأ الأرض بزحفه ويسير بقوة دافعة لايمكن ان تصده أي قوة أخرى (٢) .

وهم في مثل هذا التشبيه يقصدون الى رسم الفزع الذي يجعل الجبناء يفرون على غير هدى هرباً من الموت والقتل وهي صورة واضحة المعالم في وصف الناس يوم القيامة حين يفاجؤهم الفزع الأكبر ، فيتفرقون على غير هدى ، ويفرون على وجوههم تتبعهم الذلة والهلع ، وهم في سيرهم هذا مدفوعين بقوة مجهولة مُنساقين نحو الداعي بجموعهم المحتشدة ، متذكرين صورة الجراد المنفرد الذي يتنزى لأدنى حركة ، على حين تذكرهم صورة الجراد المجتمع الذي يزحف بقوة ودأب عظيمين لاتقف أمام جيوشه وزحفه قوة من القوى .

وفي آية أخرى شبه الناس في تفرقهم وانتشارهم بالفراش : (القارعة ما القارعةُ وما أدراك ما القارعةُ ؟ يوم يكون الناسُ كالفَراشِ المبثوثِ وتكونُ الجبال كالعِهنِ المنفوش) (٣) . في هـذه الآيات الكريمة نجد تصويراً آخر لحال الناس في تفرقهم وانتشارهم عند اضطراب السماوات والأرض ، وقد حاول المفسرون تحديد الفراش فقال ابن عباس (الفراش المبثوث المبسوط يجول بعضه في بعض والفراش هو شيء يطير بين السماء

---

(١) سورة الأعراف ٧ : ١٣٣ .

(٢) ديوان النابغة الجعدي : ٤٥ ، المؤتلف والمختلف : ٥٦ ، الأشباه والنظائر ١٤٩ ، ٢٦٦ ، الطرائف الأدبية : ١٦ .

(٣) القارعة ١٠٢ : ١ ـ ٥ .

والأرض مثل الجراد) (١) . أما أبو عبيدة فلم يشبهه بالجراد وانما اكتفى بقوله (كالفراش المبثوث طير لابعوض ولا ذباب هو الفراش) (٢) ، أما الزجاج فقد شبه الفراش بصغار البق قال (والفراش ماتراه كصغار البق يتهافت في النار ، شبه الله عز وجل الناس يوم البعث بالجـراد المنتشر ، وبالفراش المبثوث ، لانهم اذا بعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد الذي يموج بعضه في بعض) (٣) .

ويلاحظ في هذا التشبيه انه مستمد من البيئة العربية ايضاً ، من صورة اعتادها العربي فضرب بها المثل ، وذكرها في اشعاره ، ذلك لأن البيئة العربية صحراء مترامية الاطراف في معظم اجزائها تسرح فيها الحيوانات نهارا ، فاذا جـاء الليل فان أيّ نار تتراءى من مكان ما تتهافت حولها الحشرات ، وتموج بعضهـا في بعض . ومن الطبيعي ان تكون هـذه الحشرات متنوعة ، ومن هنا لم يستطع المفسرون واللغويون تحديد الفراش فشبهوه بالجراد تارة ، واكتفوا بالقول بانه لا ذباب ولا بعوض كما مر بنا .

هذه الصورة التي اعتادها العرب انعكست في اشعارهم فاذا أرادوا هجاء قوم شبهوهم بالفراش لانهم لا حلوم لهم . كما ان الفراش طائش يموج بعضه فوق بعض حتى يهووا جميعا في النار فتحرقهم انشد الليث :

اودى بحلمهم الفِياش فحلمهُم   حلم الفَراشِ غَشَيْن نارَ المصطلي(٤)

---

(١) تنوير المقياس: ٣٩٥ ، وانظر ايضاً رأى الفراء في لسان العرب ٨ : ٢٢١ جامع البيان ٣٠ : ٢٨١

(٢) مجاز القرآن ٢ : ٣٩ وانظر ايضاً جامع البيان ٣٠ . ٢٨١

(٣) عن لسان العرب ٨ : ٢٢١ ، وانظر ايضاً مقاييس اللغة ٤ : ٤٨٧

(٤) عن لسان الغرب ٨ : ٢٢١

والفياش المفاخرة (١) ، أي ان المفاخرة قد شغلت تفكيرهم فأودت بعقولهم فتهاووا كما يتهاوى الفراش على نيران المصطلي .

واذا أرادوا ان يبينوا ضعف قوم في هجائهم شبهوهم بالفراش ، وانهم في الحروب لايصمدون ، وانما يتساقطون بعضهم فوق بعض كالفراش الذي يهوي في النار فتحرقه ، قال الأسلع بن سالم الضبي (٢) يصف قومه وحربهم مع بني ذهل بن مالك :

كأنَّ سراةَ الحيِّ ذهل بن مالكٍ
فراشٌ تهاوى في لظى النار من علِ (٣)

وقالوا في المثل : (أطيشُ مِنْ فَراشة) (٤) .

ومن هنا نفهم وجه الشبه في الآية الكريمة : (يومَ يكونُ الناسُ كالفَراشِ المبثوثِ وتكون الجبالُ كالعِهنِ المنفوشِ . .) (٥) . فالناس حين يفزعون ويضطربون يموج بعضهم فوق بعض وهذا الاضطراب لايمثل الحركة فحسب ، انما يصور الاضطراب والتدافع الذي يودي الى التهلكة كما يؤدي تدافع الفراش الى النار والهلاك . ثم ان الفراش من الناحية الأخرى حشرات حقيرة تهلك نفسها بتهافتها على النار ، فشبه بها حال الناس في تفرقهم وذلتهم الى جانب اضطرابهم ، وتدافعهم . قال الزمخشري موضحاً هذا التشبيه : (شبههم بالفراش في الكثرة ، والانتشار ، والذلة ، والتطاير

---

(١) مقاييس اللغة ٤ : ٤٦٤ .

(٢) هو الأسلع بن سالم الضبي أخو بني حــرثان بن ثعلبة بن دؤيب شاعر فارس ، لم أعثر على ترجمة كاملة له أنظر المؤتلف والمختلف : ٥٤ .

(٣) ن . م .

(٤) الصناعتين : ٢٤٣ ، المستقصى ١ : ٢٣٠ .

(٥) سورة القارعة ١٠١ : ٤-٥ .

الى الداعي من كل جانب . كما يتطاير الفراش على النار قال جرير :

ان الفرزدق ماعلمت وقومه مثل الفراش غشين نار المصطلي (١)

هذه هي صورة الناس في تفرقهم وانتشارهم يوم القيـامة ، وسياق الآيات العام يعيننا على فهم التفرق والذلة المراد تبيانها في هذا التشبيه ، فما دامت قبور الناس متفرقة في أرجاء العالم المتباعـدة ، فان الناس يخرجون من هذه القبور ويسرعون نحو الداعي وبهذا تكتمل صورة الانتشار والتفرق(٢) اما الذلة والفزع فيوضحها سياق الآيات العام : (القارعةُ ما القارعةُ وما أدراك ما القارعة ؟ يومَ يكونُ الناسُ كالفراشِ المبثوثِ ، وتكونُ الجبالُ كالعِـهْنِ المنفوش) (٣) ، فالقارعة اسم من أسماء يوم القيامة (٤) ، وهي (داهية مهلكة ويقال قرعت عظمه أي صدعته) كما يقول أبو عبيدة (٥) فكأنّ هذه الداهية لهولها تصدع كل مافي الكون وتفتته ، وتكرار لفظ القارعة بهذا الايحاء المبهم يقرع الاذن بمعاني الفزع والرهبة . وتؤكد الآيات بعدها هذا المعنى ، بأن القارعة تكون يوم القيامة حيث يتصدع الناس ويتفرقون كأنهم فَراش منتشر ، فيصيب الصدع الجبال فتتفتت وتتناثر أجزاؤها ،

(١) الكشاف ٣ : ٣٥٥ ، ورواية البيت في الديوان (أزرى بحلمكم الفياش فأنتم . .) . أنظر ديوان جرير : ٣٥٩ وهي تشبه رواية البيت الذي أنشده الليث أنظر ص ٨١ .

(٢) وانظر هذا المعنى في قوله تعالى : (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) سورة الروم ٣٠ : ١٤ .

(٣) سورة القارعة ١٠١ : ١ـ٥ .

(٤) جامع البيان ٣٠ : ٢٨١ .

(٥) مجاز القرآن ١ : ٣٣٢ ، وانظـر أيضاً الكشاف ٣ : ٣٥٥ ، التبيان ١٠ : ٣٩٩ .

وتكون كالصوف المنفوش . . وهكذا تتداعى الآيات الكريمة لترسم الصورة الواضحة ليوم القيامة ، وكيف ان الكون كله يشمله الفزع والرعب ، ثم تأتي صورة تفرق الناس ، وانتشارهم كالجراد أو كالفراش لتكمل صورة الاضطراب الشامل .

٢ – صفاتهم النفسية

أ – يأسهم :

قال الله سبحانه وتعالى مبيناً ان قيام الساعة وما فيها من الهول والرعب يترك المجرمين في يأس مرير : (ويومَ تقومُ الساعةُ يُبلِسُ المجرمون ، ولم يكن لهم من شركائهم شفعاءُ ، وكانوا بشركائِهم كافرين ، ويومَ تقومُ الساعةُ يومئذٍ يتفرقون) (١) .

فسر ابن عباس ابلاس المجرمين بأنه يأسهم (٢) وقال الفراء : (المبلس المنقطع رجاؤه ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته ، ولا يكون عنده جواب قد ابلس . وقد قال الراجز :

ياصاح هل تعرف رسما مكرسا قال : نعم اعرفه وأبلسا (٣)

---

(١) سورة الروم ٣٠ : ١٢ - ١٤ .

(٢) تنوير المقياس : ٢٥١ ، اللغات في القرآن : ٣٨ ، التنبيه والرد : ٧٤ .

(٣) معاني القرآن ١ : ٣٣٥ ، والبيت لم ينسبه الفراء الى قائله وهو للعجّاج كما في مجاز القرآن ٢ : ١٢٠ ، جامع البيان ٢١ : ٢٦ ، مكرس فيه الكرس أي أبوال الابل ، وابعارها يتلبد بعضها على بعض في الدار ، وكذلك فسر الابلاس في سورة الأنعام ٦ : ٤٤ ، والمؤمنون ٢٣ : ٧٧ ، والزخرف ٤٣ : ٤٩ ، أنظر تنوير المقياس : ٨٧ : ٢١٥ ، ٣٠٧ ، جامع البيان ٧ : ١٩٤ ، ١٨ : ٤٦ ، ٢٥ : ٩٨ ، ٢١ ، ٥٤ ، =

وأضاف الزمخشري الى معنى اليأس السكوت والحيرة قال : (الابلاس أي يبقى يائساً متحيرا ، يقال ناظرته فابلس اذا لم ينبس ، ويئس من ان يحتج ، ومنه الناقة المبـلاس التي لاترغو وقرىء يبلَس ، بفتح اللام من أبلَسه اذا أسكته) (١) .

ويلاحظ في هذه التفاسير انها أعطت معنى مشتركاً للكلمة وهو اليأس والحيرة والوجوم . وهكذا ورد معنى الكلمة في كتب اللغويين قال الجوهري : (ابلس من رحمة الله ، أي يئس ومنه سمي ابليس وكان اسمه عزرائيل) (٢) وهو معنى جعله ابن فارس الأصل لمعاني الكلمة قال : هو (أصل واحد وما بعده . فلا معول عليه ، فالأصل اليأس يقال : ابلس اذا يأس قال الله تعالى (اذا هم مبلسون) قالوا ومن ذلك اشتق اسم ابليس كأنه أيس من رحمة الله) (٣) .

وهناك معنى آخر للكلمة وهو ان يقال ابلس الرجل اذا سكت (٤) فكأنّ الكافرين حين يرون العذاب الذي ينتظرهم يوم القيامة يسكتون ، ويتحيرون ، وقد انقطعت حجتهم ، لأنهم سبق ان انذروا في الحياة الدنيا ، ومن هنا نفهم تطور معنى ابلس اذا يئس الى معنى ابلس اذا سكت . قال أبو عبيدة : (والمُبْلِس : اليائس ، ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون عنده جوابٌ قد أبلَس) (٥) .

= الكشاف : ٢ ، ٥٠٥ : ٢ ، ٣٦٧ : ٣ : ١٠٣ .

(١) الكشاف ٣ : ٥٠٤ .

(٢) الصحاح ١ : ٩٠٦ ، لسان العرب ٧ : ٣٢٨ .

(٣) مقاييس اللغة ١ : ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، وانظر أيضاً المفردات : ٥٩ .

(٤) النوادر ١ : ١٧٢ ، جمهرة اللغة ١ : ٢٨٨ ، أساس البلاغة ٦١ .

(٥) عن لسان العرب ٧ : ٣٢٨ والنص غير موجود في مجاز القرآن .

واذا عدنا الى البيئة العربية وجدنا صدى الاستعمال الحسي للكلمة مقترناً بالناقة حيوان الصحراء المعتاد ، وذلك ان يعرض لها عارض فتتألم ولا تستطيع ان ترغو (١) ، وهي في هذه الحالة في يأس وحيرة مما ألمّ بها وهو المعنى الذي تطورت اليه الكلمة للدلالة على اليـأس المطلق ، ثم انها لشدة ألمها لاتستطيع ان ترغو ، وهو المعنى الذي تطورت اليه الكلمة حين قالوا ابلس الرجل اذا سكت ، لأن رغاء الناقة يقابل كلام المرء ، فانقطاعها عنه يقابل الانقطاع عن الكلام .

كل هذه المعاني نستطيع ان نفهمها في الآية الكريمة : (ويومَ تقومُ الساعةُ يُبلِسُ المجرمون) (٢) ، ذلك لأن المجرمين يوم القيامة حين يرون العذاب متمثلا بظاهرة الاضطراب الكوني ييأسون من العفو والرحمة ، لأنهم ارتكبوا في دنياهم ذنوبـاً عظاما لم يرعووا فيها الى رسالة الرسل والأنبياء وهم في هذه الحيرة لايستطيعون الكلام والدفاع عن أنفسهم فتنقلنا صورتهم هذه الى مشهد الناقة المتألمة اليائسة . وهو مشهد طالما تكرر امام ناظري العربي ، فاعتاده وعرف الأذى النفسي الذي تصاب به الناقة فسرعان ماترتسم هذه الصورة في ذهنه حين يقرأ الآية الكريمة حيث يبلس المجرمون ، وتجتمع كل هذه الدلالات لترسم لنا الصورة الكاملة لابلاس المجرمين ويأسهم .

وهناك معنى آخر ورد في شعر العجاج واصفاً وجوه القوم عنـد اشتداد الحرب ، إذ تعلوها صفرة وحيرة ويأس .

وجُمِّعَتْ يومَ الخَميسِ الأخماسْ   وفي الوجوهِ صفرةٌ وإبلاسُ (٣)

فصورة الحيرة ، والصفرة التي تعلو الوجوه في الحروب ، تزيد من

---

(١) الصحاح ٢ : ٩٠٦ ، مقاييس اللغة ٢ : ٣٠٠ .

(٢) سورة الروم ٣٠ : ١٢ .

(٣) جمهرة اللغة ١ : ٢٨٨ ، انظر أيضاً لسان العرب ٧ : ٣٢٨ .

ايحاء الكلمة في الآية الكريمة ، ودلالتها على الضعف ، واليأس ، والوجوم وهي تعطينا صورة أخرى لدلالة الكلمة على البيئة العربية حين تصفر أوجه القوم عند الغارات الشديدة ، والحروب المتطاحنة . ومع ذلك تبقى صورة الناقة المُبْلِسة متمثلة في الذهن على انها الصورة الحسية الوثيقة الصلة بالبيئة العربية فتساعدنا على فهم التعبير القرآني الى جانب المعاني الأخرى المتطورة عنهـا .

وهناك تعبير آخر يصور حيرة الناس ويأسهم يوم القيامة : (لاأُقْسِمُ بيومِ القيامةِ ، ولا أقْسِمُ بالنَفْسِ الّلوامةِ ، أيَحْسَبُ الانسانُ ألَّنْ نَجْمَعَ عظامَهُ ؟ بلى قادرينَ على ان نُسَوِّي بنانَهُ بلْ يُرِيدُ الانسانُ ليفْجُرَ أمامَهُ ، يَسْئَلُ أيّانَ يومُ القيامةِ ؟ فاذا بَرَقَ البصرُ ، وخَسَفَ القمرُ ، وجُمِعَ الشمسُ والقَمرُ ، يقولُ الانسانُ يومئذٍ أينَ المَفرُّ . . .) (١) ففي هذه الآيات الكريمة نجد حيرة الانسان يوم القيامة متجلية بما يطرأ على بصره من معالم الحيرة ، والهلع وقد قالوا في معنى برق البصر اي شخص وتحيَّر فزعا (٢) ، وذلك لأن أصل البرق هو اللمعان والتلألأ (٣) ، فكأنَّ الانسان حين يشهد الظواهر المرعبة التي تسود الكون ويرى الفزع محيطاً به تشخص عيناه وتتلألأ ، وتأخذه الحيرة فلا يطرف بصره . وهو معنى أكدهُ قوله تعالى : (انما يُؤَخِرُهُم ليومٍ تشخَصُ

---

(١) سورة القيامة ٧٥ : ١ ـ ١٠ .

(٢) تنوير المقياس : ٣٧٤ ، جامع البيان ٢٩ : ١٧٨ ، درة التنزيل : ٣٨١ ، التبيان ١٠ : ١٩٢ .

(٣) جمهرة اللغة ١ : ٢٦٩ ، الصحاح ٤ : ٤٤٦ ، المخصص ١ : ١٠٧ ، أساس البلاغة : ٤٣٠ ، لسان العرب ١ : ٢٩٧ .

فيه الأبصارُ) (١) وقال أيضاً : (واقترب َ الوَعْدُ الحق فاذا هي شاخصة أبصارُ الذين كفروا) (٢) ، لأن شخوص الأبصار ان تبقى العين مفتوحة لاتطرف (٣) .

ب - توقعهم العذاب

ومع يأس الناس من الرحمة والعفو نجد وصفاً للفزع الذي يملأ قلوبهم والشعور القوي الذي يجتاح نفوسهم بأن مصيبة عظيمة ستحل بهم ، ولكنهم يجهلونها قال الله تعالى : (كلا بل تُحبونَ العاجلةَ ، وتَذَرونَ الآخرةَ وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ الى ربّها ناظرةٌ ، ووجوهٌ يومئذٍ باسرةٌ تظنُ ان يُفْعَلَ بها فاقِرةٌ) (٤) .

فقد وصفت وجوه الكافرين بأنها باسرة . وقال المفسرون في شرحها بأن معناها انها تكون ليأسها وضعفها كالحة كريهة المنظر (٥) عابسة مقطبة (٦) ، ذلك لأنها تتوقع حلول داهية عظيمة لاتحتملها نفوسهم ، ويأتي التعبير الذي صورت به الداهية ليزيد ملامح الكافرين وضوحاً ، لأن

(١) سورة ابراهيم ١٤ : ٤٢ .

(٢) سورة الأنبياء ٢١ : ٩٧ .

(٣) جامع البيان ١٣ : ١٢٣٦ ، التبيان ٦ : ٣٠٣ .

(٤) سورة القيامة ٧٥ : ٢٠ - ٢٥ .

(٥) تنوير المقياس : ٣٧٥ ، مجاز القرآن ٢ : ٢٧٥ ، غريب القرآن : ٥١ ، جامع البيان ٢٩ : ١٩٣ ، وانظر أيضاً جمهرة اللغة ١ : ٢٥٥ ، الصحاح ٢٩ : ٥٨٩ لسان العرب : ١٢٣ .

(٦) غريب القرآن : ٥٠٠ ، جامع البيان ٣ : ٢٩٤ .

عبوس الوجوه وتقطيبها لابد أن يكون ليـأس عظيم وخوف مرعب من الداهية .

فالفاقرة التي يتوقعها المجرمون هي (شدة ومنكرة من العذاب) كما يقول ابن عباس (١) وهي الداهيـة كما فسرها معظم المفسرين ، ولكنهم اختلفوا في أصل استعمالها هل انها مشتقة من فقار الظهر كأن تكون المصيبة التي تحل بهم عظيمة تكسر ظهورهم ؟ أم انهـا من الفقر الذي هو الحز يوسم به أنف البعير ليذل ؟ .

أما الفريق الأول فقد قالوا في تفسير الآية بأن الفاقرة هي الداهية من فقار الظهر كأنها تكسره (٢) . ويلاحظ في هـذا التفسير أنه وثيق الصلة بالبيئة العربية ، ذلك لأنه من المعاني الحسية التي اهتم بها العربي ، وأولاها عنايته . فقد اهتم العربي بالحيوانات الأليفة التي شاركته بيئته متأملا صفاتها الجسدية ، مسمياً كل عضو منها . ونجد في الشعر الجاهلي صدى عميقاً لهذا الاهتمام اذ وصف الشاعر ناقته ، وتطرق الى ذكر فقار ظهرها ، والتحامها قال زهير بن أبي سلمى :

بآرزةِ الفِقارةِ لم تَخُنْها قِطافٌ في الرِكابِ ولا خِلاءٌ (٣)

الآرزة : الدانية بعضها من بعض ، والقطاف : مقاربة الخطو ، والخلاء ان تبرك فلا تبرح ، يريد انها مجتمعة الفقار ملتئمتها ، ولا ينقص خلقها شيء من العيوب كمقاربة الخطو أو البروك وعدم مبارحة الأرض . وقال

---

(١) تنوير المقياس : ٣٧٥ .

(٢) تفسير غريب القرآن ٥٠٠ ، أدب الكاتب: ٥٦ ، جمهرة اللغة ٢: ٣٩٩ غريب القرآن: ١٨٦ ، الصحاح ٢ : ٧٨٢ ، التبيان ١٠: ١٩٩ ، المفردات : ٣٩١ الكشاف ٣ : ٢٩٤ .

(٣) شرح ديوان زهير ٦٣ .

الأعشى واصفاً ناقته ، وكيف ان فقارها متلاحمة باللحم :

ودايأً تَلاحكْنَ مِثلَ الفؤو   سِ لاحمَ منها السليلُ الفِقارا (١)

ومن الطريف مايروى في هذا الباب ان اعرابياً قدم على عتبة بن أبي سفيان (٢) مشتكياً ظلامته ، وان عتبة قال له : (اني أراك اعرابياً جافياً ، فوالله ما أحسبك تدري كم تصلي في كل يوم وليلة ؟ فقال : أرأيت ان أنبأتك ذلك ان تجعل لي عليك مسألة ؟ قال : نعم . فقال الاعرابي :

ان الصلاةَ أربعٌ فاربع   ثم ثلاثٌ بعدهنَّ أربعْ

ثم صلاة الفجر لاتُضيَّعْ

فقال : صدقت ، فاسأل فقال : كم فقار ظهرك : فقال : لا أدري فقال : أفتحكم بين الناس ، وأنت تجهل هذا من نفسك ؟ فقال ردوا عليه غنيمته) (٣) ولهذا الخبر دلالة على الأمور التي كان الاعرابي يوليها اهتمامه ، حتى انه يعجب من جهل عتبة عدد فقار ظهره مع انه يحكم بين الناس وكأنَّ عدد فقار الظهر من أولى مستلزمات الرجل الحكيم ! لأن من يجهل نفسه يكون أولى بجهل أمور الناس وشؤونهم . وقال ابن الاعرابي في تحديد فقر الانسان والبعير (أقل فقر البعير ثمان عشرة ، وأكثرها احدى وعشرون الى ثلاث وعشرين ، وفقار الانسان سبع) (٤) .

---

(١) ديوان الأعشى : ٤٧ .

(٢) هو عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية أمير مصر وليها من قبل أخيه معاوية فقدمها سنة ٤٣ هـ ، حج بالناس سنة ٤١ ، ٤٢ هـ . أنظر نسب قريش : ١٢٥ ، تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٦٤ ،

(٣) الكامل للمبرد ١ : ٣١٠ - ٣١١ .

(٤) عن لسان العرب ٦ :٣٦٨. علما بأنه أصبح من الثابت في الوقت الحاضر ان عدد فقار الانسان ثلاث وثلاثون .

ومن هذا المعنى المادي قالوا عن الرجـل فِقرٌ اذا كسرت فقراته وعبر بهذا التعبير عن الضعف . قال طرفة :

واذا تـلـسُنني ألسُنهـا   انني لستُ بموهون فقرْ (١)

وقال ثعلب معلقا على البيت : (فَقِـر : مكسور الفِـقار) (٢) . فقد استعملت كلمة الفقر للدلالة على الضعف والكسل لأن من ضعفت فقرات ظهره ، ضعفت قوته وطاقاته الجسدية .

ومن هنا جاء الاستعمال المجازي لمعنى الفقر وهو الحاجة والذلة أو مايضاد الغنى فكما ان المكسور الظهر ضعيف لايقوى على السير والعمل وحـده ، ومحتاج الى المساعدة فكذلك سمي كل محتاج الى غيره بالفقير (٣) وقد وردت بهذا المعنى في اثنتي عشر آية (٤) .

فقوله سبحانه وتعالى في صفة حال المجرمين يوم القيامة (تظـنُ ان يُفْـعَل بها فاقرة) (٥) يرسم لنا صورة حسية من البيئة العربية ، وذلك ان هؤلاء المجرمين ييأسون من الرحمة ، والعفو ويوقنون بداهية عظيمة مؤلمة تحل بهم فتتركهم ذليلين ضعفاء لامعين لهم . وهـذه الداهية تقصم ظهورهم ، وتكسر فقارهم ، ويكون شأنهم في ذلك شان البعير الضعيف الذي كسرت فقاره فيذل ولا يقوى ، وهي صورة طالما شهدها العربي في بيئته وتحسس الأذى ، والذل الذي يرتسم على البعير المكسور . ويعيننا على تصور هذا

---

(١) ديوان طرفة : ٧٤ .

(٢) مجالس ثعلب ١ : ٣٢٠ ، شجـر الدر ١٦٤ ، الصحاح ٢ : ٧٨٣ ، المفردات ٣٩١ .

(٣) الكامل للمبرد ١ : ٣٤٦ .

(٤) المعجم المفهرس : ٤٢٤ ، ٥٢٥ .

(٥) سورة القيامة ٧٥ : ٢٥ .

المعنى اطلاقهم الفاقرة ، والقاصمة على الداهية (١) كأنها لشدة هولها وأذاها تقصم الظهور وتضعفها .

أما التفسير الثاني فقد ذهب بالفاقرة الى فقر الأنف ، ويمثل هذا الفريق قول أبي عبيدة ، الفاقرة الداهية وهو الوسم الذي يفقر على الأنف (٢) وهذا التفسير هو الآخر يعكس لنا صورة واضحة الملامح للبيئة العربية حيث يعتبر البعير فيها عنصراً أساسياً من عناصر البداوة في الصحراء ، تلك البيئة التي أعطت العربي خبراً تعينه على الاستفادة من هذا الحيوان ، وجعله أكثر فائدة وانقياداً لنفس صاحبه . ومن هذه الخبر فقر أنف البعير ليذل ، وينقاد بسهولة . ونجد عند القدماء أقوالا عديدة ترسم صورة الفقر والفائدة منه : في حديث عمر بن الخطاب (رض) (ثلاث من الفواقر أي الدواهي واحدتها فاقرة كأنها تحطم فقار الظهر كما يقال قاصمة الظهر ، والفقار ماوقع على أنف البعير . .) (٣) . وفي حديث الامام علي عليه السلام قوله : (من أحبنا أهل البيت فليستعد للفقر جلباباً أو تجفافاً) (٤) فالتجفاف ماجلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح وقد يلبسه الانسان أيضاً . وقد فسر هذا القول بأنه من أحبنا فليعد لفقره يوم القيامة مايجبره من الثواب ، وقيل ان يعد نفسه لفقر الدنيا والزهد فيها (٥) . أما الشريف المرتضى فانه فسر الحديث تفسيرا

(١) أنظر شرح ديوان لبيد : ٢٢٠ ، ديوان كعب بن زهير : ٢٥٩ ، شرح القصائد السبع : ١٦٤ ، أمثال العرب:٣١ ، الوحشيات ١٧٥ ، أمالي اليزيدي:٢٨ .

(٢) مجاز القران ٢ : ٢٧٨ ، أدب الكاتب : ٢٥٦ ، مجالس ثعلب ١:٢٦٨ جامع البيان ٢٩ : ١٩٤ .

(٣) لسان العرب ٦ : ٣٧١ .

(٤) أمالي المرتضى ١ : ١٨ .

(٥) ن . م .

آخر قريب الصلة بالبيئة العربيـة ، وبموضوع فقر أنف البعير الذي نحن بصدده قال : (ويمكن أن يكون في الخبر وجه ثالث تشهد بصحته اللغة وهو ان أحد وجوه معنى لفظة الفقر ان يحز أنف البعير حتى يخلص الى العظم أو قريبـاً منه ، ثم يلوى عليه حبل يـذلل بذلك الصعب يقال : فقَـره يفقُـره فـَقرا اذا فعل ذلك به ، وبعير مفقور وبه فقرة ، وكل شيء حززته واثرت فيه ، فقد فـَقـَّرتـهُ تفقيرا ، ومنه سميت الفاقرة وقيل سيف مفقر فيحمل القول على أنه عليه السلام أراد من أحبنا فليلزم نفسه ، وليخطمها وليقـدها الى الطاعات ، وليصرفنها عما تميل اليـه من الشهوات وليذللها على الصبر عما كره منها . ومشقة ما أريد منها كما يفعل بالبعير الصعب) (١) . فالشريف المرتضى حين يرجح هذا المعنى الحسي انما يستند على شواهد اللغة وكلام العرب (٢) .

أما اللغويون فقد وضحوا لنا صورة فقر أنف البعير ، ورسموا معالمها وغاياتهـا روى أبو مسحل (٣) عن أبي عبـد الرحمن بن سهل (٤) قوله : (ويقال قـَرَمتُ البعيرَ أقرُمهُ وهو ان تحِزّ جـلدة أنفه اذا كان نشيطاً مرحاً ليذل حتى يكون كهيئة العلم في أنفه ، وهو القـَرْم أي الحز في الأنف

(١) أمالي المرتضى ١ : ١٨ .

(٢) ن . م .

(٣) هو عبد الوهاب بن حريش ، أبو مسحل الهمذاني النحوي ، كان من أهل العلم بالقرآن ، ووجوه اعـرابه ، عارفاً بالعربية ، روى عنه محمد بن يحيي الكسائي كان اعرابياً قدم بغداد وافداً على الحسن بن سهل . عاش في أواخر القرن الثاني الهجري ، وأوائل الثالث . أنظر أنباه الرواة ٢ : ٢١٨ ، تاريخ بغداد ١١ : ٢٤

(٤) هو أبو عبد الرحمن أحمد بن سهل صاحب أبي عبيـد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٢ هـ ، أو سنة ٢٢٤ هـ .

والفقر مثله) (١) . وعن أبي عبيد قوله : (الفَقْر ان يُحزّ أنف البعير حتى يخلص الى العظم أو قريب منه ، ثم يُلوى عليه جرير يذلل بذلك الصعب ومنه عملت الفاقرة) (٢) . ورسم ابن الاعرابي لنا صورة فقر أنف البعير ، وكيف ان الرجل يتحكم بمرح بعيره ونشاطه اذا أراده متمهلا ، ويذله اذا كان صعباً قال : (وقد يفقر الصعب من الابل ثلاثة أفقر في خطمه فاذا أراد صاحبه ان يذله ، ويمنعه من مرحه جعل الجرير على فقره الذي يلي مشغره ، فملكه كيف شاء ، وان كان بين الصعب والذلول جعل الجرير على فقره الأوسط فتريّد في مشيته واتسع ، فاذا أراد ان ينبسط ويذهب بلا مؤنة على صاحبه جعل الجرير على فقره الأعلى فذهب كيف شاء) وقال : (اذا حُزّ أنفُ البعير حزا فذلك الفَقْر وبعير مفقور) (٣) .

ومما مر بنا تتضح لنا صورة فقر أنف البعير وعلاقتها الحسية بالبيئة العربية ، وما توحيه في نفس العربي من معاني الذلة والضعف فيكون معنى قوله تعالى : (وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ الى ربّها ناظرةٌ ، ووجوهٌ يومئذٍ باسرة تظنّ ان يُفْعَل بها فاقرة) (٤) ، ان المجرمين يوقنون بالداهية العظيمة التي ستحل عليهم وتذلهم وتضعفهم كما يذل البعير الصعب بفقر أنفه . ويُستند في هذا التفسير على دلالة الأنف في التعبير اللغوي على العزة ، والاباء ،

---

(١) النوادر : ٢ : ٤٥٤ .

(٢) المخصص ٧ . ١٥٨ ، وانظر أيضاً ١ : ٣٣ .

(٣) عن لسان العرب ٦ : ٣٧١ ، وانظر أيضاً الغريب المصنف : الورقة (٤١٠) جمهرة اللغة ٢ : ٣٩٨ ، الصحاح : ٧٨٢ ، المفردات ٣٩١ .

(٤) سورة القيامة ٧٥ : ٢٢ ـ ٢٥ .

والعظمة . وقد قال الجاحظ (الأنف هو النخوة وموضع التجبر) (١) ومن هـذا المعنى جاء قوله عز من قائل : (ان كانَ ذا مالٍ وبنين ، اذا تُتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، سنسِمُهُ على الخرطومِ) (٢) أي سنسم أنفه سمة أهل النار (٣) ، فخص الأنف بالذكر لأنه موضع التجبر ، والكبر . فالمجرمون يوم القيامة تحل عليهم داهية تذل نفوسهم وتحطم جبروتهم ، وقد وصفت هذه الداهية بأنها تفقر الأنف وتذله ، وينقلنا هذا التعبير الى صورة البعير حين يفقر أنفه ويذل ، كما ترسم لنا صورة الذلة المقترنة في الذهن العربي بالأنف الذي اذا ذل أو فقر أصاب الذل صاحبه . وتتعاون هذه الصورة مع صورة فِقار الظهر (٤) التي لها دلالتها الأخرى في الذهن العربي ، وهي القوة والصلابة ، فان كُسرت الفقار صار صاحبها ضعيفاً محتاجاً الى غيره ، ثم انها تجعلهم منقادين نحو الداعي ضعيفين لاسيطرة لهم على أنفسهم .

أنها صورة رهيبة لذل الناس يوم القيامة تتداعى فيها عدة ملامح من البيئة العربية تزيد من رسم هول الموقف ، وتوضح لنا يأس وخوفهم مما يتوقعونه من العذاب والعقاب .

---

(١) الحيوان ٣ : ٣٠٥ ، وانظر الشعر في ديوان المزرد بن ضرار : ٦١ ، ديوان الحماسة : ٢٠ ، ديوان علقمة الفحل : ٤٨ .

(٢) سورة القلم ٦٨ : ١٤ - ١٦ .

(٣) أنظر جامع البيان ٢٩ : ٢٨ ، التبيان ١٠ : ٧٨ .

(٤) ويبدو ان فقار الظهر هي الأصـل الحسي لمعاني الكلمة ، وذلك لأن شكل الحز الذي يحز به الأنف يشبه الى حد كبير فقرات الظهر ، فكأن فقر الأنف أطلق لتشابه الصورة بينه وبين فقار الظهر الأصلية .

ج - ذلتهم :

اهطاع رؤوسهم :

هناك عدة تعابير ترسم لنا ذلة الكافرين عند حشرهم من القبور ، تلك الذلة التي تبدو على هيئة رؤوسهم ، وأبصارهم الذليلة . قال الله تعالى : (ولا تحسبنَّ اللهَ غافلا عما يعمل الظالمون ، انما يؤخرهُم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصارُ مُهطعين مُقنعي رؤسِهم ، لا يرتدُ اليهم طرفُهُم ، وأفئدتهم هواء) (١) . وقال أيضاً (فتولَ عنهم يوم يدعو الداعِ الى شيءٍ نكُر ، خُشَّعا أبصارُهم يخرجون من الأجداثِ كأنَّهم جرادٌ منتِشرُ مهطعين الى الداعي يقول الكافرون هذا يوم عَسِرُ) (٢) . قال ابن عباس مفسرا اهطاع الكافرين نحو الداعي بأنهم (مسرعين قاصدين ناظرين الى الداعي) (٣) وقال أبو عبيدة : مهطعين مسرعين قال الشاعر :

بمُهْطِعٍ سُرجٍ كأنَّ زمامَهُ
في رأسِ جِذعٍ من أوال مُشَذَّبِ (٤)

وقال :

---

(١) سورة ابراهيم ١٤ : ٤٢ - ٤٣ .

(٢) سورة القمر ٥٤ : ٦ - ٨ .

(٣) تنوير المقياس : ١٦٣ : ٣٤٤ ، وانظر أيضاً اللغات في القرآن : ٥١ .

(٤) لم ينسبه أبو عبيدة وأنشده ابن بري لانيف بن جهلة مع اختلاف في الرواية أنظر لسان العرب ١٣ : ٤٢ :

بمستَهطِـعٍ رسْـلٍ كأنَّ جديلَه بقيدومِ رَعْنٍ من صؤامٍ مُمنَّعِ (١)

وقال يزيد بن مفرغ الحميري (٢) .

بدجلةَ دارهم ولقـد أراهم بدجلةَ مُهطِعينَ الى السَّماعِ (٣)

ونقل الطـبري عن ابن عباس تفسيرا آخر وهو قوله (الاهطاع : النظر من غير ان يطرف) (٤) . ومن اللغويين الذين ذهبوا هذا المذهب الخليل بن أحمد (٥) ، وآخرين ممن نقل عنهم ابن منظور (٦) .

ومما مر بنا نجد ان المفسرين ذهبوا في تفسير الاهطاع ثلاثة مذاهب وهي وان تقاربت بعضها من بعض الا ان محاولة تتبع معانيها تعطينا تفسيرا جامعاً لكل التفاسير السابقة ، كما تدلنا على صورة أخرى من صور البيئة

---

(١) الرَّسلُ : الذي لايكافلك شيئاً ، قيدوم : قدام ، ورعن الجبل : أنفه وصؤام : جبل ، والبيت من شواهد الزمخشري في أساس البلاغة: ١٠٦٢ ، ولسان العرب ١٥ : ٣٦٦ ، جامع البيان ١٣ : ٢٣٨ ، مع اختلاف في الرواية ، وعدم نسبة البيت .

(٢) هو يزيد بن مفرّغ الحميري، شاعر اموي هجاء وهو جد السيد الحميري الشاعر المعروف ، لقبه جده بالمفرّغ لأنه راهن ان يشرب عسا من لبن فشربه حتى فرغه. هجا عبيدالله بن زياد سنة ٥٩ هـ ، فحمل على حمار وطيف به في الأسواق . أنظر الشعر والشعراء ١ : ٢٧٦ ، تاريخ الامم والملوك ٦ : ١٧٨ ، الأغاني ١٦ : ٧٢

(٣) مجاز القرآن ١ : ٣٤٢ ، انظر أيضاً جامع البيان ١٣ : ٢٣٨ ، التبيان ٩ : ٤٤٦ .

(٤) جامع البيان ١٣ : ٢٣٧ ،

(٥) العين : ٣٨ .

(٦) لسان العرب ١٠ : ٢٥٨ .

العربية ، فالبعير المهطع هو الذي في عنقه تصويب خلقة (١) ، ومن هذه الخلقة التي قد يوجد عليها البعير بطبيعته جاء اطلاقهم الكلمة على البعير يصوِّب عنقه ، وينقاد لصاحبه في حالة كونه سالم الخلقة ، وليس فيه أي تصويب قال ابن فارس (أهْطَعَ البَعيرُ صوَّبَ عُنُقَهُ مُنقاداً) (٢) ، واهطع اذا مدَّ عنقَهُ وصوَّب رأسَهُ (٣) .

وواضحٌ ان هذا الاستعمال الجديد للكلمة تطور عن الصورة الحسية الأولى ، صورة البعير الذي يوجد في عنقه تصويب ومَيَل خلقة ، فاذا انقاد البعير لصاحبه ذلّ ، وظهرت ذلته في استكانته ، وميل عنقه ، ومن هنا نفهم المعنى الآخر للكلمة ، وهو اطلاقهم المُهْطع على الذليل الذي يرفع رأسه في ذل وخشوع كما يقول ثعلب (٤) . ونقل ابن منظور عنه أيضاً : (وأهْطَعَ : أقْبَلَ مُسرِعاً خائِفاً ، لايكونُ إلا مع خوفٍ ، وقيل بخضوعٍ) (٥) . قال الشاعر :

تَعَبَّدَني نَمرُ بن سعدٍ وقد أرى
ونمرُ بنُ سعدٍ لي مُطيعٌ ومُهْطِع (٦)

---

(١) جمهرة اللغة ٣ : ١٠٧ ، الصحاح ٣ : ١٣٠٧ ، المحكم ١ : ٦٢ ، أساس البلاغة ١٠٦٢ ، لسان العرب ١٠ : ٢٥١ .

(٢) مقاييس اللغة ٦ : ٥٦ .

(٣) الصحاح ٣ : ١٣٠٧ ، لسان العرب ١٠ : ٢٥١ .

(٤) مجالس ثعلب ١ : ٢٠ .

(٥) عن لسان العرب ١٠ : ٢٥١ ، وانظر أيضاً جمهرة اللغة ٣ : ١٧ .

(٦) الصحاح ٣ : ١٣٠٧ ، أساس البلاغة : ١٠٦٢ ، لسان العرب ١٠ : ٢٥١ ، والبيت غير منسوب .

وقد فسر الخليل البيت بأنه كان ذليلا لي فصار فوقي (١) .

ومن هذا المعنى نفهم تفسيراً آخر للآية الكريمة : (مُهطِعين الى الداعي يقولُ الكافرون هذا يومٌ عَسِرٌ) (٢) . أي منقادين له ذليلين ، خائفين وقد أيقنوا بما سيلاقونه من العقاب وهو معنى وضحّه لنا تعبير الفاقرة (٣) .

أما السرعة فانها معنى آخر تطور عن المعنى الحسي نفسه ، وذلك ان البعير اذا انقاد الى صاحبه ذلّ ، واستكانَ ، كما مر بنا ، وهو حين يسرع ترتسم في الذهن صورة الاهطاع الأولى ؛ لأن المسرع لابد أن يدفع عنقه ويمده الى الامام لكي يوازن بين جسمه والقوة الدافعة الى الامام ، ومن هنا قبل أهطَعَ البعير في سيره ، واستهطع اذا أسرع ، وناقة هَطعَى ، سريعة ، كما يقول الخليل (٤) .

ثم اطلق الاهطاع على السرعة مطلقة دون تقييدها بالبعير أو الانسان (٥) وبهذا يمكننا أن نفهم تفسير من قال ان الاهطاع هو اسراع الناس نحو الداعي (٦) . أما تفسير من قال ان معنى الاهطاع هو النظر من غير ان يطرف (٧) ، فنجده واضحاً أيضاً في الصورة الحسية لاهطاع البعير أو الانسان حين يندفع بسرعة الى الامام ، فان القوة الدافعة لاتتيح له مجالا لأن يلتفت

(١) العين : ٣٨ .

(٢) سورة القمر ٥٤ : ٨

(٣) أنظر ص ١١٥

(٤) عن لسان العرب ١٠ : ٢٥١ .

(٥) الخليل عن المخصص ٣ : ١٠٧ ، وانظر أيضاً الصحاح ٣ : ١٣٠٧ ، مقاييس ٦ : ٥٦ ، المحكم ١ : ٦٢ ، لسان العرب ١٠ : ٢٥١ .

(٦) انظر الفصل الثالث - ج - ذلتهم

(٧) ن . م

يميناً أو شمالا ، وانما يبقى في سرعته متجهاً بنظره الى الامام ، ومن هذه الحقيقة تطور المعنى الأخير للكلمة وهو قولهم ، المهطع المقبل ببصره على الشيء لايرفعه عنه (١) . ومما مر بنا نفهم ان اختلاف المفسرين في توجيه الآية الكريمة ليس فيه تناقض أو تنافر ، وانما نظرت كل طائفة الى الآية الكريمة من وجهة واحدة فجاء تفسيرها صورة لتلك الوجهة ، فاذا بالآية الكريمة صورة متعددة الجوانب ، متحركة الملامح ، يلمح كل مفسر جانباً منها فيرسمه لنا الا أن الجمع بينها يعطينا صورة كاملة لاهطاع الكافرين وذلتهم ، فالناس حين يبعثون يوم القيامة على صوت النفير المفزع ينقادون مسرعين ملبين الداعي ، وقد ذلت نفوسهم حين أيقنت بما ستلاقيه من العقاب والعذاب . وتظهر ذلتهم في اهطاع رؤوسهم التي تنقل لنا صورة البعير يميل برأسه ويصوبه حين يذل وينقاد لصاحبه ، أو صورته حين يفزع ويسرع في سيره مُصَوّباً عنقه الى الامام ، ثم انهم في ذلتهم ، وذهولهم لاتطرف أبصارهم وهو معنى أكده قوله تعالى في آية سبقت وصف إهطاع رؤوس الكافرين : (انما يؤخِرُهُمْ ليومٍ تشخصُ فيه الأبصار) (٢) .

اقناعهـــا :

اما اقناع رؤوسهم فقد ورد في قوله جل من قائل : (ولا تَحسَبَنَّ الله غافلا عما يَعْمَلُ الظالمون ، انما يؤَخرُهُمْ ليوم تشخصُ فيه الأبصارُ مُهْطِعينَ مُقْنِعي رؤسِهم لايرتَدُ إليهم طَرْفُهُمْ وأفئدتُهم هَواء) (٣) :

(١) العين ٣٨ ، وانظر أيضاً الصحاح ٣:١٣٠٧ ، لسان العرب ١٠:٢٥١

(٢) سورة ابراهيم ١٤ : ٤٢ .

(٣) سورة ابراهيم ١٤ : ٤٢ ـ ٤٣ .

وقد ذكر المفسرون ثلاث توجيهات للاقناع . الأول : انهم منكسو رؤوسهم ، والثاني انهم رافعو رؤوسهم ، والثالث مادو رؤوسهم . وقد ذكر ابن عباس هذه التوجيهات الثلاثة في تفسيره (١) . أما التفسير الثاني فقد ذكره أبو عبيدة في مجازه حيث قال : (مقنعي رؤوسهم مجازه رافعي رؤوسهم قال الشمّاخ :

يُباكِرْنَ العِضاة بمُقْنِعاتٍ نواجِذُهنَّ كالحِدَأ الوقيعِ

أي برؤوس مرفوعات الى العضاه ليتناولن منه) (٢) . ولم يكتف قتادة بتفسير أبي عبيدة ، انما وجد فيه صورة أكثر من رفع الرأس ، وهي الذهول والرعب الذي يجعلهم رافعي الرؤوس ، وقد شخصت أبصارهم قال : (المُقْنِعُ الذي يرفعُ رأسَهُ شاخِصاً بصَره لايَطْرفُ) (٣) .

وفي دلالات الكلمة المختلفة نجد معانٍ عديدة تكشف لنا صورة التعبير القرآني من جهة ، والبيئة العربية من جهة أخرى . ومن هذه المعاني المادية مغنى ارتبط بالابل وذلك قولهم ان الاقناع رفع الابل رأسها ، ويكون ذلك خلقة فيها (٤) . هذه الخلقة ان وجدت في بعير ما فانها لاتتيح له التحرك برأسه يميناً أو شمالا ، ويبدو أن هذا المغنى من أوائل معاني الكلمة ، وقد يكون أصلا لها .

ومن هذا الرفع الطبيعي أطلقوا كلمة المقنــع على الذي يرفع رأسه شاخصاً ببصره ، وذلك تشبيها بالصورة المادية التي رآها العربي في بيئته

(١) تنوير المقياس : ١٦٣ ، وانظر أيضاً اللغات في القرآن : ٣٢ .

(٢) مجاز القرآن ١ : ٣٤٣ ، وانظر أيضاً جامع البيان ١٣ : ٢٣٨ ، التبيان ٦ : ٣٠٣ ، والبيت في ديوان الشماخ : ٥٦ .

(٣) جامع البيان ١٣ : ٢٣٩ .

(٤) لسان العرب ١٠ : ١٧٣ .

فعممها على من رفع رأسه وشخص ببصره روى الجوهري قولهم : (اقنع رأسه اذا رفعه ، ومنه قوله تعالى مهطعين مقنعي رؤوسهم وكذلك قول رؤبة (١) .

أشْرَفَ رَوْقاهُ صَلِيفاً مُقْنِعا (٢)

ومن هذا الاستعمال المادي فهم المفسرون الآية الكريمة : (مهطعين مقنعي رؤوسهم) (٣) بأن الناس يوم القيامة حين يهبون على صيحة النفير يرفعون رؤوسهم لشدة ذهولهم وفزعهم فيكون حالهم حال البعير الذي في خلقة راسه ارتفاع ، فلا يستطيعون خفض رؤوسهم ، وتبقى أبصارهم شاخصة لهول الموقف .

أما تفسير الآية بأن الناس يكونون مادي أعناقهم ، فانه معنى متأت من استعمال مادي آخر ، وذلك قولهم أقنع البعير رأسه الى الحوض للشرب وهو مده رأسه كما يقول الأصمعي (٤) . ومن هنا قيل للذي يقبل على الشيء مقنع (٥) ، فكما ان الابل حين تقبل على الماء لتشرب منه تمد رأسها اليه لايصرفها عنه شيء فكذلك الذي يقبل على الشيء يمد رأسه تجاهه ، ولا

---

(١) هو رؤبة بن عبد الله بن رؤبة التميمي ، راجز من الفصحاء المشهورين من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية . كان أكثر مقامه في البصرة ، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة . توفي نحو ١٤٥ هـ . انظر المؤتلف والمختلف : ١٧٥ ، لسان الميزان ٢ : ٤٦٤ ، خزانة الأدب ١ : ٤٣ .

(٢) الصحاح ٣ : ١٢٧٤ .

(٣) سورة ابراهيم ١٤ : ٤٣ .

(٤) عن لسان العرب ١٠ : ١٧٣ ، وانظر أيضاً الصحاح ٣ : ١٢٨٤ ، مقاييس اللغة ٥ : ٢ .

(٥) لسان العرب ١٠ : ١٧٣ .

يصرفه الى تجاه اخر وهو الأصل الاولي الذي وضعه ابن فارس للكلمة (١).
هذا المعنى يفيـــدنا في فهم الآية الكريمة ، لان الكافرين يمدون رؤسهم ويقبلون نحو الداعي لا يرتد اليهم طرفهم .

ومن مجموع معاني الكلمة نجد ان كل التفاسير السابقة قد استندت على استعمال مادي . له دلالته على البيئه العربية . فاذا جمعنا هذه التفاسير تداعت في الذهن مشاهد عديدة من البيئة العربية ، كل مشهد منها يعطينا جانباً من صورة الكافرين الذليلة يوم القيـــامة عند سماعهم صوت النفير فيفزعون ويرفعون رؤسهم ، وتشخص أبصارهم مثلهم في ذلك مثل البعير الذي في رأسه ارتفاع خلقة فـلا يستطيع امالته ، او تحريكه ، ويقبلون نحو الداعي كما تقبل الابل نحو الماء فلا يصرفها عنه شيء ، ثم تأتي الآية بعدها : (لا يرتد اليهم طرفهم ، وافئدتهم هواء) (٢) لتبين لنـــا ان رفع الرؤس والاقبال نحو الداعي ليس بالسير الطبيعي ، انما هو إقبـــال يدفعه الفزع والهلع الذي لا مفر منـــه ، لذا لا تطرف أبصارهم ، ولا يميلون رؤسهم ، ولا يرجعون عن سيرهم الذليل نحو الداعي .

خشوع اصواتهم ، وكما بدت ذلة الكافرين في سيرهم ، فانها تجلت في طريقة كلامهم قال الله تعالى واصفاً اصواتهم بالخشوع : (ويسألونك عن الجبال فقـــل ينسفها ربي نسفاً ، فيذرها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) (٣) :
فسياق الآيات العام يوحي بالخشوع والرهبة ويضفي على مشاهد يوم القيامة صورة يتجسد فيها الخوف والفزع .

---

(١) مقايس اللغة ٥ : ٣٢ (٢) سورة ابراهيم ١٤ : ٤٢
(٣) سورة طه ٢٠ : ١٠٥ ـ ١٠٨

وقــد قال المفسرون في شرح معنى الخشوع بانه ذلة الأصوات وخضوعها قال ابن عباس : (وَخَشَعَت الاصوات ذَلَّتْ الاصوات) (١) وقال الزمخشري (سكنتْ الخلائقُ للرحمن فوصفت الاصوات بالخشوع والمعنى لأهلها) (٢) فالزمخشري يرى ان وصف الخشوع انما هو وصف للناس لا لأصواتهم ، الا اننا نجد هذا الاستعمال عند اللغويين مقترنا ايضاً بالاصوات والابصار روى الجوهري : (الخشوع ، الخضوع يقال خَشَعَ واختَشَعَ ، وَخشَعَ ببَصَرِهِ أي غَضَّه) (٣) .

فذلة الاصوات التي فسّرها المفسرون تفهم من قول اللغويين : لأن صورة من يغضّ بصره ، ولا يرفعه انمـا تعكس لنا صورة الذليل الذي لا يجرؤ على رفع رأسه . ومجابهة غيره .

وقد ورد الخشوع مقترنا بالابصار في القرآن الكريم : (فتولَّ عنهم يوم يدعُ الداعي الى شيءٍ نُكُرٍ خُشَّعاً ابصارهم يخرجون من الأجداثِ كأنهُمْ جراد مُنتَشِرٌ) (٤) . وفسر الخشوع هنا بالذلة أيضاً : (٥) فاذا عدنا إلى المعاني الحسية التي دارت حولها الكلمة وجــدنا فيها معنى حسياً تشترك فيه الابصار ، والأصوات ، والنفوس ، وذلك انها اطلقت وصفا للارض فقد قالوا : الخاشع المطمئن من الأرض (٦) . وأكمةٌ

---

(١) تنوير المقياس ١٩٨ ، وانظر ايضاً جامع البيان ١٦ : ٢١٤ . التبيان ٧ : ٢٠٩ (٢) الكشاف ٢ : ٣١٤

(٣) الصحاح ٣ : ١٢٠٤ ، وانظر ايضاً لسان العرب ٣ : ٤٢٣ ؛ المخصص ١ : ١٢١ ، اساس البلاغة ٢٣٢ ، لسان العرب ٣ : ٤٢٣

(٤) سورة القمر ٥٤ : ٦ – ٧

(٥) تنوير المقياس : ٣٣٤ الكشاف ٣ : ١٨٢

(٦) جمهرة اللغة ٢ ، ٢٢٣

خاشعة : ملتزقة لاطئة بالأرض والخاشع من الأرض الذي تثيره الرياح لسهولته فتمحو آثاره (١) . فالأرض غير المطورة تكون عديمة الفائدة يسهل السير عليها كما يسهل محو آثارها . ومن هنا فهم معنى الذلة والخضوع الذي تطورت اليه الكلمة ، وبهذا المعنى وردت في القرآن الكريم (٢) . هذا المعنى المادي نجده واضحاً في المعنوي ، لان الذليل حين يغض نظره يكاد يلصق بصره على الأرض ولا يرفعه ، امـا الاصوات فانها وصفت بالخشوع تشبيهاً لها بالأرض المطمئنة المنخفضة الموصوفة بالخشوع .

ومن هنـا نفهم قوله تعالى (وخشّعت الاصوات للرحمن فـلا تسمَع إلا همْساً) (٣) . أي ان اصوات الناس ذلت ، وسكنت الذلة أصحابها ، وخوفهم مما ينتظرهم من العذاب ، فلا يكاد يسمع لهم كلام واضح . وهو معنى اكّده تعبير الهمس الذي تبع وصف الأصوات بالخشوع .

وقد اختلف المفسرون في تفسير الهمس الذي يسمع عند سير الناس نحو الداعي ، فذهب بعضهم الى انه الوطء الخفيف كوطء الابل (٤) . وروي عن ابن عباس انه سئل عما اذا كانت العرب تعرف هـذا المعنى فاجاب : نعم ، واستشهد بقول أبي زبيد :

فباتوا ساكنين وباتَ يسري بعيرٌ كالدُجى هادٍ هَموسُ (٥)

(١) الصحاح ١ : ٣٠٧ ، اساس البلاغة : ٢٣٢ ، لسان العرب ٩ : ٤٢٤
وقد وردت بهذا المعنى في سورة فصلت ٤١ : ٣٩

(٢) انظر المعجم المفهرس : ٢٢٣

(٣) سورة طه ٢٠ : ١٠٨

(٤) تنوير المقباس : ١٩٨

(٥) مسائل نافع بن الأزرق : الورقة ٥ (ب) ، والورقة ١٢ (أ)

وعن الفرّاء ان ابن عباس تمثل أيضاً بقول الشاعر : (وهُنَّ يمْشِينَ بنا هَمِيسا) ، وهو صوت اخفاف الابل (١) .

أما الفريق الثاني فقــد فهم الهمس على انه الصوت الخفي ، قـال أبو عبيدة : (وهو مثل الركز يقال : همس اليّ بحديث أي أفضاه) (٢) والركز هو الصوت الواطيء الخفي .

ويبدو ان المعنى الأول وهو الوطء الخفي هو الأصل لمعنى الصوت الخفي . فقد قالوا أسد هموس للخفي الصوت (٣) قال الحارث بن حلزة :

أسَدٌ في اللـّقاءِ وردٌ هَموسٌ وربيعٌ إنْ شَنَّعتْ غَبراءُ (٤)

هذا الوصف للاسد صادر عن كونه يسير خفية حتى لاتنتبه اليه الفريسة قال أبو الهيـثم : (سمي الأسد هوسا ، لأنه يهمس همسا أي يمشي مشيا بخفْيـة ، فلا يسمع صوت وطئه) (٥) .

من هذا المعنى الحسي تطورت دلالة الكلمة الى معنى الصوت الخفي لأن من يهمس بكلام خفي ، انما يتوجس من أن يسمعه أحد ، كما يتوجس الأسد الهموس فى وطئه الأرض حتى لاتسمع فريسته وقع أقدامه فتفلت منه ، ومن هنا سمّى امرؤ القيس الليلة التي يُتَهجسُ فيها السير ، ويخفى

---

(١) الفراء عن لسان العرب ٨ : ١٣٧ ، والبيت في جمهرة اللغة ٣ : ٥٤ ، العمدة ١ : ١٧ ، وانظر أيضاً جامع البيان ١٦ : ٢١٤ ، التبيان ٧ : ٢٠٩ ، المفردات : ٥٦٨ ، الكشاف ٢ : ٣١٤ .

(٢) مجاز القرآن ٢ : ٢٠ ، جامع البيان ٦ : ٢١٤ ، المفردات : ٥٦٨ .

(٣) جمهرة اللغة ٣ : ٥٤ ، الصحاح ٢ : ٩٨٨ ، مقاييس اللغة ٦ : ٦٦ ، المخصص ٢ : ١٣٨ .

(٤) شرح القصائد السبع : ٤٩٦ ، وانظر ديوان جِران العود : ٥٢ .

(٥) عن لسان العرب ٨ : ١٣٨ .

وطء الأقدام فيها لهولها وشدتها بليلة الهمس .

أجدُ موثَّقةٌ كناز عرمسٌ وخـَدّادَةٌ في ليـَلة ِالهـَمْسِ (١)

لأن واطئها يخشى ان تـُسمع وقع أقدامه . أما في الآية الكريمة فاننا نرى ان المعنيين يشتركان في رسم ايحاء الهمس ، فمعنى وطء الأقدام يفهم بأن الناس يوم القيامة يكونون في رعب وخوف شديدين ، فيخشون السير لأنهم يعرفون عاقبة أمرهم ، ومع ذلك فهم مجبرون على اتباع الداعي ، ولكنهم يخففون وطء أقدامهم ، حتى لايسمع إلا صوت خفي لهم . إلا ان متابعة سياق الآيات والجو القرآني بصورة عامة يجعلنا نرجح معنى الصوت الخفي ، لأنه أوضح من معنى الوطء الخفي ، ذلك لأن التعابير القرآنية الأخرى أكدته كما مرّ بنا في تعبير خشوع الأصوات . وقد قال الله تعالى : (يومَ يـُنْفـَخُ في الصـُّورِ ، ونـَحـْشـُرُ المجرمينَ يومئذٍ زُرْقا ، يتخافتونَ بينهم إنْ لبثتم الا عـَشْرا) (٢) ، فصورة الناس الخائفين الذين يتوجسون في كلامهم فلا يـَنْبسُونَ إلا همسا وتخافتا هذه الصورة واضحة في كل الآيات الكريمة التي تعرض الى ذكر أصوات الناس وكلامهم ، كما انها تنسجم مع تصوير الحيرة والضلال الذي سنأتي الى ذكره في تعبير الزرقة (٣) . ومع ذلك نستطيع ان نفهم التفسير الأول الى جانب هذا المعنى بأنهم لخوفهم يتوجسون خيفة في سيرهم ، وطريقة كلامهم .

ومن مجموع هذه التعابير ترتسم في الذهن صور عديدة للصفات النفسية التي يكون عليها الناس يوم القيامة .

---

(١) ديوان امرىء القيس : ٢٧٣ .

(٢) سورة طه ٢٠ : ١٠٢ - ١٠٣ :

(٣) أنظر ص ١٥١ .

٣ ـ صفاتهم الجسدية (١)

أ ـ سواد وجوه المجرمين وبياض وجوه المؤمنين :

قال الله سبحانه وتعالى : (يومَ تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ ، فأما الذين اسودَّتْ وجوهُهُم : أكفَرتُمْ بعدَ إيمانِكم ؟ فذوقوا العذابُ بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضَّتْ وجوهُهُم ففي رحمةِ اللهِ هُمْ فيها خالِدون) (٢) .

لقد أجمع المفسرون على ان البياض يكون علامة المؤمنين يوم القيامة والسواد يكون سياء المجرمين (٣) . وهناك آية قرآنية أخرى تصف وجوه الكافرين بأنها لسوادها كأنما أغشيت بقطع من الليل حالكة السواد (٤) . وفي سورة عبس أضاف الله سبحانه وتعالى الى وجوه الكافرين المسوّدة غبارا ويأساً وكآبةً : (فاذا جاءتْ الصّاخّةُ ، يومَ يفِرُّ المَرءُ من أخيهِ وأمّه وأبيهِ ، وصاحبتهِ وبنيهِ ، لكلّ امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغْنيهِ وجوهٌ يومئذٍ مُسْفرةٌ ، ضاحكةٌ مُستبشِرةٌ ، ووجوه يومئذٍ عليهَا غبرةٌ

---

(١) هذا لايعني ان بحثنا هنا مقتصر على الصفات الجسدية دون النفسية ، لأننا سنجد ان كل تعبير يصف شكل الناس يصف من ناحية أخرى الصورة النفسية التي يحشرون عليها . ولكننا خصصناها هنا بهذا البحث دون الصفات النفسية ، لأنها تكاد تشكل صورة كاملة الملامح لشكل الناس عند الحشر .

(٢) سورة آل عمران ٣ : ١٠٦ ـ ١٠٧ .

(٣) جامع البيان ٤ : ٣٩ ـ ٤٠ ، التبيان ٤ : ٥٥١ ـ ٥٥٢ .

(٤) قال الله تعالى في سورة يونس ٨ : ٢٧ (كأنما أغْشيَتْ وجوهُهُم قِطعاً من الليلِ مظلما أولئك أصحابُ النارِ همْ فيها خالدون) .

ترهقُها قَتَرةٌ ، أولئك هم الكَفَرةُ الفَجَرة) (١) . فسر بعضهم معنى الآية ان وجوه الكافرين والمنافقين تعلوها كآبة ، وكسوف ، وذلة (٢) . وقال آخرون : أي يعلوها غبار (٣) . وأصل القَتَرة في اللغة هو الغبار (٤) وقيل : القترة غُبرةٌ يعلوها سواد كالدخان (٥) . ومن الاستعمال المجازي للكلمة قولهم القترة : مايغشى الوجه من الكرب (٦) ، فيكون معنى الآية الكريمة ان وجوهَ الكافرين تكون مسوّدة تعلوها كآبةٌ وذلةٌ . فاذا أضيف الغبار الى سواد الوجه اجتمعت مع الذلة كآبة وحزن . قال الزمخشري مفسراً الآية : (تَرهَقُها قَتَرةٌ ، سَوادٌ كالدُخانِ ، ولا ترى أوحشَ من اجتماعِ الغبرة والسواد في الوجه كما ترى في وجوه الزنوج اذا اغبرّت وكأنّ اللهَ عزّ وجلّ يجمع الى سواد وجوههم الغبرة كما جمعوا الفجور الى الكفر) (٧) . فنظرة الزمخشري الى الآية تمثل الوجهة الأدبية الخالصة اذ تبيّن لنا ان السواد مكروه بغيض في الذوق العربي . والغبار له دلالة على الذلة والهم والحزن (٨) . فاجتماعهما معاً يرسم صورة بشعة للكافرين يوم

(١) سورة عبس ٨٠ : ٣٣ - ٤٢ .

(٢) تنوير المقياس : ٣٨٢ ، جامع البيان ٣ : ٦٣ .

(٣) مجاز القرآن ١ : ٢٧٧ ، و٢ : ٢٨٦ ، غريب القرآن : ١٩٠ ، التبيان ١٠ : ٢٧٨ .

(٤) جمهرة اللغة ٢ : ١٢ ، الصحاح ٢ : ٧٨٥ ، مقاييس اللغة ٥ : ٥٥ ، المخصص ١٠ : ٦٧ ، لسان العرب ٦ : ٣٧٩ .

(٥) لسان العرب ٦ : ٣٧٩ .

(٦) أساس البلاغة : ٧٤٢ .

(٧) الكشاف ٣ : ٣١٤

(٨) انظر لسان العرب ٦ : ٣٠٨ ، تاج العروس ٣ : ٤٣٧

القيامة ، فاذا قارنا هذه الصورة بوجوه المؤمنين المصفرة الضاحكة تبَيَّن لنا البون الشاسع الذي قُصِدَ اظهاره بين الحالتين ، بين السواد المغبرّ والبياض المسفر .

ونجد لهذا التعبير اعظم الدلالة على الذوق العربي ، ذلك لان العرب قد أحبوا البياض ووسموا به كل ما أحبته نفوسهم ، وبغضوا السواد ووصموا به كل ما كرهته نفوسهم . فالمثل الأعلى للجمال عندهم هو البياض ، ومن هنا تغزلوا بالمرأة البيضاء الجميلة . قال امرؤ القيس :

مُهَفْهَفَةٌ بيضاءُ غيرُ مُفاضَةٍ
تَرائِبُها مصقولةٌ كالسَجَنْجَلِ (١)

وقال عمرو بن كلثوم :

على آثارِنا بِيضٌ حِسانٌ نُحاذِرُ أنْ تُقَسَّمَ او تَهونا (٢)

والأمثلة كثيرة على تغزل الشعراء بالمرأة البيضاء (٣) ، ولكن البياض الذي أحبوه ليس هو البياض الخالص ، انما هو البياض الذي تخالطه صفرة كقول امرىء القيس :

كبِكر مُقاناةِ البياضِ بصُفْرةٍ
غَذاها نميرُ الماءِ غير المحلَّلِ (٤)

فقد شبه المرأة بالدّرة ، لانها بيضاء يخالط بياضها صفرة . وذلك

---

(١) ديوان امرىء القيس : ١٥

(٢) شرح القصائد السبع : ٤٢١

(٣) شرح ديوان عنترة : ٧٣ ، ١٦١ ، ديوان النابغة الجعدي : ٤ : ٨٠ ديوان عدي بن زيد : ١٢٧

(٤) ديوان امرىء القيس : ١٦

أحسن الألوان عندهم كما يقول ابن الفقيه (١) . اما البياض الخالص فهو الذي وجدوه عند الهجناء (٢) .

ومن الطبيعي ان يميل ذوقهم الى حب البياض - وان لم يكن خالصاً - ذلك لان طبيعة بيئتهم الشديدة الحر صيفا لا تترك سحنتهم بيضاء خالصة وانما تميل بها الى السمرة . ومن هنـــا جعلوا البياض المخلوط بشيء من الصفرة هو المثل الأعلى للجمال ، ومع ذلك اكتفوا بذكر البياض في اكثر اشعارهم الغزلية .

من هذه الناحية جاءت استعارتهم البياض للتعبير عن الحق ، والشرف والرفعة ، فاذا أرادوا مدح الرجل قالوا . انه أبيض ، نقل ابن منظور عن الأزهري قوله (اذا قالت العربُ : فلانٌ أبيض ، وفلانة بيضـــاء فالمعنى َنقاء العرض من الدنس والعيوب) (٣) وقد ورد بكثرة في الشعر الجاهلي في المدح ، والرثاء .

اما السواد فقد نعتوا به كل شيء بغضته نفوسهم ، فعبروا عن الحقد بانه اسود ، ووصفوا الأكباد الحاقدة بالسواد . قال الجاحظ : (يقولون سود الاكباد يريدون العداوة) (٤) . وقال الأعشى مخاطباً ناقته :

فما أَجشَمتِ في إتيانِ َقومٍ ... ُهم الأعداءُ والأكبادُ ُسودُ (٥)

فوصف اكبادهم بالسواد ليدل على شدة عدائهم ، وبغضائهم وقال

---

(١) مختصر البلدان : ٢٩

(٢) الكامل للمبرد ٢ : ٤٦٧

(٣) عن لسان العرب ٨ : ٣٩٣ ، وانظر ايضاً نزهة العمر : ٣ ، ٤ المخصص ٢ : ١١٤

(٤) الحيوان ٣ : ٢٤٧

(٥) ديوان الأعشى : ٣٢٣

اعرابي قديم واصفاً الضغن بالسواد ايضاً :

يُزَمِّلُونَ حديثَ الضِغْنِ بينهُمُ
والضغنُ أسودُ أوْ في وجهِهِ كَلَفُ (١)

وكذلك وصفوا المصائب بالسواد ، لانها تذل القوم اذا حلت بهم وتحزنهم ، فعبروا عن الحزن والذل بالسواد ، كما عبروا عن الشرف والرفعة بالبياض . قال الشاعر الحسن بن علي القتال الباهلي (٢) :

تقولُ ابنةُ البكري لما بَدا لنا   لدى السِتْرِ منها لمةٌ وبَنانُ
أراكَ ظَلَلْتَ اليومَ اسودَ شاحباً
طريدَ دمٍ يُرمى بكَ الرجوانُ (٣)

وقال آخر :

رَمى الحدثان نسوةَ آلِ حربٍ   بمقدارٍ سَمَدْنَ له سُمودا
فَرَدَّ شُعورَهُنَّ السودَ بيضاً   وردَّ وجوهَهُنَّ البيضَ سودا (٤)

ووصفوا وجوه القوم عند الغزو بالسواد ، لانها تكون كالحة لشدة الضرب وحمي الوطيس . قال ابو زبيد الطائي :

بَدَّلَ الغزوُ أوجهَ القومِ سُودا   ولقد أبدأوا ولسن بسودِ (٥)

---

(١) العمدة ١ : ٢٥٨ ، ديوان الحماسة : ٢٥٧ ، الاشباه والنظائر : ١١٩

(٢) هو الحسن بن علي القتال الباهلي ، أحد بني جندب شاعر فارس ، ويروى انه أحدث حدثاً ، فهرب وصعد جبل يذبل فاقام به ، والفه النمر . انظر المؤتلف والمختلف : ٢٥٢ .

(٣) ن . م : ٢٥٣ .

(٤) الصناعتين : ٣١٢ ، العمدة ٢ : ٦ ، والشعر منسوب الى الكميت بن زيد في ذيل الأمالي : ١١٥ .

(٥) أمالي اليزيدي ١٢ ، وانظر أيضاً معاني الشعر : ٢٣ .

والاستعمال الأخير للسواد يعكس لنا ضوء آخر على الآية الكريمة (يوم تبيض وجوهٌ ، وتسودُّ وجوهٌ ، فأما الذين اسودَّتْ وجوهُهُم أكفرتُمْ بعدَ إيمانِكم ؟ فذوقوا العذابَ بما كُنتمْ تكفرونَ ، وأما الذين ابيضّتْ وجوهُهُم ففي رحمةِ اللهِ هُم فيها خالدون) (١) ، ذلك لأن وجوه المؤمنين تبيض لما يبدو عليها من الراحة والاطمئنان ، وتسود وجوه المجرمين لهول الموقف والمصيبة العظيمة التي تحل بهم .

وهذا التعبير القرآني المعجز يعكس لنا الذوق العربي في البياض وكرهه للسواد .

ومن هنا خلَّد الشعراء السودان الذين عاشوا بين ظهراني العرب اشعارا تُعَد غاية في الروعة في تصوير الذوق العربي ، ونظرته الى الألوان . قال عنترة بن شداد :

يَعيبونَ لَوني بالسَّوادِ وانما فعالهُم بالخُبْثِ اسود من جِلدي (٢)

فهو هنا يعكس لنا الذوق العربي الذي يعتبر السواد عيباً . وهو نفسه مقتنع بهذا الذوق متأثر به ، لأنه حين ردَّ على قولهم لايدافع عن لونه ، انما يقول ان افعالهم شنيئة كلون السواد ، فاعتبر السواد عيباً يسم به أفعالهم .

أما حين يدافع عن لون بشرته فانه يحاول ان يجد له تبريراً بأن يقول ان لون المسك أسود :

لَئِنْ أكُ أسودا فالمِسكُ لوني وما لسواد جلِدي مِنْ دَواءِ (٣)

أو ان لونه لون الليل الذي لولاه ماعرف الفجر :

---

(١) سورة آل عمران ٣ : ١٠٥ - ١٠٧ .

(٢) شرح ديوان عنترة : ٦٢ .

(٣) ن . م : ٧

يَعيبونَ لوني بالسَواد جَهالةً
ولولا سوادُ الليلِ ما طلَعَ الفَجْر (١)

أو يقول ان لون بشرته موجود في العيون السود التي أحبها العرب :

وما وَجَدَ الأعادي فيَّ عَيباً فعابوني بلونٍ في العُيونِ (٢)

وهو في كل هذا الدفاع يتجاهل نقاط الضعف في تبريره ، وان طيب المسك لم يأت من لونه ، وانما من عطره . وكذا الحال مع العيون السود التي ما أحبها العرب الا لاجتماع السواد والبياض فيها معا .

أما سُحَيمُ عبدُ بني الحسحاس المشهور ، فانه يتألم غاية الألم فصاحبته لاتُعيره أدنى التفات لأن ملابسه رثة ، ولأنه عبد أسود :

رَأتْ قَتَباً رثّاً وسُحْقَ عمامةٍ وأسودَ مما يملكُ الناسُ عاريا (٣)

ونراه يتألم من لونه الأسود ، وانه لاذنب له إذ كانت أمه عبدة ، فولدته على هذا اللون البغيض :

فلو كنتُ وَرْداً لونُه لعَشقْتني ولكنَّ رَبي شانَني بسَواديا (٤)

ويلاحظ في الشطر الثاني رسوخ فكرة اعتبار السواد عيباً حتى في ذهن سُحيم العبد الأسود ولكنه مع ذلك يحاول ان يجد لسواده تبريراً كما فعل عنترة من قبل (٥) .

ولنا ان نتساءل عن سر حب الذوق العربي للبياض ، وتشاؤمه وكرهه

---

(١) شرح ديوان عنترة : ٨٩ .

(٢) ن . م : ١٨٢ .

(٣) ديوان سحيم : ٨٤ .

(٤) ن . م : ٢٤ .

(٥) ن . م : ٥٤ ، وانظر أيضاً الفاضل : ٣٣ ، أمالي القالي ٢ : ١٨٨ ، ذيل الأمالي : ١٢٧ ، المخصص ٢ : ١٠٤ .

للسواد . فاذا تطلعنا الى البيئة العربية وجدنا فيها ضالتنا ، ذلك لأنها صحراء مترامية الأطراف ، مليئة بالمفاجئات خاصة في الليل ، سواء من قبل الغارات المفاجئة ، أو من قبل حيوانات مختلفة ملأت الصحراء الواسعة . فأحبوا النور لأنه ينير لهم حندس لياليهم المظلمة . وكانت الليالي التي يطل فيها البدر من أجمل لياليهم يستعينون بها على عدوهم ، ويعرفون طريقهم بأمان من الحيوانات والحشرات . ومن هنا شبهوا المرأة والممدوح بالشمس تارة (١) والبدر تارة أخرى (٢) .

وبالاضافة الى هذه الأسباب التي كرّهت لهم السواد فقد وجدت في بيئتهم حيوانات شرسة مؤلمة طالما آذت البدوي فعرفها ، وترسم معالمها ، وكان بعضها أسود اللون فاقترن البغض للسواد بهذه الدلالة . ووصفوا الموت بالأسود والأحمر ، لأنه مأخوذ من لون الأسد . كما قال أبو عبيدة (٣) وعرفوا من الحيات الاسود (٤) ، ووجدوا فيه أذى وشراً واضحاً ، فاذا أرادوا تشبيه عدوهم شبهوه به : والكلاب السود أكثرها عقورا وأذى (٥) أما الغراب فأمره مشهور عند العرب ، وقد تشاءموا منه ، وكرهوه . ذكر الجاحظ تعليلا لهذا التشاؤم بقوله : (والغراب لسواده ان كان أسود ، ولاختلاف لونه ان كان أبقع ، ولأنه غريب يقطع اليهم ، ولأنه لايوجد

---

(١) جمهرة أشعار العرب : ٧٨ ، شرح القصائد السبع : ١٤٦ .

(٢) ديوان جران العود : ٢٦ ، ديوان الشماخ : ٧٣ ، شرح ديوان عنترة ٥ ، ١٦٨ ، شرح القصائد السبع : ٤٣٩ ، الأشباه والنظائر ١١٠ ، ١٥٦ .

(٣) المخصص ٦ : ١٢٣ .

(٤) الصحاح ١ : ٤٨٨ ، مقاييس اللغة ٣ : ١١٤ .

(٥) الحيوان ٢ : ٧٨ ، ٣٦٧ .

في موضع خيامهم يتقمم إلا عند مباينتهم لمساكنهم ومزايلتهم لدورهم) (١)

كل هذه الامور اجتمعت لترسم في الذهن العربي صورتين : البياض ومعه الجمال والسكينة والشرف ، وصورة السواد ومعه الذل والأذى والتشاؤم وقد انعكس هذا الذوق في أساطيرهم وقصصهم ، فقال ان نوحاً غضب على ابنه حام ، فدعا عليه بالتشويه فكان سواده (٢) . ولم ترد هذه الفكرة في القــرآن الكريم إلا ان ذكر السواد والبياض ورد فيه تصويرا للذوق العربي . أما في التوراة فقد ذكر ان نوحاً دعا على ابنه حام كنعان ان يكون عبد العبيد لاخوته (٣) ، وبهذا نستطيع ان نتصور مدى رسوخ كراهية اللون الأسود في الذهن العربي ، حتى تصوروه من علائم التشويه والعقاب ! ولم يفهموا ان السواد من أثر البيئة الا عند بعض القدماء (٤) .

من هــذه الابواب الواسعة جاء التعبير القرآني المعجز معبراً عن الذوق العربي الراسخ :

(يومَ تَبيَضُّ وجوهٌ . وتَسوَدُّ وجوهٌ ، فأما الذينَ اسودَّتْ وجوهُهم : أكفرتمُ بعدَ إيمانِكم ؟ فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرونَ وأما الذينَ ابيضَّتْ وجوهُهم ففي رحمةِ الله هُمْ فيها خالدون) (٥)

---

(١) الحيوان ٣ : ٤٣٨ ، ٣١٤ ، المعــاني الكبير ١ : ٢٦٢ ، ديوان النابغة الذبياني : ٣٨ ، ديوان علقمة الفحل : ٦٧ ، ديوان الشماخ : ٦٣ .

(٢) المعارف : ٢٦ ، أخبار الزمان : ٦٣ ، آثار البلاد : ٢٢ .

(٣) الكتاب المقدس : سفر التكوين ، الأصحاح ٩ : ١٥ .

(٤) الحيوان ٤ : ٧٠ ، فخر السودان : رسائل الجاحظ ١ : ٢١٩ ، الأعلاق النفيسة : ١٠١ ، ١٠٢ ، مختصر البلدان : ١٥٢ ، مقدمة ابن خلدون : ٤١ ، آثار البلاد : ٢٢ .

(٥) سورة آل عمران ٣ : ١٠٦ ـ ١٠٧

ولا يمكن ان يفهم مما مر بنـا ان التعبير القرآني حين جعل البياض سمة للمنزلة العالية ، والفرحة التي يشعر بها المؤمنون ، اقول لا يمكن ان يفهم منـه نظرة تعصبية ، او فكرة عنصرية في المفاضلة بين السواد والبياض ذلك لأن رأي الاسلام في هـذا الموضوع واضح معروف تُلخصُه الآية الكريمة : (إن أكرَمكُم عندَ اللهِ أتقاكمُ) (١) : وانه لافضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى (٢) . كما يقول الرسول الكريم ، اذ لا عنصرية في الاسلام إلا ان التعبير القرآني هنا عكس لنا الذوق العربي الذي فضل اللون الأبيض ، واضفاه على كل ما تحبه نفسه ، وترتضيه ، وكره السواد في الوجوه وتشاءم منـه فوصف به كل ما كرهه ، وآذاه ، فجاء التعبير القرآني في وصف حال الناس يوم القيامـة فتتداعى في الذهن كل الصور التي يوحيها تعبير السواد من دلالة البشاعة ، والبغض ، اما البياض فتتداعى معه كل معاني الشرف ، والرفعة التي يكون عليها المؤمنون يوم القيامة . وبالمقارنة بين الصورتين يتجلى الفرق الشاسع بين منزلة الكافرين والمؤمنين يوم القيامة وكيف ان فريق المشركين يحشر بابشع صورة وأذلها وبعكسهم فريق المؤمنين يحشرون باجمل صورة ، وقد ملات الطمأنينة نفوسهم واعطاهم الله المكانة الحسنة .

ب ـ حشر المجرمين زرقا :

قال الله تعالى : (مَنْ أعرضَ عنـه فانهُ يَحمِلُ يومَ القيامةِ وِزْرا ، خالدينَ فيه وساءَ لهم يومَ القيامة حِملا ، يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ ، ونَحشُرُ المجرمينَ يومئذٍ زُرْقا يتخافتون بينهم إنْ لبثتُم

(١) سورة الحجرات ٤٩ : ١٣

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٣٣

إلا َعشْرا) (١) .

فتعبير الزرقة في الآيات الكريمة السابقة ُفسِّر على عـــدة أوجه . فسره ثعلب على معنى العطاش (٢) . اما الطبري فقد نقل توجيها لتفسير تعبير الزرقة بالعطش ، بان شدة العطش الذي يصيب المجرمين يوم القيامة يجعل عيونهم زرقا ، قال : (قيل عني بالزُرْق في هذا الموضوع مايظهر في أعينهم من شدة العطش الذي يكون بهم عند الحشر لرأى العين من الزَرِقِ) (٣) . والى هذا ذهب ابن ِسيدة في توجيه تفسير ثعلب بقوله : (وعندي إن هـذا ليس على القصد الأول ، انمـا معناه ازرّقتْ اعينهم من شدة العطش) (٤) . ومع ان هناك اية قرآنية كريمة تصف سوق المجرمين عطاشا يوم القيامة (٥) ، فان سياق الآيات العـــام الذي وردت فيه الزرقة لا نجد فيه اشارة الى ذكر المـاء ، أو التعذيب بالعطش والدي يفيدُنا في هـــذا التفسير هو التأثير القوي للبيئة العربية على الذهن العربي حتى صار يفسر بالعطش المعاني التي قـد تبدو بعيدة عنـه لشدة ما عانوا من حرمانهم الماء في البيئة الصحراوية (٦) .

وذكر الخايل تفسيراً آخر لمعنى الزرقة وهو العمى قال : (يريد

(١) سورة طه ٢٠ : ١٠٠ ـ ١٠٣

(٢) مجالس ثعلب ٢ : ٣٦٧ ، وانظر ايضاً ١ : ٣٢٤ ، لسان العرب ١٢ : ٤

(٣) جامع البيان ١٦ : ٢١٠ ، التبيان ٧ : ٢٠٦

(٤) عن لسان العرب ١٢ : ٤ ، وانظر ايضاً تاج العروس ٦ : ٣٦٨

(٥) سورة مريم ١٩ : ٨٦

(٦) انظر الفصل الخامس ـ ٥ ـ شراب اهل النار ، والفصل السادس الجنة ـ ب ـ انهارها وشرابها .

عميا لا يبصرون وعيونهم في المنطق زرق لانور لها) (١) . وكذا قال الطبري وغيره من المفسرين (٢) . اما ابن منظور فقد نقل تعليلا لتسمية العمى بالزرقة بقوله : (وانما قيل زرقاً لان السواد يزرّق اذا ذهبت نواظرهم) (٣) .

وربما جاء تفسير الزرقة بالعمى من الظاهرة التي قد تعرض للعين حين تمرض بما يسمى بالماء ، والذي هو في حقيقته كما يقول حنين بن اسحق : (رطوبة غليظة تجمد في ثقب الحدقة فتحجز بين الجليدية وبين الاتصال بالنور الخارج) (٤) . والوان هذا اللون مختلفة فمنها الأخضر والأسود ، والأبلق ، والأزرق (٥) . ومن هنا عُدَّ الزُرقُ ضمن أهل العاهات فقال ابن قتيبة معدداً من عرف بها من البرص والعرج والصُم والجدع والجذمى والحول والزرق والعور (٦) . ويبدو انهم لا يقصدون العيون الزرقاء بهذه العاهة انما المراد به مرض الزرق الذي هو ضرب من العمى ، والذي اذا عرض للعين اختفى سوادها وغلب البياض عليها (٧) .

---

(١) العين : الورقة (٣٧)

(٢) جامع البيان ٢٦ : ٢١٠ ، وانظر ايضاً تفسير فرات الكوفي : ١٧٢

(٣) الظاهر ان هذا القول هو للزجاج فقد نقله ابن منظور عقب كلام الزجاج في تفسير الزرق بالعمى. انظر لسان العرب ١٢ : ٤ ، وانظر ايضاً جمهرة اللغة ٢ : ٣٢٤ ، المفردات ٢١١ ، الكشاف ٢ : ٣٢٤

(٤) العشر مقالات : ١٤١

(٥) ن . م . وانظر ايضاً الحاوى في الطب ٢ : ٤١

(٦) انظر المعارف ٤ ، ٥ ، ٥٨٥ فما بعدها وانظر الاعلاق النفيسة ٢٢٣

(٧) وبهذا المعنى وردت في القرآن الكريم بقوله تعالى (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) سورة يوسف ١٢ : ٨٤

وواضح ان بين البياض والزرقة تقارب في اللون .

واذا تتبعنا الجو القرآني بصورة عامة ، وجدناه يسند تفسير الزرقة بالعمى ، فقد قال الله تعالى في صدد الحديث عن الانبياء ان الأمة التي تضل طريقها ، ولاتهتدي ، فانها قد عمت او تعامت عن حقيقة النبوة حتى اذا انتهى سرد القصص والمواعظ جـاء الوعيد بحشر الضالين عميا يوم القيامة ، كما ضلوا عن الهداية في الحياة الدنيا : (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرةِ أعمى واضل سبيلا) (١) . وقال ايضاً (ومن أعرضَ عن ذكري فان له معيشةً ضَنكا . ونَحشُرهُ يومَ القيامةِ أعمى قال : ربي لم حَشَرتَني أعمى وقـد كنتُ بصيرا ؟ قال : كذلك أتتك آياتُنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى) (٢) . ويبدو انه سبحانه وتعالى لايريد بهذه الآيات الكريمة العمى الحقيقي ، وانما هو اظهار حالة الذل التي يحشرون عليها ، وانهم عمي عن نعم الله وثوابه كما كانوا عميا عن الحقيقة والهدى في الحياة الدنيا (٣) . اما سياق الآيات العـام فانه يساعدنا على تصور معنى العمى : (يومَ يُنفخ في الصـّور ونَحشُرُ المجرمينَ يومئذٍ زُرقا

(١) سورة الاسراء ١٧ : ٧٢

(٢) سورة طه ٢٠ : ١٢٤ ــ ١٢٦

(٣) انظر تفسير العمى في تنوير المقياس : ١٨٠ ، رسالة في المعاد ، رسائل الجاحظ ١ : ٩٩ ، جامع البيان ١٥ : ١٢٨ ، تفسير التستري ٣٨ ، تنزيه القرآن : ٢٠٦ ، حقائق التأويل ٥ : ٢٩ ، متشابهات القرآن ٢ : ١٠٥ وفي المسائل المنثورة ان الله سبحانه وتعالى يبعث الناس على صورهم فمن كان في دنياه أعمى بعث كذلك ، وكذلك الأبكم والأخرس فكل يبعث ويحشر على ما كان انظر مسائل منثورة : الورقة (١٥) والأرجح تفسير العمى بالمعنى المجازي لا الحقيقي كما هو مثبت اعلاه .

يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا ، نحن أعلم بما يقولون إذ يقول امثلهم طريقة ان لبثتم الا يوماً ، ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا ، فيذرها قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، يومئذ يتبعون الداعي لا عوج وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا) (١) . فالمجرمون فى رعب شديد وذهول عظيم أودى بعقولهم وابصارهم ، وقد تبعوا الداعي مسرعين يريدون ان يتساءلوا ولكن هول الموقف يحول دون ذلك ، فيخشون السؤال ، ويكتفون بالهمس والتخافت على عادة العمى حين يتحرجون من الكلام بصوت مرتفع ، ولفظة التخافت تزيد من رسم الصورة لانها تشير الى ان صاحبها يتوجس خيفة من انكشاف سره (٢) .

وإذا عدنا الى البيئة العربية نتلمس فيها الذوق الغربي ونظرته تجاه اللون الأزرق فاننا سنجد في الآية الكريمة تصويراً رائعاً لهذا الذوق وما توحيه الزرقة من معانٍ عديدة تساعد كلها على تبشيع الصورة التي يحشر عليها المجرمون . واول من وصلتنا اشارته الى هذه الوجهة في التفسير هو الزمخشري بقوله : (وقيل في الزرق قولان : احدهما ان الزرقة أبغض شيء من الوان العيون الى العرب ، لان الروم اعداؤهم ، وهم زرق العيون ، ولذلك قالوا في صفة العدو : اسود الكبد ، اصهب السبال ازرق العين . والثاني ان المراد العمى) (٣) ،

فتفسير الزمخشري هنا مستمد من الناحية الفنية التي ينظر فيها أول ما ينظر الى الذوق العربي والأفكار التي آمن بها .

---

(١) سورة طه ٢٠ : ١٠٢ — ١٠٨

(٢) انظر معنى التخافت في سورة القلم ٦٨ : ٢٣

(٣) الكشاف ٢ : ٣١٣

لقد بغض العرب الزرقة وتشاءموا منها ، وهجوا من كانت صفته عليها قال الجاحظ : (وفي الجملة لا يتيمنون بالبكر الذكر ، فان كان البكر ابن بكر تشاءموا به ، فان كان البكر ابن بكرين فهو في الشؤم مثل قيس بن زهير والبسوس فان قيساً كان أزرق وبكرا ابن بكر .

ولا احفظ شأن البسوس حفظاً اجزم عليه) (١) . وفي رواية نقلها الجاحظ ايضاً ان معاوية عيَّر صحار العبــدي (٢) . بالزرقة فقال له : يا أحمرا ! قال : والذهب احمرا ، قال يا أزرق ! قال : والبازي أزرق) (٣) . فصحار هنا لم يدفع عن نفسه عيب الزرقة ، وانما قرنها بالبازي : وهو طائر من الجوارح ، ليبعد عن نفسه ما تدل عليه الزرقة من معاني الشؤم والحسد واللؤم .

وربما جاء بغضهم للزرقة ان الذوق العربي لم يعتد إلا العيون الحور كما وردت في الشعر ، وتغزلوا بالعيون السود وشبهوها بعيون المها (٤) . ومن هنا لم يستسيغوا العيون الزرق لانها قليلة في البيئة العربية ، دخيلة على الذوق العربي .

وهناك سبب آخر قد يعلل لنا الذوق العربي تجاه الزرقة : وهو انها

---

(١) الحيوان ٣ : ١٧٤

(٢) هو صحار بن عياش او عباس بن شراحبيل بن منقذ العبدي خطيب مفوه كان من شيعة عثمان وقـد طالب بدمه بعد مقتله ، وشهد صفين مع معاوية وسكن البصرة ومات فيها نحو سنة ٤٠ هـ . انظر المحبر: ٢٩٤ ، الاصابة ٢: ١٧٠ فما بعدها .

(٣) الحيوان ٤ : ٢٣٠ وانظر ايضاً الاصابة ٢ : ١٧٠

(٤) ديوان جران العود : ١١ ، ديوان علقمة الفحل : ٤٢

قـد اقترنت بالأعاجم وخاصة الروم كما ذهب الزمخشري من قبل (١) ، فكرهت لأنها تذكرهم بلون اعدائهم . وقد وردت الزرقة في الحديث النبوي دالة على البغض ، وعدم الارتياح ففي وصفه (ص) للمنكر والنكير انهما أسودان أزرقان (٢) . ولم ترد صفة الملكين في صحيح البخاري الا ان القسطلاني في شرحه الحديث النبوي بيّن الحكمة من اجتماع الزرقة والسواد في الملكين ، وانها لتبشيع صورتهما قال : (وانما صورا كذلك ليخاف الكافر ، ويتحير في الجواب ، وأما المؤمن فيثبته الله بالقول الثابت فلا يخاف) (٣) . وفي حديث الأسراء ان الرسول (ص) كان يرى أشخاصاً مختلفين فيسأل جبريل فيخبره عن أسمائهم ، وأحوالهم ، وذكر أنه رأى رجلا أحمر أزرق جعدا شعثا فسأل عنه فقيل انه عاقر الناقة (٤) . وفي حديث آخر انه (ص) وصف عيني رجل أزرق بأنهما عينا شيطان وانه قال لأصحابه : (يجيئكم رجل ينظر اليكم بعيني شيطان ، فاذا رأيتموه فلا تكلموه ، فجاء رجل ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم دعاه . . .) (٥) .

ففي هذه الأحاديث النبوية الشريفة تتبين لنا صورة الزرقة في الذهن العربي ، ومدى بغضه ونفوره منها ، فهي لون عيون المنكر والنكير ، وعاقر الناقة ، وأخيراً المنافق الذي وصف الرسول (ص) عينيه بعيني شيطان .

أما اطلاق الزرقة على الأعاجم فقد وردت في شعر الأعشى مادحا النعمان بن المنذر حيث قارن جوده بجود جدول يسقي النبيط منه ديارهم

---

(١) الكشاف ٢ : ٣١٣ .

(٢) الجامع الصحيح ٣ : ٣٨٣ .

(٣) ارشاد الساري ٢ : ٣٧٩ .

(٤) مسند الامام أحمد ١ : ٢٥٧ ، وانظر أيضاً جمهرة أشعار العرب : ١٤ .

(٥) مسند الامام أحمد ١ : ٥٧ ، وانظر أيضاً تاج العروس ٦ : ٣٦٨ .

وقد وصف النبيط بالزرق .

ويُروي النّبيطُ الزُرقُ من حَجَراتِه

دياراً تُروّى بالأتيّ المُعَمَّدِ (١)

وقال في قصيدة أخرى يصف زيارته لحانة ويذكر ساقيها :

تَنَخَّلَهَا من بكارِ القِطافِ أزيْرقُ آمِنُ إكسادِها (٢)

فالخمار هنا أعجمي ، والأعشى لم يصرح بذلك ، وانما اكتفى بوصفه أزيرقا على عادة العرب في اطلاق الزرقة على الأعاجم . وفي الشعر الذي قيل في رثاء عمر بن الخطاب ، والذي ينسب الى الشماخ ، ورد وصف قاتل عمر - وهو أعجمي - ، بأنه أزرق قال :

وما كنتُ أخشى ان تكون وفاتُهُ

بكفّي سبنتى أزرقِ العينِ مُطرفِ (٣)

ولا يراد بهذا القول كون قاتل عمر أزرق لون العين حقيقة ، انما يراد به الدلالة على كونه أعجمياً . وقال ذو الرمة هاجيا قوما بأنهم زرق العيون لايؤمن جارهم لأنهم يسرقونه :

زرْقَ العيونِ اذا جاورتهم سَرقوا

مايسرِقُ العبدُ أو نا بأتَهُمْ كذبوا (٤)

ونجد هذه الفكرة نفسها في الغزل أيضاً روى ابن قتيبة :

---

(١) ديوان الأعشى :١٩٣ ، والآتي : جدول تؤتيه الى أرضك ، والمعمد من عمد السيل اذا سد وجهه بتراب .

(٢) ن . م : ٦٩ ، تنخلها : تخيرها ، بكار القطاف ، من أول مايقطف .

(٣) الأغاني ٨ : ٩٨ ، وتروى لأخيه المزرد ، انطر الحماسة البصرية الورقة ١٠٧ (أ) .

(٤) ديوان شعر ذي الرمة : ٣٦ .

يقـولونَ نصرانيـة أمُّ خالـدٍ
فقلتُ دَعُوها كلُّ نَفْسٍ ودينها

فان تكُ نصرانيـةً أمُّ خالـدٍ
فقـد صُوِّرَتْ في صُورة لاتشينهـا

أحبك إنْ قالوا بعينيـكِ زُرقةٌ
كذاكَ عِتاقُ الطيرِ زُرْقاً عُيونُها (١)

فالشاعر هنا يبرر حبه ام خالد مع كونها زرقاء العين بأن يوجه الانظار الى زرقة عتاق الطير ، وهو تبرير يذكرنا بتبرير عنترة لسواده . فالناس هنا يعيبون على الشاعر حبه امرأة زرقاء العين وهو يحاول ان يبرر حبه ويدافع عن زرقة عينيها :

ولما لم يستسغ العرب زرقة العيون ، وقرنوها بعيون أعدائهم ، فقد أطلقوا الزرقة على معان عديدة تمثل كلها الشر والبغض كالحسد ، واللؤم ، والطمع وقد عبروا عن اللؤم بالزرقة وقالوا عن اللئيم انه أزرق العين . قال سُوَيد

(١) عيون الأخبار ٤ : ٥٨ ، والأبيات لم ينسبها ابن قتيبة ، إلا ان هناك أبياتا للفرزدق من نفس البحر والقافية ورد فيها ذكر ام خالد وهي ام خالد القسري الذي هجاه الفرزدق ، منها قوله :

رَجَوْنا هُداهُ لاهدى الله خالداً فما أمُهُ بالأمِ يُهدى جنينُها

انظر ديوان الفرزدق : ٣٣٤ ، الأغاني ١٩ : ٦١ ، إلا ان الأبيات التي رواها ابن قتيبة لاتوجد ضمن أشعاره ، فان كانت له ولم تصلنا في أشعاره فيمكن أن تؤول بالهجاء في معرض الغزل وان كانت من أشعار المحدثين فانها تكون أدل على الذوق العربي ، ذلك لأن الأذواق قد تبدلت في العصر العباسي لاختلاط العرب بالأعاجم ، ومع ذلك فان هناك من يعيب عليه حبه امرأة زرقاء العين وفي كلا الحالتين تعكس لنا الأبيات صورة واضحة للذوق العربي تجاه الزرقة .

ابن أبي كاهل :

لقد زَرِقَتْ عيناكَ ياابنَ مُكَعْبَرٍ
كما كلُّ ضبيٍّ من اللُؤمِ أزْرَقُ (١)

والبيت الذي يليه يبين ان ذكر الزرقة هنا جاء في معرض الذم ، والهجاء قال :

ترى اللُؤمَ فيهم لائحاً في وجوهِهِمْ
كما لاحَ في وَجْهِ الحلائبِ أبْلَقُ (٢)

وعن الفرزدق انه اعتبر هذين البيتين مما حطّ من قدر ضَبّة وأخزاها (٣) : وفي شعر الأعشى ذكرت زرقة العيون حين يكون الناس في جوع ، وخصاصة وذلك انه قال مادحاً :

كذلكَ فافعَلْ ماحييت اذا شَتَوْا
واقدِمْ اذا ما أعينُ الناسِ تَزْرَقُ (٤)

فالذي فسر قوله تعالى : (ونَحْشُرُ المجرمينَ يومئذٍ زُرْقا) (٥) ، بأن المجرمين تَزْرقُ أعينهم من شدة العطش قريب من قول الأعشى حين ذكر زرقة العين وقت الجوع ، لأن الانسان حين يضعف وتهزل قوته يبدو ضعفه على وجهه وعينيه اذ يختفي سوادها ويغلب عليها البياض .

والعيون الزرق حسودة لايؤتمن شرها قال بشار بن برد متغزلا بصاحبته :

---

(١) مجالس ثعلب ٢:٣٦٧ ، عيون الأخبار ٢ :٢١٤ ، جمهرة اللغة ٢:٣٢٤ الصحاح ٤ : ١٤٨٩ ، المخصص ٥ : ٣٣٢ .

(٢) الأغاني ١٩ : ٤٩ .

(٣) ن . م .

(٤) تاج العروس ٦ : ٣٦٧ ، وفي رواية الديوان تبرق أنظر الديوان : ٣٣

(٥) سورة طه ٢٠ : ١٠٢ .

تَراخَتْ في النَعيمِ فلمْ تَنَلْها   حواسِدُ أعينِ الزرقِ القِباحِ (١)

وقول بشار له دلالته ، لأنه كان أعمى يوم المجالس ـ خاصة مجالس النساء ـ فكل مايذكره ويصوره في شعره انما جاءه عن طريق السماع ، ثم انه كان عربي الثقافة ، خبيرا بالذوق العربي ، فوصفه للعيون الزرق بأنها حاسدة له دلالة على نظرة المجتمع الى العيون الزرق . ولبشار بيت آخر يذكر فيه الزرقة على انها مما تمجها الأذواق وذلك في وصفه البخيل :

وللبَخيلِ على أموالِهِ علل   زُرقُ العيونِ عليهاأوجهٌ سودُ (٢)

فسواد اللون غير مستساغ في الذوق العربي كما مر بنا (٣) . فاذا اجتمع السواد مع عيون غير محببة وهي الزرق ، فان الوجه يكون أبشع مما يتصوره الذهن العربي . وبشار لم ير الزرقة ، كما لم ير اجتماعها بالسواد ، ولكنه تخيل هذه الصورة غير المقبولة في الذوق العربي ليشنع علل البخيل على أمواله مستمداً ذلك مما عرفه عن الذوق العربي .

وهكذا اقترنت الزرقة بمعانٍ نفسية بغيضة . أما من الناحية المادية فانها اقترنت بعدة صور تزيد من موحيات الزرقة في الآية الكريمة . أما الذباب الأزرق فهو أشدها أذى وايلاما (٤) ، ولون عيون كلاب الصيد

---

(١) ديوان بشار ٢ : ١١٤ .

(٢) ديوان بشار بن برد ٣ : ١٢٨ ، وقد أخذ هذا المعنى مسلم بن الوليد ، وان لم يبلغ جودة بشار في شعره قال :

اذا سيلَ عُرفا كسا وجهَهُ   ثياباً من البخلِ زُرقا وسُودا

أنظر الصناعتين : ٤٠٠ .

(٣) أنظر ص ١٣٩ فما بعدها .

(٤) الاشتقاق مجلة المجمع العلمي العربي . دمشق م ٢٨ ج ٤ : ٥٧١ ، الغريب المصنف : الورقة (١٧٦) ، الحيوان ٣ : ٣٩٠ ، أدب الكاتب : ٢١٥ ، مجالس ثعلب ١ : ٦٧ ، المؤتلف والمختلف : ٢٦٠ .

الشرسة زرقاء (١) :

وهكذا تتبين لنا المعاني المتعددة التي توحيها كلمة الزرقة ، وكيف انها اقترنت بمعان يبغضها الفكر العربي . وتتداعى هذه المعاني كلها فترتسم في الذهن عند قراءة قوله تعالى : (ونَحْشُرُ المجرمين يومئذ زُرْقا) (٢) فالمجرمون يوم القيامة عمي عن الحقيقة ، ضالون عن الطريق الصحيح . وعبر عن هذا المعنى بتعبير تتداعى فيه معاني اللؤم ، والبغض ، والبشاعة . وتتجمع هذه الصور البشعة لزرقة الكافرين مع سواد الوجوه البغيض ، لتكوّن صورة واضحة لوصف الكافرين يوم القيامة ، وتقابل هذه الصورة بصورة المؤمنين المستبشرة وجوههم الفرحة بساعة اللقاء والثواب .

ج - اشراق وجوه المؤمنين

في صفة وجوه الكافرين والمؤمنين نجد تصويراً رائعاً لسمات الحزن والفرح التي تكتسي بها وجوه الناس يوم القيامة . وقد مرت بنا صور اليأس والكآبة التي رسمتها الآيات الكريمة لحال وجوه المجرمين يوم القيامة على حين وصفت وجوه المؤمنين بأنها مشرقة مستبشرة : (وجوهٌ يومئذٍ مُسْفِرة ضاحكةٌ مُسْتَبشرة ، ووجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرة ، تَرْهَقُها قَتَرةٌ) (٣) ، وقال تعالى أيضاً : (كلاَّ بلْ تُحِبون العاجلةَ ، وتَذرونَ الآخرةَ ، وجوهٌ يومئذٍ ناضِرةٌ الى ربِّها ناظِرةٌ ، ووجوهٌ يومئذٍ

(١) ديوان امرىء القيس : ١٠٣ ، المؤتلف والمختلف : ٦٧ .

(٢) سورة طه ٢٠ : ١٠٢ .

(٣) سورة عبس ٨٠ : ٣٨ - ٤١ .

باسِرةٌ ، تَظِنُ ان يفْعَلَ بهـا فاقرة) (١) ، في هذه الآيات الكريمـة نجد صورتين مختلفتين ، صورة المؤمنين المستبشرين ، وهم يتأملون نعم ربهم ورضاه ، وصورة الكافرين ، وقد راعهم هول الموقف ، يتوقعون العذاب والعقاب .

فالمؤمنون وجوههم نضرة ، ونقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه حين تلا قوله تعالى : (وجوهٌ يومئذٍ ناضِرةٌ) (٢) ، قال بالبياض والصفاء (٣) ، أما ابن عباس فقــد قال ان معناها : (حَسَنَةٌ جميلةٌ ناعمةٌ) (٤) . ونقل الطبري عن مجاهد تفسيره النضرة بأنها من السرور ، والنعيم ، والغبطة (٥) . وفسرها الفراء بأنها اشراق الوجه وبريقه المتأتي عن النعيم ، والسرور (٦) . ويجلي الطوسي هـذه الصورة أكثر فأكثر ، فيرى انها الصورة المشرقة المضيئة التي تملأ القلب سروراً عند رؤيتها (٧) .

أما الحسن المؤدب (٨) فقـد اتجــه بالنضرة آخر ، ولم ير فيها

---

(١) سورة القيامة ٧٥ : ٢٠ ـ ٢٥ .

(٢) ن . م : ٢٢ .

(٣) جامع البيان ٢٩ : ١٩٣ .

(٤) تنوير المقياس :٣٧٥ ، التنبيه والرد : ٦٣ .

(٥) جامع البيان ٢٩ : ١٩١ ، تفسير غريب القرآن : ٥٠٠ ، الزجاج عن لسان العرب ٧ : ٦٩ ، مقاييس اللغة ٥ : ٢٣٩ ، الكشاف ٣ : ٢٤٩ .

(٦) عن لسان العرب ٧ : ٦٩ .

(٧) التبيان ١ : ١٩٧ ، متشابهات القرآن ١ : ٩٤ .

(٨) لم أعثر على ترجمة كاملة له ، وقد ذكره الخطيب البغدادي بأنه الحسن ابن أحمد أبو محمد المؤدب ، وقال بأنه قد كتب عنــه سنة ٤١٧ هـ ، أنظر تاريخ بغداد ٧ : ٤٧٨ .

بياض الوجوه ولا حسنها واشراقها وانما ذهب بها الى الدلالة المعنوية ، وهو حسن الخلق والمنزلة والجاه . قال : (ليس من الحسن في الوجه ، انما معناه حَسَّنَ اللهُ وجهه في خُلُقِهِ أي جاهِهِ ، وقدره قال : وهو مثل قوله اطلبوا الحوائج الى حسان الوجوه يعني به ذوي الوجوه في الناس وذوي الأقدار) (١) .

ويبدو انه لاتعارض بين تفسير الحسن المؤدب الذي يرى النضارة في عظم المنزلة والجاه ، وبين الفريق الأول الذي يحملها المحمل المادي ، وهو حسن الوجوه واشراقها من النعيم والسرور ، وذلك لأن وجوه المؤمنين انما تنضر يوم القيامة لما تجده من النعيم والسرور الذي أعد للمؤمنين لعظم منزلتهم عند ربهم وللجاه الذي خصهم الله به .

واذا تتبعنا معاني الكلمة واستنبطنا اصولها الحسية فاننا سنجد في التعبير القرآني تعبيراً رقيقاً قصرت عنه هذه التفاسير . ويعكس لنا صورة حية في وصف وجوه المؤمنين . فقد اقترنت النضرة بأحب صورة الى نفس العرب ، الا وهي صورة النبات الناضر وذلك ان يكون شديد الخضرة مع اشراق ولمعان متأت من طراوة الزرع ونمائه نمواً حسناً . قال ابن الاعرابي : (وأنضَر النبتُ نضُرَ ورقُهُ . ، وقد أنْضَرَ الشَجَرُ اذا اخضرّ ورقُهُ وربما صارَ النَضْرُ نعتاً يقال شيء نَضْرٌ ، وناضِرٌ ، والناضِرُ ، الأخضرُ الشديدُ الخضْرةِ) (٢) ويبين أبو حنيفة الدينوري (٣) ان العشب حين يكون

(١) عن لسان الغرب ٧ : ٦٩ .

(٢) ن . م .

(٣) هو أحمد بن داود أبو حنيفة توفي نحو ٢٨٢ هـ ، كان مهندساً منجماً راوية ثقة فيما يرويه ، أخذ عن البصريين والكوفيين ، وأكثر أخذه عن ابن السكيت أنظر ارشاد الأديب ١ : ١٢٣ ـ ١٢٤ .

في بدء نبته طريا غضا يكون لونه شديد الخضرة مع اشراق وجمال يطلق عليه النضرة . قال : (واذا كانَ العُشْبُ مع شدةِ خضرتِه مشرقا قيل عُشبٌ نَضر) (١) .

وقد اقترنت هذه النضره باللون الاخضر فيقال اخضر ناضر كما يقال ابيض ناصع ، واصفر فاقع (٢) . اما لماذا اقترنت النضارة بالخضرة دون غيرها من الالوان مع ان النبات متنوع الاشكال والالوان ؟ فمن الجائز ان يكون هذا لكثرة اللون الاخضر ، وغلبته على سائر النباتات . . فاطلاق النضرة جاء على التعميم لا التخصيص لذا نراه اطلق على كل نبات مشرق انشد ابو حنيفة : ـ

يرشّحُ نبتاً ناضِراً ويزينُــهُ ندىً وليالٍ بعد ذاك طَوالقُ (٣)

ثم اقترنت النضرة بالنبات الزاهي بصورة عامة ومن ثم تكرر ذكرها مع ذكر الربيع ـ اجمل ايام العرب واحلاها ـ قال الاعشى في ممدوحيــه بانهم يكرمون الجائع حتى تعود له صحته ويقوى فيصير كالغصن الناضر :

والشافعون الجوعَ عن جارِهِمْ حتى يُرى كالغُصُن الناضر (٤)

وقال الآخر مفتخرا : ـ

انّا ملوكٌ حياً للتابعين لنــا مثل الربيع اذا ما نبته نضرا (٥)

وتغنى الشعراء بذكر الغصون النضرة لما توحيه في نفوسهم من البهجة

---

(١) المخصص ١٠ : ١٩٥ .

(٢) الغريب المصنف الورقة : ١١٨ ، وانظر ايضاً الصحاح ٢ : ٨٣٠ ، المخصص ٢ : ١١٠ لسان العرب ٧ : ٧٠ .

(٣) المخصص ٩ : ٧٧ لم اعثر على قائله .

(٤) ديوان الاعشى : ١٤٥ .

(٥) الامالي للقالي ١ : ٩ والبيت انشده ابو بكر بن الاعرابي ولم ينسبه .

والسرور قال امرؤ القيس :

فقمنا باشلاء اللّجام ولم نَقُدَ الى غصن بان ناضر لم يحرق (١)

وقال ظالم بن البراء (٢) : -

فيامَنْ لَدهْر يفسد المرءَ بعدما يُرى عُصُراً يهتَزُّ كالغُصُن النَضْر (٣)

واذا كان اطلاق النضرة على النبات مُتأتٍ من اشراقه ، وجماله فانهُ أطلِق مجـازاً على كلّ شيء زاهٍ خالصٍ من الشوائب كالذهب والخشب والجمال (٤) .

ومن هذا الاصل الحسي وهو نضارة النبـات استعير تعبيرهم عن حُسْن الوجهِ ورونقِه بالنضارة (٥) واشار الزمخشري الى ان نضـارة الوجه اطلقت مجازا (٦) .

قال الاعشى متغزلا :

وَسَبَتْك حينَ تَبسَّمت بينَ الأراكَةِ والستارة

وبجيدِ مغزلة الى وجه تزينـهُ النضـارة (٧)

وبعد ان تبين لنا تطور دلالة الكلمة من معناها الحسي الاصلي الى

(١) ديوان امرىء القيس : ١٧٣ وانظر ايضا كتاب النبات : ١٣ ، ١٤ .

(٢) هو ظالم بن البراء بن قطن بن بكر شاعر من بني دارم . انظر المؤتلف والمختلف : ٢٢٤ .

(٣) ن . م . وانظر ايضا الطرائف الادبية : ١٠٢ .

(٤) الغريب المصنف الورقـة (٢٢٠) : مجالس ثعلب ١ : ٤٩ ، جمهرة اللغة ٢ : ٣٦٧ الصحاح ٢ : ٨٢٩ : فقه اللغة : ٦٢ : لسان العرب ٧ : ٧٠ .

(٥) الافعال ١٠٧ ، الصحاح ٢ : ٨٢٩ : المخصص ٢ : ١٥٣ .

(٦) اساس البلاغة : ٣٦٥ .

(٧) ديوان الاعشى : ١٥٣ .

معانيها الجديدة المعنوية ، امكننا ان نرد على ابن فارس الذي اعتبر المعنى الاصلي للكلمـــة هو الحسن ، والجمال ، والخلوص ، وعنه تفرقت باقي المعاني (١) . ذلك لان معنى الجمال والحسن متطور عن المعنى الحسي الاول وهو نضرة النبات ، واشراقه كما مر بنا فحين نقرأ قوله تعالى : (وجوه يومئذٍ ناضرةٌ الى ربها ناظرةٌ ، ووجوهٌ يومئذٍ باسرةٌ تَظنُ ان يُفعَل بها فاقرة (٢) لا نفهم منه جمال الوجوه ، واشراقها فحسب ، بل ترتسم امامنا صورة العشب والنبات الزاهي تلك الصورة المحببة التي جعلت العرب يطلقونها على كل من حسن وجهه واشرق لشبابه ، او لتنعمه .

هذه هي صورة المؤمنين بوجوههم المشرقة ، وتقابلها وجوه الكافرين الباسرة الخائفة التي تتوقع المصيبة ، والداهية (٣) .

ومن مجموع هذه التعابير التي تصور حال الناس يوم القيامة ، تتضح لنا تمام الوضوح صورة الفزع والذلة التي تشمل الكافرين ، تلك الصورة التي تنسجم مع الاضطراب الكوني . فيبدو كل ما في الطبيعـــة مُسيَرا لاستجابة امر الله في قيام الساعة والحساب ، الا ان هناك ملاحظة عامة نشهدها في الاجواء المختلفة التي تصور هول القيامة ، الا وهي صورة المؤمنين الرائعة التي تنساب بهدوء في هذا الخضم من الاضطراب والفزع ، وقد شملتهم طمأنينة ، وراحة عظيمة غـــير مبالين بالاضطراب الذي يسود الكون ، والمجرمين معا . قال الله تعالى : (واقتربَ الوعدُ الحقّ فاذا هي شاخِصة ابصار الذينَ كَفَروا ياويلنا قد كنا في غفلةٍ مِنْ هذا بَل كنا ظالمين إنكم وما تَعبُدُون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتمْ لها واردونَ ، لو

---

(١) مقاييس اللغة ٥ : ٤٣٩ .

(٢) سورة القيامة ٧٥ : ٢٠ ـ ٢٥ .

(٣) انظر الفصل الثالث ـ ب ـ توقعهم العذاب .

كان هؤلاء آلهةً ما وردوها وكلٌ فيها خالدونَ ، لهم فيها زَفيرٌ وهم فيها لا يَسْمعون ، ان الذينَ سبقت لهم منا الحسنى ، اولئك عنها مُبعدون لا يَسمعونَ حسيسها وهم في ما اشتهت انفُسُهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الاكبرُ وتتلقاهُم الملائكةُ هذا يومُكم الذي كُنْتُم توعدون) (١) وقال تعالى عارضا مشاهد القيامة المفزعة : (كَلاّ اذا دُكّتْ الارضُ دَكاً دكاً ، وجاءَ ربُّك ، والمَلَكُ صفاً صفاً ، وجِيءَ يومئذٍ بجهنَّم يومئذٍ يتذكّرُ الانسانُ وأنى له الذكرى ، يقولُ ياليتني قدمتُ لِحياتي فيومئذٍ لا يُعذِّبُ عذابَهُ أحدٌ : ولا يُوثقُ وثاقَهُ أحَدٌ ، ياايتها النفْسُ المطمئنةُ ، آرجعي الى ربّك راضيةً مرضيةً ، فآدخلي في عبادي وادخلي جنتي) (٢) .ففي هذه المشاهد المفزعة التي تتابع فيها معاني القوة والضعف من دكّ الجبال ، وتحطيمها ، والشهود ، والملائكة وجهنم المهيأة لتعذيب المجرمين . خلال هذه المشاهد المفزعة تنساب صورة المؤمنين المطمئنة غير آبهة بالفزع حولها ، وانما تسير بثقة ورضى الله لتلقى الثواب والجنة ونعيمها . ومن عرض هذين الجانبين معا يتجلى الاعجاز القرآني الرائع ، لان المقارنة بين صورتي الكافرين والمؤمنين تجلّي صورة كل منهما اكثر مما لو عرضت وحدها .

---

(١) سورة الانبياء ٢١ : ٩٧ ـ ١٠٢ .

(٢) سورة الفجر ٨٩ : ٢١ ـ ٣٠ .

الفَصْلُ الرّابِعُ

القضاء بين الناس

١ ــ القيم الجاهلية ونفي وجودها .

٢ ــ دقة الحساب .

٣ ــ نتيجة القضاء .

١ - القيم الجاهلية ونفي وجودها :

ان القضاء يوم القيامة صوّرته الآيات الكريمة تصويراً دقيقاً رائعاً ، تجلّت فيه الانسانية في موكبها الزاخر حيث يقف الناس بجميع اممهم ، واختلاف طبقاتهم سواسية أمام قضاء دقيق لايتزحزح عن الحق ، ولايقبل في حكمه إلا شهود الصدق . يقف الانسان وحده أمام الهول مجرداً إلا مِنْ صفحات أعماله تشهد عليه فتقرر مصيره إذ لاشفاعة ، ولا فداء ، ولا وسيلة في التهرب من العقاب كالتي اعتادها الناس في الحياة الدنيا : انه العدل المطلق الذي تقف البشرية أمامه ، فيطمئن المؤمن لنهايته السعيدة ، لأن أعماله تشهد له بذلك ، ويوقن المجرم بضآلة نفسه بالعقاب الذي ينتظره جزاء أعماله في الدنيا .

ويستطيع الانسان ان يتخيل هـذه الصورة المثالية للقضاء العادل ، ويقارنها بالقضاء السائد في امته ، والذي يتأرجح بين الحق والباطل . واذ نستعرض صور القضاء الجاهلي نجد انه صُوِّر في مشاهد القيامة ليبين الفرق العظيم بين الحكم الدنيوي ومافيه من قيم اجتماعية ، وبين الحكم العادل يوم القيامة .

فلم يكن للقضاء الجاهلي قانون يحكمه ، أو دين يضبطه ، انما كان المرجع فيه الى رأي رجال عرفوا بسلامة التفكير والحكمة قال اليعقوبي : (وكان للعرب حكام ترجع اليها في امورها ، وتتحاكم في منافراتها ، ومواريثها ومياهها ، ودمائها ، لأنه لم يكن دين يرجع الى شرائعه ، فكانوا يحكّمون أهل الشرف ، والصدق ، والأمانة ، والمجد ، والتجربة) (١) . وتعدد

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١ : ٢٩٩ ، وانظر أيضاً الأشباه والنظائر ١ : ١٤٤ ، ١٤٥

الذين كانوا يحكّمونهم في المنازعات ، فبعضهم كان يحكّم العرّافة (١) ، وقــد يلجأون الى الكهّان (٢) . واشتهر رجال منهم سارت أسماؤهم في الآفاق ، لما عرفوا به من الحكمة ، والحصافة في الامور التي يحكّمون فيها ومن هؤلاء أكثم بن صيفي (٣) ، وعامر بن الظرب العدواني (٤) ، وغيلان ابن سلمة (٥) ، وغيرهم ممن تناقلت الكتب أخبارهم .

وكانت العرب ترجع الى أمثال هؤلاء للتحكيم بينهم في المنازعات ، أو في تقدير دية قتيل اختلفوا فيها (٦) .

ومع الأوصاف التي اقترنت بسير هؤلاء الرجال ، فمن الطبيعي أن تكون أحكامهم تقريبية بين الحق والباطل ، لأنهم لايعتمدون على قانون واحد ، أو قاعدة عامة في جميع أحكامهم ، يضاف الى ذلك ان الطرفين المتنازعين غير ملزمين بقبول الحكم الذي يصدره الحكم ، وقد ينقض أحد الطرفين

---

(١) سيرة ابن هشام ١ : ١٦٦ ، بلوغ الأرب ٣ : ٧٥ .

(٢) المثالب : ٣١ ، سيرة ابن هشام ١ : ١٥٥ ، المُنَمَّق : ٢٠ : ٢٢ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٥ ، أخبار الزمان : ٩٥ ، بلوغ الأرب ٣ : ٢٦٩ ، تاريخ العرب لجواد علي ٥ : ٣١٥ ، ٣١٧ .

(٣) المعمرون : ١٩ - ٢٤ ، المحبَّر : ١٣٥ ، البيان والتبيين ١ : ٣٦٥ ، عيون الأخبار ١ : ١٠٨ ، تاريخ اليعقوبي ١ : ٢٩٩ ، الاشتقاق لابن دريد ٢٠٧ ، أسد الغابة ١ : ١١٢ - ١١٣ ، الاصابة ١ : ١١٨ ، وانظر أيضاً :

Ency. of Islam P. 345.

(٤) سيرة النبي ١ : ١٣٤ ، المعمرون : ٥ ، المحبر : ١٣٥ .

(٥) المؤتلف والمختلف : ٢٣٠ ، بلوغ الأرب ١ : ٣١٦ .

(٦) المحبر : ١٣٥ ، تاريخ اليعقوبي ١ : ٢٩٩ ، بلوغ الأرب ١ : ٣١٩ .

الحكم ، فكان بعضهم اذا حكم بقضية ما ، لايبدي رأيه إلا اذا أعطاه الفريقان العهود والمواثيق بتطبيق مايقضيه بينهما (١) . ومن هنا فخر بعضهم بأن فيهم الحكام الذين لاينقض حكمهم ولا يرد (٢) ، وانهم اذا حكموا بين القبائل فان حكمهم هو الصواب وغيرهم على خطأ (٣) .

وفخر الشعراء بمثل هذه الأمور يعكس لنا من جانب آخر افتقار المجتمع للعدالة ، وضياع الحق إلا عند الحكام الذين مرستهم السنين وحنكتهم التجارب . ذلك لأن الشاعر اذا أراد ان يمتدح شخصاً ، فانما يضفي عليه قيما ، وصفات لايجدها عند غيره من الناس ، أو أنه عرف بها أكثر من غيره . فتغني الشعراء بأن فيهم الحكام العادلين يعكس لنا افتقار المجتمع القبلي الى عدل يسود ، وحق يطبق .

أ ـ الشفاعة والقضاء الجاهلي صورة للمجتمع العربى وتقاليده ، وأول ظواهره هو الايمان بوحدة القبيلة . والتعصب لها في سلمها ، وحربها ، وهي التي قال عنها ابن خلدون انها : (النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام ان ينالهم ضيم ، أو تصيبهم هلكة ، والتي بها تشتد شوكتهم ، ويُخْشى جانبهم) (٤) : وقد أعمت هذه النظرة عيونهم ، فلم تترك لهم مجالا يفرقون فيه بين الحق والباطل ، انما يهرعون ملبين نـداء أي مستغيث من أبناء قبيلتهم دون ان يستفسروا عن المعتدي . ولعل أجود قصيدة تبين لنا هذه الروح هي قصيدة قريط بن انيف التي يذكر فيهـا عصبية بني مازن التي

(١) أنظر في هذا الأغانى ٣ : ١٩ ـ ٢٢ ، الكامل لابن الأثير ١ : ٧٧ .

(٢) الشعر والشعراء ٢ : ٥٩٨ ، الحماسة البصرية الورقة : ١٤٤ (أ) :

(٣) أنظر ديوان عامر بن الطفيـل : ٢٠ ، ديوان حميد بن ثور : ١٣١ ، والمفضليات : ١٧٤ .

(٤) المقدمة : ٧٣ .

حمدوا عليهـا . وانهم لا يسألون اخاهم عن المعتدي اذا سالهم النجدة وانما يلبون نداءه ظالما او مظلوما (١) .

واذا اسر احد افراد القبيلة هرع وجوه القوم ، او شاعر من شعرائهم ليشفعوا له عند غالبيه وآسريه (٢) ولعل اكثر ما يؤلم البدوي هو خذلان قومه له حين يعتدى عليه .

اما الجوار فانه رابطة اخرى تحمي الفرد ، وتشفع له في حياته . فاذا قتل امرؤ او أجرم فان على مجيريه ان يدافعوا عنـه ، ويشفعوا له قال رجل من بني عبد الله بن غطفان ، وقد جاور قبيلة طي وهو خائف:

جَزَى اللهُ خَيْراً طَيِّئاً مِنْ عَشِيرَةٍ
ومِنْ صاحبٍ تَلْقاهُمُ كلَّ مجمعِ
هُمُ خَلَطُوني بالنّفوسِ ودافَعُوا
ورائي بِرُكْنٍ ذى مناكبَ مِدفعِ
وقالوا : تَعَلَّمْ إنَّ مالَكَ إنْ يُصَبْ
نُفِدْكَ وإنْ تُحبَسْ نَزَرْكَ وَنشفَعِ (٣)

هذه الشفاعة التي اعتادها البدوي في بيئته كانت تقف حائلا دون تطبيق العدالة ، لان الجاني سرعان ما يتشبث بمن له منزلة ، وجاه في قومه

---

(١) شرح ديوان الحماسة ١ : ٢٣ - ٣٢ وانظر ايضا ١ : ١٣٠ .

(٢) ديوان علقمة الفحل ٤٠ ، ٤١ ، وانظر ايضا الكامل لأبن الاثير ١ : ٢٨٨ وقد يطلبون شفاعة رجل له مكانته العظيمة في نفس القبيلة الغالبة انظر امثال العرب ٨ ، ٩ .

(٣) الكامل للمبرد ١ : ٧١ ، وذكر ابو تمام الابيات في الوحشيات ونسبها لابن دارة احد بني عبد الله بن غطفان ، انظر الوحشيات : ٢٤٩ .

ليشفعوا له ، ويخلصوه من جرمه واسره (١) . . . فاي شعور رهيب يجتاح العربي اذا سمع بانه سيأتيه اليوم الذي يقف فيه وحده ضعيفا متهالكا وذنوبه العظام لم يترك منها شيء تشهد عليه ، وتدينه . ثم يلتفت فيجد ان كل الوسائل التي كان يتوصل بها الى النجاة في الحياة الدنيا قد تقطعت وانه ما من شخص يشفع له ، ويعينه على التخلص من العقاب لان (لكل امرىء يَومئذٍ شانٌ يُغْنِيهِ) (٢) . فلا شفيع ولا نصير ، قال الله تعالى : (وَهلْ يَنظرونَ الاّ تأويلَهُ ؟ يومَ ياتي تأويلُهُ يقولُ الذين نَسَوهُ مِنْ قبل : قد جاءت رُسلُ ربّنا بالحقَ . فهل لنا من شفعاءَ فيشفعوا لنا ، او نُرَدّ فنعمل غير الذي كنا نعمل ؟ قد خَسِروا أنفسهم وَضلّ عنهم ما كانوا يَفْتَدونَ) (٣) .

وهكذا يتمنى المجرمون شفاعة احد لهم ، ويتمنون العودة الى الحياة الدنيا ليعملوا صالحا ، الا إن الرد ياتيهم جازما مؤلما بان يوم القيامة لا يترك للمجرمين شفعاء ، ولا تقبل وساطة أحد . فاعمالهم تشهد عليهم بما اقترفوه في الحياة الدنيا قال الله تعالى : (واتقوا يوماً لا تَجزي نَفسٌ عن نفس شيئا ، ولا تُقبَلُ منها ، شَفاعةٌ ، ولا يؤخذُ منها عَدلٌ ، ولا هُم يُنْصَرون) (٤) وقال ايضا : (يايها الذينَ آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خُلةٌ ولا شَفاعةٌ ، والكافرونَ هم الظالمون)(٥).

(١) وشبيه هذا عقيدة الذين اتخذوا آلهة ليشفعوا لهم عند الله وقد ذكرهم الله تعالى في سورة الانعام ٦ . ٩٤ : وانظر ايضاً الروم ٣٠ : ١٣ ، يس ٣٦ : ٢٣ .

(٢) سورة عبس ٨٠ : ٣٧ .

(٣) سورة الأعراف ٧ : ٥٣ .

(٤) سورة البقرة ٢ : ٤٨ .

(٥) سورة البقرة ٢ : ٢٥٤ .

وفي سورة غافر يصف الله سبحانه وتعالى هول الموقف يوم القيامة والذي تبلغ فيه قلوب الناس الحناجر ، فلا يستطيعون الكلام ، لانهم ايقنوا من الحساب الدقيق الذي لا يترك ذنبا كبيراً ، او صغيراً ، الا واحضره ، ويزيد ياسهم وخوفهم ان ليس لهم شفيع تقبل شفاعته ، لانهم ظالمون مجرمون : (وانذِرْهُم يومَ الآزفةِ ، اذ القلوبُ لدى الحناجرِ كاظمين ، ما للظالمين من حَميمٍ ، ولا شَفيعٍ يطاع ، يَعلَمُ خائنةَ الأعينِ ، وما تخفي الصدورُ والله يقضي بالحَقِّ والذينَ يدعونَ من دونِهِ لايقضُون بشيء ، ان اللهَ هو السميعُ البصيرُ) (١) .

هكذا تنفي الآيات القرآنية الكريمه وجود الشفاعـــة للكافرين يوم القيامة ، ذلك المفهوم الذي كان سائدا في البيئة الجاهلية ، لانه الحق المطلق الذي لا تشوبه شائبة ، ولا يعوقه مفهوم من المفاهيم الجاهلية كالشفاعة مثلا .

ب ـ الفداء والعدل :

الفداء : وهناك وسيلة اخرى اعتـاد البدوي بواسطتها التخلص من اسره ، تلك هي وسيلة الفداء ، وذلك ان يدفع الاسير دية يفك بهـــا اسره ، والا فانه يصبح بحـــكم العرف ملكا لاسره ، وتختلف هذه الدية حسب منزلة الشخص الاجتماعية ، فكان فداء الشخص المتوسط المنزلة مائة بعير (٣) وقد تبلغ خمسمائة بعير . اما دية الملوك ، ومن يبلغ منزلتهم فى

(١) سورة غافر ٤٠ : ١٨ ـ ٢٠ .

(٢) النقائض ١ : ٢٠ .

(٣) المعارف : ٥٥٥ .

العظمة فانها الف بعير (١) ، ومن هنا فخر اهل اليمن بالاشعث بن قيس (٢) لانه افتدى نفسه بثلاثة الاف بعير اي بدية ثلاثة ملوك (٣) .

واذا كانت هذه الارقام تبين لنا دية الاشخاص ، واختلافها حسب منزلتهم الاجتماعية ، فأنها من الناحية الآخرى تعكس لنا اهمية البيئة في نشوء العادات والتقاليد ، ذلك لان انتشار الفوضى ، وكثرة الحروب ، والغارات ، وما يتبعها من الاسر ، كل ذلك ساعد على ايجاد الدية والفداء لفك الاسرى ، ولما كانت منزلة الاشخاص تختلف حسب مستواهم المعيشي ومنزلتهم الاجتماعية فان ديتهم قدرت تبعا لذلك . وقد وصف عوف بن عطية (٤) في قصيدة له الاسير يمتلك مالاً يستطيع ان يفك به قيود اسره ، يقول :

ُومكبَّلٍ ُيتَفدَى بوافرِ مالِهِ   إنْ كانَ صاحب َهجمةٍ او أيْصَرِ (٥)

ويظهر الظلم الاجتماعي في هذا الجانب من المجتمع البدوي الذي قد يلحق الكثيرين . فالحروب مستمرة ، والقتل والأسر يتمثل أمام ناظري المرء كل يوم ، ولكنه يختلف باختلاف الأشخاص فمن كان ذا مال وفير لم يعان

---

(١) نقائض ١ : ٤٣٢ ، ٥٣٥ ، بلوغ الارب ٣ : ٢٢ .

(٢) هو الاشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي امير كندة في الجاهلية والاسلام . كان شاعراً وسيدا كريما وكانت اقامته في حضرموت ، ووفد على النبي (ص) بعد ظهور الاسلام . توفي نحو ٤٠ هـ . انظر المؤتلف والمختلف : ٥٥ خزانة الادب ٢ : ٤٦٥ .

(٣) المعارف : ٥٥٥ .

(٤) هو عوف بن عطية بن عمرو بن عبس بن وديعة بن مضر شاعر جاهلي فحل ادرك الاسلام معجم الشعراء : ٢٧٦ ، خزانة الادب ٣ : ٨٢ - ٨٣ .

(٥) ديوان المفضليات : ٦٣٥ .

من الأسر ، أو عقاب جرمه شيئاً ، اذ انه سرعان مايقدم ماله ليغسل جرمه واذا كان ذا جاه ، ومنزلة كبيرة فان قومه يسرعون لافتدائه بما يملكون من مال وجاه . وفي أخبار الشنفرى ان قومه قتلوا رجلا كان في خفرة بعض الفهميين فرهنوهم الشنفرى (١) ، وامه ، وأخاه ، ولم يفدوهم (٢) ... هكذا يُرْهَنُ ثلاثة أشخاص مقابل شخص واحد ، ومع ذلك لايحاول قومهم افتداءهم وفك أسرهم لماذا ؟ لأنهم ليسوا سادة ، ولا أغنياء .

وقد شكا طرفة مولاه في شعره بأنه يضيّق عليه الأمر في كل حال سواء شكره ، أو طلب منه أن يفدي نفسه :

فلو كانَ مولايَ امرءٌ هو غيره
لفرَّجَ كرْبي ، أو لأنظَرَني غدي
ولكن مولايَ امرءٌ هوَ خانقي
على الشُكرِ والتَسآلِ أو أنا مُفْتدِ (٣)

والفداء المادي كما عرفه المجتمع العربي ورد في القرآن الكريم فقد أفتدي ابن النبي ابراهيم (ع) بكبش عظيم (٤) . كما حدد الله -سبحانه وتعالى- فدية الأسرى المشركين ، فاما ان يُمنَّ عليهم باطلاق حريتهم ، أو ان

---

(١) هو عمرو بن مالك الأزدي من قحطان ، شاعر جاهلي من فتاك العرب وعدائيهم ، وهو أحد الخلعاء الذين تبرأت منهم عشائرهم . قتله بنو سلامان ، وهو صاحب اللامية المشهورة بلامية العرب . أنظر الأغاني ٢١ : ٨٧ - ٩٣ ، خزانة الأدب ٢ : ١٦ - ١٧ .

(٢) ديوان المفضليات : ١٩٧ - ١٩٨ .

(٣) ديوان طرفة : ٥٧ .

(٤) سورة الصافات ٣٧ : ١٠٥ .

تقبل منهم فدية (١) .

هذا الفداء الذي اعتاده العربي في بيئته . وحروبه المستمرة ، صورته الآيات الكريمة عند تصويرها للحساب الدقيق يوم القيامة . فالبدوي الذي اعتاد في الحياة الدنيا التخلص من جرمه ، وأسره ، بأن يفدي نفسه بمقدار من المال ، فانه يوم القيامة لايمكنه التخلص من العقاب الذي ينتظره ، حتى لو امتلك ملء الأرض ذهبا ، قال الله تعالى : (ان الذين كفروا ، وماتوا وهُمْ كفارٌ ، فلن يُقْبَلَ من أحَدِهم ملأُ الأرضِ ذَهَباً ، ولو افتدى به ، أولئكَ لهُم عذابٌ اليمٌ ، ومالهم من ناصرين) (٢) وفي سورة الرعد يبين الله سبحانه وتعالى بأن الذين لم يستجيبوا لدعوة الحق لايتخلصون من العذاب يوم القيامة حتى لو قدموا مافي الأرض من الأموال فدية لهم (للّذينَ استجابُوا لربِّهم الحُسْنى ، والذينّ لم يَستجيبُوا له لو أنَّ لهم مافي الأرض جميعاً ، ومِثله معه ، لأفتَدوا به ، أولئكَ لَهُم سوءُ الحساب ، ومأواهُم جَهَنَمُ وبئس المِهادُ) (٣) . وقال الله تعالى أيضاً : (فاليومَ لايُؤخَذُ منكم فِديةٌ ، ولا من الذينَ كفروا ، مأواكُم النارُ ، هي مولاكُمْ وبئس المصير) (٤) .

واذا كان في مقدور الأب ، أو أي فرد من أفراد القبيلة فداء ابنه أو قريبه ، وتقديم مايملك في سبيل انقاذه ، فان هذه الأواصر تنقطع كلها يوم القيامة ، فلا يفدي الأب ابنه من العذاب فحسب ، بل يتمنى لو انه يستطيع ان يفتدي نفسه بأعز أحبائه في الحياة الدنيا ، بابنه ، أو صاحبته

(١) سورة محمد ٤٧ : ٤ .

(٢) سورة آل عمران ٣ : ٩١ ، وانظر أيضاً سورة يونس ١٠ : ٥٥ .

(٣) سورة الرعد ١٣ : ١٨ .

(٤) سورة الحديد ٥٧ : ١٥ .

او اخيه ، ولكن هيهات له ذلك ، فلا يقبل فداء ، ولا يبدل عذاب امرىء بعذاب آخر ، فكل انسان يحاسب بما قدم في حياته الدنيا . قال الله تعالى واصفاً حيرة الانسان يوم القيامة حيث يقف وحيـداً ، فزعاً خائفاً (يُبَصَّرُونَهم يَوَدُّ المجرمُ لو يَفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه وصاحبته ، واخيه وفصيلته التي تؤويه ، ومَنْ في الأرض جميعاً ثم يُنْجِيه ، كلا ، انها لظى ، نزاعة للشوى) (١) .

هكذا تعكس الآيات الكريمة صورة الحياة العربية الجاهلية ، وتبين لنا كيف تنهار العناصر الاساسية التي تقوم عليها القبيلة ، إذ لا شفاعة ولا فداء ، بل قضاء عادل تنفصم فيه كل عرى القرابة والصداقة ، وكل الروابط الانسانية ، فيقف الغني والفقير ، وذو الجاه والصعلوك ، وحيدين امام قانون واحد حازم .

العدل : اما العدل فانه تعبير آخر له دلالته على البيئة العربية الذي نفت وجوده الآيات الكريمة يوم القيامة . (واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نَفْسٍ شيئا ، ولا يُقْبَلُ منها شفاعةٌ ، ولا يُؤخَذُ منها عَدْلٌ ولاهم يَنصُرون) (٢) . وقال أيضاً : (وَذر الذينَ اتخذوا دينَهم لعباً ، ولهَواً ، وغرتهم الحيـاة الدنيا ، وذكِّرَ به ان تُبْسلَ نفسٌ بما كسبت ليس لها من دونِ اللهِ وليٌ ولا شفيعٌ ، وان تَعْدل كلَّ عدلٍ لا يؤخذ منها ، اولئك الذينَ أُبسِلوا بما كَسَبوا ، لهم شرابٌ من حميمٍ وعذابٌ اليمٌ ، بما كانوا يَكْفرون) (٣) .

---

(١) سورة المعارج ٧٠ : ١٢ – ١٦

(٢) سورة البقرة ٢ : ٤٨

(٣) سورة الأنعام ٦ : ٧٠

وقد قال المفسرون ان معنى العدل : الفداء (١) ، واذا كان هـذا التفسيرمنسجماً مع الفداء الذي مر بنا بحثه . الا اننا نجد في دلالات الكلمة المختلفة معنى جامعاً لتفسير المفسرين من جهة ، ويعكس لنـا صورة من البيئة العربية من جهة أخرى ، وذلك انهم اطلقوا العَدْل على الحِمْل يوضع على جانبي الدابة . قال الاصمعي : عَدَلْتُ الجوالِقَ (٢) ، على البعيرِ ، أعدِلهُ عَدْلاً ، يحمل على جنب البعير ، ويُعْدَلُ بأخر (٣) . وقال الأزهري : العَدِيلتان : الغِرارتان (٤) ، لان كل واحــدة منها تعادل صاحبتها (٥) . وقال ابن دريد : العِــدْل العُكْم اذا عـدل بمثله (٦) . والعُكمُ هو نفس عِدْل البعير كما يقول الزمخشري (٧) :

ومما سبق من أقوال اللغويين يتبين لنا ان العِدل هو الحمـل الذي

---

(١) تنوير المقياس : ٧ ، مجاز القرآن ١ : ٥٣ ، جامع البيان ١ : ٥٧ التبيان ١ : ٢١٥ الكشاف ، ١ : ٥١١

(٢) الجوالق : وعاء من الأوعية أعجمي معرب ، انظر جمهرة اللغة ٢ : ١١٠ ، الصحاح ٤ : ١٤٥٤ ، المعرب : ١١٠ ، لسان العرب ١١ : ٣١٨

(٣) عن لسان العرب ٣ : ٤٥٩ وانظر ايضاً جمهرة اللغة ٢ : ٤٥٩

(٤) الغرارة : قال الجوهري عنها انها واحدة الغرائر التي للتبن ، واظنــه معرباً . ويبدو انها كلمة عربية الأصل لقولهم الغِرارة شفرتا السيف ، وكل شيء له حد فحده غراره انظر جمهرة اللغة ٣ : ٤٥٨ ، لسان العرب ٦ : ٣٢٠ لان جانبي الحملين والعِدلين يمثلان حدهما ، ومن هنا سمي الحِمل غرارة .

(٥) لسان العرب ٣ : ٤٥٩ ، وانظر ايضاً مقاييس اللغة ٤ : ٢٤٧ ، المحكم ٢ : ١١ ،

(٦) جمهرة اللغة ٢ : ٢٨١

(٧) اساس البلاغة : ٦٤٩

يوضع على جانبي الدابة يحمل عليه العربي ما يحتاج اليه في سفره ، وسيره على أن يكون ما في الحمل الأول موازياً ومعادلا للحمل الثانى ليتوازن سير الدابة . قال ابن الاعرابي : (يقال عَدَلتُ امتعة البيتِ ، إذا جعلتها اعدالا مستوية للاعتكام يوم الظعن) (١) . واذا ركب رجل على أحد حملي الدابة ، فلابد من موازنته بوضع ثقل في الجانب الثاني من الحمل ، فيركب معه شخص آخر يساويه ومن هنا قالوا عدل الرجل في المحمَلِ وعادَله ركب معه (٢) .

وقد ورد هذا المعنى المادي للكلمة في الشعر العربي ، من ذلك قول عوف بن عطية هاجياً :

ولقد أراكَ ولا تُؤبَّنُ هالِكاً
عِدْلَ الاصِّرَةِ في سنام الأكوم (٣)

يريد انه لا يُبكى عليك ان مُتَّ ، وقد كانت امه راعية ، فكانت تحمله على بعير وتعدل به الأصّرة . وقال آخر مشبهاً الفتيان بالحمير يحملون أعْدالاً قد أثقلها الحمل :

في فتيةٍ من بني هِندٍ كأنّهُمُ
آذانُ أحمِرةٍ يَحمِلنَ أعْدالا (٤)

أي أن هولاء الفتية خاملين لاحراك لهم ، ولا شهامة عندهم كأنهم آذان حمير قد تعبت من حمولة اعدالها . وقال آخر :

---

(١) لسان العرب ١٣ : ٤٥٩ ، وانظر ايضاً أساس البلاغة : ٦١٦

(٢) المحكم ٢ : ١١ ،

(٣) المعاني الكبير ١ : ٤٦٩ ، والبيت لم ينسبه ابن قتيبة

(٤) ن ٠ م ٠ ١ : ٥٧٨

لما غَدَوتُ خَلِقَ الثيابِ أَحمِلُ عِدْلَينِ مِنَ التُرابِ (١)

ومن هذا المعنى المادي لكلمة العِدْل اطلقت الكلمة على المعادلة والموازنة مطلقاً ، وعلى العـدل القسط المراد به الاستقامة التي هي ضد الجور (٢) . قال علقمة الفحل :

فـلا تعـدِ لي بيني وبينَ مُغَمَّرٍ
سَقَتكِ رَوايا المزنِ حينَ تَصَوَّبُ (٣)

والمغمّر الذي لم يجرب الأمور . والمزن السحاب الأبيض وروايا ما حَملَ من الماء : يريد منها الآ تعدله مع من لا حكمة ولا خبرة له وقال امرؤ القيس :

فقُلتُ لهـا وقولُ الحَقِّ مما يَميلُ ولو عَدَلتَ به الجبالا (٤)

وصورة عدلي الدابة واضحة في هـذه الموازنة ، ومن هنا اطلقوا العَدْل على المِثْل قال الأزهري : (العَدْل : المثيل ، واصله في الدية يقال : لم يقبلوا منهم عَدْلاً ولا صَرْفا . أي لم يأخذوا منهم دِيّة ، ولم يقتلوا رجلا واحداً ، أي طلبوا منهم اكثر من ذلك) (٥) :

ويبدو مما مرّ بنا من معنى العِدْل المادي ان معنى الفـداء والدية ليس أصلياً بل متطوراً عن المعنى المادي ، ذلك لان العِدْل لا يمكن

---

(١) المغاني الكبير ١ : ٤٩٦

(٢) جمهرة اللغة ٢ : ٢٨١ ، المخصص ٦ : ١١٧ ، المحكم ٢ : ١٠

(٣) ديوان علقمة الفحل : ١٠ ، وانظر أيضاً ديوان حسان : ١٨٢

(٤) ديوان امرىء القيس : ٣٠٩

(٥) الأزهري عن لسان العرب ١٣ : ٤٦٠ ، وانظر ايضاً مجالس ثعلب ١ : ١١ ، المحكم ٢ : ١٠ ، اساس البلاغة ٦١٧ وانظر

Arabic English Lexicon Book 1 . P . 5 . 1974 .

ان يُوازَنَ الا بحِمل آخر موازٍ ، ومشابه له ومن هنا فُهِم معنى المماثلة ، والمشابهة الذي أُخِذَ منه معنى الفداء ، ذلك لان العرب قد اعتادوا في حياتهم ان ينتقموا لقتيلهم ، ولا يكتفون بعقاب قاتله بل جاوزوا ذلك الى ان يقتّصوا من غير القاتل ، فيقتلوا نِدّا له يعدِله في مقامِهِ ، ومركزه . ومما يروى في هذا الباب انه حين قتل جساس كُلَيبا عرض بنو تغلب على بني بكر بن وائل ان يدفعوا لهم جساساً ليقتلوه بصاحبهم أو يدفعوا لهم همّاما لانه نِدٌّ لكليب (١) وصورة حملي الدابة واضحة المعالم في هذه المعاني ، لانهم لا يقتلون الندّ الا اذا وازنوا بينه وبين قتيلهم . الا ان معظم اللغويين فرّقوا بين معنى العَدْل والعِدْل قال الفَرّاءُ :

(العَدْلُ : في قوله تعالى (او عَدْل ذلك صياما) قال : ما عادل الشيءَ من غيرِ جنسِهِ ومعناه ، فداء شاتِكَ إذا كانت شاةٌ ذلك ، والعِدْل ، المِثْل ، وذلك ان تقولَ عندي عِدْلُ غلامك وعِدْل تَعْدِلُ شاةً او غلامٌ يَعْدِلُ غلاما . فاذا أردتَ قيمته من غير جنسِهِ نصبتَ العين ، فقلت عَدْل ، وربما كسرها بعض العرب . قال بعض العرب ، عِدْلهُ ، وكأنّهُ منهم غلط ، لتقارب معنى العَدْلِ) (٢) . ومما مر بنا يبدو ان المعنيين من اصل واحد وهو عدلا الدابة إلا ان تطور معاني الكلمة ، ودلالتها جعل العَدْل بفتح العين تختص بمعنى المِثْل المعنوي ، والعِدْلُ بكسرها تختص للدلالة على

---

(١) خزانة الأدب ١ : ٣٠٢ ، الكامل لابن الأثير ١ : ٢١٨ سرح العيون : ٩٧

(٢) لسان العرب ١٣ : ٤٥٩ ، وانظر أيضاً جامع البيان ١ : ٢٦٩ ، التبيان ١ : ٢١٥

المِثْل المادي ، ويؤيد وجود الأصل الواحد قول الفراء في رواية بعض العرب العِدْلُ بكسر العين للدلالة على المِثْل . وقال الزجاج : (العَدْلُ والعِدْلُ واحدٌ في معنى المِثْل . قال والمعنى واحد ، كأنَّ المِثْلَ من الجنس أو من غير الجنس) (١) :

هذه المعاني المتعددة لمعنى العدل نستطيع ان نفهمها في الآيات الكريمة فقوله تعالى : (واتَّقُوا يَوْماً لا تَجزِي نَفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يُقبَلُ منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عَدل ولاهمُ يَنْصرون) (٢) . ان كل وسائل الشفاعة ، والتخلص من العقاب ينتفي وجودها يوم القيامة فلا يمكن ان يخلّص الانسان دفع الدية ، والفداء ، ولا يؤخذ مكان المجرم عِدْلُهُ ولا ندُّه ، لأنَّ (كل نفسٍ بما كَسَبَت رَهينةٌ) (٣) : وفي كل هذا نجد صوراً من البيئة العربية ، صورة مادية متمثله في الموازنة الدقيقة بين حملي الدابة ، وتنقلنا هذه الصورة الى العَدْلِ الدقيق في موازنة اعمال الشخص ، كما تجسد لنا صورة الفداء ، والدية التي اعتادها العربي في بيئته الحربية ، فنفت الآيات الكريمة وجودها ، لأن قضاء يوم القيامة عادل لا تشوبه شائبة من شوائب الظلم فى الحياة الدنيا :

٢ ـ دقة الحساب :

أ ـ تصويرها بالموازين : إذا استعرضنا الآيات الكريمة التي تصور دقة الحساب يوم القيامة وجدنا فيها جانباً آخر من جوانب البيئة العربية فالقضاء يوم القيامة عادل ، لا يبخس الناس شيئاً تقاس فيه أعمال الخير

(١) لسان العرب ١٣ : ٤٥٩

(٢) سورة البقرة ٢ : ٤٨

(٣) سورة المدثر ٧٤ : ٣٨

والشر ، ويوازن بينهما بدقة بالغة ، وقـــد صورت هذه الدقة بالموازين والمعايير التي عرفها العرب في بيئتهم ، وحياتهم الاقتصادية ففي سورة المؤمنون تصور الآيات الكريمة دقة الحساب وكيف ان الناس بعـد نفخ الصور يحشرون من قبورهم ، ثم توزن أعمالهم ويقارن بين السيء والصالح منها ، فتكون نتيجة الحساب امـا الجنـــة واما النار : (فاذا نُفِخَ في الصُّورِ فلا أنسابَ بينَهُمْ يومئذٍ ، ولا يَتساءلونَ ، فمَنْ ثَقُلَتْ موازينُهُ فاولئكَ هم المُفلحون ، ومن خَفَّت موازينُهُ فاولئك الذين خَسِروا أنفسَهُم في جهنَّمَ خالدون) (١) . وقال تعالى ايضاً (والوَزنُ يومئذٍ الحق ، فمَنْ ثَقُلَتْ موازينُهُ فاولئكَ هُمَ المفلحون ، ومَنْ خَفَّتْ موازينُهُ فاولئكَ الذين خَسِروا انفسهم بمـا كانوا باياتنا يَظلِمون) (٢) . وهذه الموازنة عادلة لا تبخس أحـداً شيئاً قال الله تعالى (ونضع المَوازينَ القِسطَ ليـوم القيامةِ فـلا تُظلَمُ نَفسٌ شيئاً ، وانْ كانَ مثقال حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بها ، وكفى بنا حاسِبينَ) (٣) ،

واختلف المفسرون في تأويل هذه الآيات الكريمة هل المراد بالميزان وزن أعمال العباد حقاً في ميزان له كفتان ، يُعرف به المؤمن من الكافر والصالح من المجرم ؟ أم انه تصوير مجازي للعدالة والقضاء السوي ؟ .

لقـــد ذهب ابن عباس وفريق من المفسرين المذهب الأول . أما التفسير الثاني فقد روى الطبري عن مجاهد في تفسير قوله تعالى : (فأما

---

(١) سورة المؤمنون ٢٣ : ١٠١ – ١٠٣

(٢) سورة الاعراف ٧ : ٨ – ٩

(٣) سورة الأنبياء ٢١ : ٤٧

منْ ثَقُلَتْ موازينه) (١) . قال : (ليس ميزان انما هو مثل يضرب) (٢) . ونقل الطوسي عنه ايضاً : (الوزن عبارة عن العدل في الاخرة وانه لا ظلم فيها على أحد) (٣) . فمجاهد يرى في الميزان مثلا ضربه الله سبحانه وتعالى ليصور دقـة الحساب بصورة ألفها الانسان في حياته .

وقد رد القاضي المعتزلي عبد الجبار بن احمد على من اعترض على تفسير الموازين بالمجازاة والحساب الدقيق قال : (وجوابنا ان المراد بذكر الموازين العدل في باب المجازاة ، ولذلك قال تعالى بعدها (فـلا تُظْلَمُ نفْسٌ شيئاً ، وإنْ كانَ مثقالَ حبةٍ منْ خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبينَ) (٤) . وقال الزمخشري بعد ان نقل التأويل الأول (وقيل هي عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل فمن ثقلت موازينه جمع ميزان او موزون ، أي فمن رجحت اعماله الموزونة التي لها وزن وقدر ، وهي الحسنات ، او قانون به حسناتهم) (٥) .

فالله سبحانه وتعالى أراد ان يبين للبشر دقة الحساب الذي يحاسبون به يوم القيامة فصوره بهذا التصوير الرائع الذي لا يبخس احـدا حقه : وحقيقة الموازنة لا تكون إلا بوضع شيء بكفة ، يقابله بالكفة الأخرى

---

(١) سورة القارعة ١٠١ : ٦

(٢) جامع البيان ٣٠ : ٢٨٢ ، وكذا فسر ابو عبيدة قوله تعالى في سورة الحجر ١٥ : ١٩ ، انظر مجاز القرآن ١ : ٣٤٨

(٣) التبيان ٤ : ٣٧٩

(٤) تنزيه القرآن ، ٥٣٥ ، وانظر ايضاً أمالي الشريف المرتضى ١ : ٩ تلخيص البيان : ١٤٢ ، متشابهات القرآن : ١١١

(٥) الكشاف ١ : ٥٤٠

شيء آخر ، فيوازن بينهما ، وهي نفس صورة الموازنة الدقيقة التي مرت بنا في صورة عدلي الدابة . ومن هنا قالوا (فلان أوزن بني فلان أي أوجههم) كما قال الخليل (١) . فكأنهم وازنوا بين رجاحة تفكيره وبين تفكير قومه فوجدوه احكم منهم فقالوا هو أوزن منهم .

واذا كان للكلام قيمة في نفس سامعه قالوا عنه انه يوزن وزناً (٢) واذا أراد شاعرهم ان يفخر بقبيلته قارن بينها وبين أعدائها بصورة تظهر فيها رجاحة كفة قبيلته . قال الربيع بن زياد العبسي (٣) .

لئن رَحَلَتْ جِمالي لا إلى سعةٍ   لا مِثْلُها سعة عَرضاً ولا طولا

بحيث لو وُزِنَتْ لَخْمٌ بأجمعها   ما وازنت ريشةً من ريش سَمويْلا (٤)

وهكذا تطور معنى الموازنة من الأصل المادي الى المعنوي ، فالربيع بن زياد حين أراد أن يبين عظمة قبيلة سمويل كفة ميزان فلم يجد وقوتها تجاه لخم وضعفها صورها لنا بصورة مادية فكأنه وضع لخماً في ما يقابلها الا ريشة من ريش سمويل ! انها صورة متعلقة بالموازنة المادية ، والمعادلة بين اثنين متقابلين متماثلين :

وهناك معنى مادي اخر تطور عن معنى الموازنة الحسية إلا وهو معنى الموازين المستعملة في الكيل والوزن ، وهي وان كانت نتيجة للتطور

---

(١) عن المخصص ٢ : ١٦٣

(٢) انظر البيان والتبيين ١ : ١١١ — ١١٢

(٣) هو الربيع بن زياد بن عبد الله بن سفيان بن ناشب العبسي ، أحد دهاة العرب وشجعانهم ورؤسائهم في الجاهلية نادم النعمان بن المنذر ثم أفسد لبيد بينهما ، انظر المحبر ٢٩٩ ــ ٣٠٠ ، الأغاني ١٤ : ٩٢

(٤) شرح القصائد السبع : ٥٠٩

الاقتصادي والمعيشي في المجتمعات ، فاننا نجـد فيها صورة مادية قوية الصلة بالموازنة البدائية المطلقة عن التحديد ، وذلك حين يوضع شيئآن في كفتين متعادلتين أو في عدلين متقابلين . وقـد عرف العرب الموازين ومعاييرها خاصة في البيئة المكية التي نزلت فيها الآيات الخمسة السابقة باعتبارها مركزا دينياً يحجه سنوياً عدد كبير من العرب ، وبذلك يتيحون للمكيين سوقاً تجارياً للمبادلة والاستهلاك (١) . وقـد عثر الباحثون على عدد من اثقال الموازين التى كانت مستعملة في اليمن وعدن وصنعاء (٢) وقد قالوا في اللغة وزنت الشيء وزناً ، والميزان معروف (٣) :

وفي القرآن الكريم آيات تأمر بايفاء الميزان والكيل ، وعدم الخسران في الوزن (٤) : مما يؤكد شيوع استعمال الموازين ومعرفة العرب لها .

وهكذا صوّرت الآيات القرآنية الكريمة العدل المطلق يوم القيامة ورسمته بصورة مادية تنقـل الى الذهن العربي صورا عديدة من بيئته . صورة الموازنة والمعادلة بين الأشياء ، وصورة الميزان الدقيق الذي لايبخس احداً حقه ، فاعمال العبـاد يوازن بينها موازنة دقيقة فيحاسب الانسان على أعماله ان خيراً او شراً ، فان كانت اعمال الخير اكثر من أعمال الشر ، كان جزاؤه الجنة والثواب ، وان غلبت شرُوره حسناتـِه لقي العقاب في جهنم ، وُصوِّر هذا الحساب الدقيق بكفتي الميزان لانها اذا عودلت معادلة دقيقة لم تبخس الوزن شيئاً .

ب ـ المثقال والذّرة ، قال الله تعالى في سورة يونس : (وما تكونُ

---

(١) محاضرات في تاريخ العرب لصالح العلي : ٩٤

(٢) التاريخ الجغرافي : ٥٠

(٣) الصحاح ٦ : ٢٢١٣ ، وانظر ايضاً المخصص ١٢ : ٢٦٣

(٤) سورة المطففين ٨٣ : ١ ـ ٣

في شيءٍ ، وما تتلو منه من قرآنٍ ، ولا تَعْمَلُون من عَمَلٍ الا كنا عليكم شُهوداً ، اذ تفيضونَ فيه وما يعزب عن ربّك من مثقالِ ذرّةٍ في الأرضِ ، ولا في السماء ، ولا اصغرَ مِنْ ذلك ولا أكبرَ الا في كتابٍ مبينٍ) (١) . وقال الله تعالى ايضاً : (يَومئذٍ يَصْدُرُ الناسُ أشتاتاً لِيرَوْا أعمالهم فمن يعمــل مِثقال ذرَةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذرّةٍ شرّاً يَرَهُ) (٢) :

فاعمال الانسان مهما كانت ضئيلة يجدها امامه يوم القيامة ، ويحاسب عليها ان كانت خيراً او شراً ، وقد صورت هذه الدقة بمثقال الذرة . والظاهر ان المثقال من معايير الاوزان الصغيرة وقــد ذكر الجوهري انه (واحد مثاقيل الذهب) (٣) . ومن الصعوبة بمكان ان نحدد مقدار هذا الوزن ، لانه اختلف باختلاف البيئات والازمان (٤) . والمهم في هذا انه اطلق مثــلا في الصغر والضآلة (٥) . ولا يهمنا كون المثقال من معايير الاوزان التي استعملها البيزنطيون في امبراطوريتهم كما ذهب بعض الباحثين (٦) انما المهم في ذلك ان المثقال كان معروفاً في بلاد الشام ، وانتشر بين العرب ، وخاصة في البيئة المكيــة على اعتبارها مركزاً دينياً ، وممرا للقوافل التجارية (٧) . مما يعطينا صورة لشيوع استعمال المعايير عندهم

(١) سورة يونس ١٠ : ٦١
(٢) سورة الزلزلة ٩٩ : ٦ — ٨
(٣) الصحاح ٤ : ١٦٤٧
(٤) انظر اغاثة الامة : ٤٩
(٥) الصحاح ٤ : ١٦٤٧ ، وانظر ايضاً ديوان الشماخ : ١١٥
(٦) Ency . Of Islam . II . P . I023
(٧) انظر محاضرات في تاريخ العرب : ٩٤ وقد ذكر المثقال في الشعر مثلا في الموازنة ، انظر البيان والتبيين ٣ : ٣٧٤ ، مجالس ثعلب ١ : ٤٢٣

ثم فهمهم للآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر الموازين والمعايير :

وقد فسر المفسرون مثقال الذرة بانه زنة ذرة ، واقتران المثقال بالذرة يعطينا صورة أوضح للدقة المقصود بيانها في الآيات الكريمة ، لأن الذرة هي النملة كما قال المفسرون (١) . وكـذا قال اللغويون (٢) : وخصوها باصغر النمل .

وهناك من فسر الذرة بان (كل جزء من أجزاء الهباء في الكوة ذرة ، وفيه دليل على انه لو نقص من الاجر ادنى شيء واصغره ، أو زاده في العقاب لكان ظلماً ، وانه لا يفعله لاستحالته في الحكمة) كما قال الزمخشري (٣) . وكذا ورد المعنى في كتب اللغة (٤) :

واقتران المثقال بالذرة يعطينا صورة للدقة والعدالة التامة التي لا تترك للمرء حسنة قام بها في حياته الدنيا دون مجازاة ، ولا سيئة إلا ويحاسب عليها ، وقد قيل لعائشة رضي الله عنها وقد تصدقت بحبة عنب ، أتتصدقين بحبةِ عنب ؟ قالت : ان فيها لمثاقيل ذر (٥) . ويصوّر لنا هذا القول دلالة كلمة الذرة في الذهن العربي ، وكيف ان حبة العنب الصغيرة فيها مثاقيل عديدة من الذر . وفي حديث الجاحظ عند ذكر قوله تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَه ، ومن يَعْمَلْ مِثقالَ

(١) تنوير المقياس : ١٣٥ ، تفسير الخمسمائة آية : الورقة (٩٣) ، مجاز القرآن ١ : ٢٧٨ ، جامع البيان ١١ : ١٣٠ ، التبيان ٥ : ٤٦٠

(٢) مجالس ثعلب ٢ : ٤٧٥ ، جمهرة اللغة ١ : ٧٨ ، الصحاح ٢ : ٦٦٣ مقاييس اللغة ٤ : ٣٤٣ ، اساس البلاغة : ٢٩٦ ، لسان العرب ٥ : ٣٩١

(٣) الكشاف ١ : ٣٩٧

(٤) مقاييس اللغة ٢ : ٣٤٣ ، لسان العرب ٥ : ٣٩٠

(٥) الحيوان ٤ : ٣٢ ، ثمار القلوب ٣٤٩

ذرةٍ شراً يره) (١) . قال : (فكان ذلك دليلاً على انه من الغايات في الصغر ، والقلة ، وفي خفة الوزن وقلة الرجحان) (٢) . وقال ثعلب ان مائة منها وزن حبة من شعير فكأنها جزء من مائة (٣) .

ومن هنا تتبين لنا صورة الذرة ، وانها اطلقت على صغار الأشياء من النمل والتراب الدقيق الناعم ، ولا يوجد بين أيدينا من مصادر ما يشير إلى استعمال العرب ذرات التراب او النمـــل اساساً مادياً للموازنة بين الأشياء ، ومعادلتها ، إلا انه يمكن القول بأنهم ربما استعملوها في الموازنة بين الأشياء الدقيقه جـــداً ، لانهم ضربوا مثقال الذرة مثـلا في القلة والخفة (٤) .

ومما يدلنا على ان مثقال الذرة في الآيات الكريمة ضرب مثلا للدقة التامة في حساب يوم القيامة هو ورود آيات كريمة أخرى في غير مجال يوم القيامة . ضرب فيها مثقال الذرة مثـلا للدقة والضآلة ، فالآلهة التي يدعوها المشركون لا تملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض (٥) .

وهـذه الدقة نفسها صورت بتعبير آخر اقترن بالمثقال ايضاً . قال الله سبحانه وتعالى : (ونَضعُ الموازينَ القسطَ ليومِ القيـــامة . فـلا تُظلَمُ نفسٌ شيئا ، وإنْ كانَ مثقالَ حبةٍ من خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبين) (٦) . فلم تكتف الآيات الكريمة بذكر الموازين العادلة

(١) سورة الزلزلة ٩٩ : ٨

(٢) الحيوان ٤ : ٣٨

(٣) ثمار القلوب : ٣٤٩

(٤) ن : م

(٥) سورة سبأ ٣٤ : ٣

(٦) سوره الأنبياء ٢١ : ٤٧

التي توزن بها أعمال العباد ، انما ضربت حبة الخردل مثلا لدقة القضاء وعدالته ؛ وحبة الخردل معروفة كما يقول الجوهري (١) . ومن كلمة الخردل جاء استعمال مادي آخر وهو قولهم "خَرْدَلْتُ اللّحمَ" اذا قَطَّعْته قِطعا (٢) . وقال ابن فارس مفسرا العلاقة بين التعبيرين (خَرْدَلْتُ اللحمَ : قطّعتُه وفرّقتهُ ، والذي عندي في هذا انه مشبه بالحب الذي يسمى الخردل) (٣) :

ومن الواضح ان هذا التطور الجديد لمعنى الكلمة جاءها نتيجة لصغر حبة الخردل ومن هنا ضربت مثلا في الصغر والضآلة كما هو الحال مع الذرة (٤) :

ومع ان المصادر العربية لا تشير الى استعمال حبة الخردل في الوزن – كما هو الحال مع الذرة – فمن المحتمل ان يكون العرب قد استعملوها عياراً صغيراً للموازنة بين الأشياء الدقيقة ، وضربت الآيات الكريمة حبة الخردل مثلا لدقة الحساب والموازنة بين اعمال البشر .

ومن هنا تتضح لنا الصورة المتعددة الجوانب التي تعكسها لنا الآيات الكريمة في تصوير الحساب الدقيق ليوم القيامة ، وذلك انه حساب عادل لا يقبل للكافرين وساطة احد ، ولا تقبل منهم فدية ، ولا عدل ، لان

---

(١) الصحاح ٤ : ١٦٨٤

(٢) جمهرة اللغة ٣ : ٣٣٠ ، وانظر ايضاً الصحاح ٤ : ١٦٨٤ ، لسان العرب ١٣ : ٢١٥

(٣) مقاييس اللغة ٢ : ٢٤٩ ، وانظر ايضاً :

Arabic English Lexicon . Book 1 . Part 2 . P . 721

(٤) الوحشيات : ٢١٦ ، الحماسة البصرية الورقة ٢٦٨ (أ) الأشباه والنظائر : ٣٦

كل انسان محاسب على ما قدم وأخَّرَ في حياته ، ويوازن بين أعماله موازنة دقيقة عادلة ، يضاف الى ذلك جوارح الانسان كشهود (١) عدل تشهد على ما اقترفه في الحياة الدنيا ، فلا تظلم نفس شيئاً ، ولا يضيع عمل احد أبدا .

٣ ـ نتيجة القضاء :

بعد ان توازن اعمال الناس ، وتقاس حسناتهم وسيآتهم تظهر نتيجة القضاء العادل ، ومعرفة الانسان لقضاء الله فيه صور بتعبير قرآني رائع له دلالته علي البيئة العربيــة ، والتفكير العربي ، الى جانب تعبيره عن الغرض الأصلي المراد منه بيان العدالة المطلقة لحساب يوم القيامة .

فالمؤمن يستلم نتيجة القضاء بكتاب يأخذه بيده اليمنى ، أما الكافر فانه يستلم كتابه بيده اليسرى قال الله تعالى : (يومَ نَدْعُو كلَّ أناسٍ بامامِهم ، فمن أوتيَ كتابَه بيمينه ، فاولئكَ يقرأونَ كتابَهُم ، ولا يُظْلَمونَ فتيلا) (٢) : وعند استلام الانسان كتابه بيمينه تأخذه الفرحة فلا يستطيع كتمانها فينادي الناس حوله ان تعالوا شاركوني فرحتي واقرأوا نتيجة قضاء ربي . . . : اما الكافر فلا حاجة له بقراءة كتابه لان نتيجته معروفة ما دام قد استلمها بيده اليسرى . وفي سورة الحاقة نقرأ مشاهد عديدة ليوم القيامة حيث يحاسب الناس بعد النفير فمن استلم كتابه بيمينه يجد النعيم والثواب ، ومن استلمه بشماله يجد العقاب والعذاب : (فاذا نُفِخَ في الصُّورِ نفخةٌ واحدةٌ ، وحُمِلَتْ الأرضُ والجبالُ فدُكتا دكةً واحدة ، فيومئذٍ وَقَعَتْ الواقعةُ ، وانشَقَتْ السماءُ

(١) انظر سورة فُصِّلَتْ ٤١ : ٢٢

(٢) سورة الاسراء ١٧ : ٧١

فهي يومئذٍ واهيةٌ ، والمَلكُ على ارجائِها ويَحملُ عرشَ ربِّك فوقَهم يومئذ ثمانيةٌ يومئذٍ تُعرَضونَ لا تَخفى منكم خافيةٌ ، فامّا من أوتيَ كتابَهُ بيمينهِ فيقولُ : هاؤُمْ اقراؤا كتابيه ، اني ظَننْتُ اني مُلاقٍ حسابيه فهو في عيشةٍ راضيةٍ ، في جَنةٍ عاليةٍ ..... وامّا من أوتيَ كتابَهُ بشمالِهِ فيقولُ ياليتني لم اوتَ كتابيه ، ولم ادرِ ما حسابيه ، ياليتها كانت القاضية ... خذوه فغلوُّهُ ، ثم الجحيمَ صلوه ، ثم في سلسلةٍ ذَرعُها سبعونَ ذراعاً فاسلكوه) (١) .

وبهذا التعبير نفسه اطلق اسم اهل اليمين على المؤمنين الذين فازوا برضى الله وثوابه . اما الكافرون فقد اطلق عليهم اهــل الشمال قال الله تعالى : (واصحابُ اليمينِ ، ما أصحابُ اليمين ؟ في سِدرٍ مخضودٍ ، وطلحٍ مَنضودٍ ، وظِل ممدودٍ .... واصحابُ الشمالِ ، ما اصحــابُ الشمالِ ؟ في سَمومٍ وحَميم ، وظل من يحمومٍ ، لا باردٍ ولا كريم) (٢) .

وقد علل بعض المفسرين سبب تسميــة المؤمنين باصحاب اليمين ، وتسمية الكافرين باصحاب الشمال فقال بعضهم لان الطائفة الاولى تستــلم كتابها بيمينها ، والثانية بشمائلها (٣) او انهم يؤخذ بهم ذات اليمين الى الجنة ، والذين يؤخذ بهم ذات الشمال الى النار (٤) . او يعني به اصحاب اليمن والبركة والثواب من الله تعالى واصحاب المشأمة معناه الشر والنكد وعقاب الابد (٥) .

---

(١) سورة الحاقة ٦٩ : ١٣ – ٣٢ .

(٢) سورة الواقعة ٥٦ : ٢٧ – ٤٤ ، وانظر ايضا سورة المدثر ٧٤ : ٣٩ .

(٣) تنوير المقياس : ٣٣٨ ، تفسير التستري : ٩٧ .

(٤) جامع البيان ٢٧ : ١٧٠ ، التبيان ٩ : ٤٨٩ .

(٥) التبيان ٩ : ٤٨٩ .

وللمرء ان يتساءل : لماذا اصبحت اليمين دليل الخير ، والسعادة ، والشمال دليل الشر والعقاب المنتظر ؟ حتى اذا تسلم الانسان كتابه عرف نتيجة قضاء الله فيه من اليد التي يستلم بها كتابه .

لقد ذكر الزمخشري توجيها ادبيا لهذه التسمية فقال مضيفا الى ما سبق ذكره من تعليل تسمية اهل اليمين واهل الشمال بقوله : (واصحاب المشأمة الذين يؤتونها بشمائلهم او اصحاب المنزلة السنية ، واصحاب المنزلة الدنية ، من قولك : فلان مني باليمين ، وفلان مني بالشمال ، اذا وصفتها بالرفعة والضعة ، وذلك لتيمنهم بالميامين ، وتشاؤمهم بالشمائل ، ولتفاؤلهم بالسانح وتطيرهم من البارح ، ولذلك اشتقوا اليمن من اليمين ، وسموا الشمال الشؤمى . وقيل اصحاب الميمنة ، واصحاب المشأمة ، اصحاب اليمن والشؤم ، لان السعداء ميامين على انفسهم بطاعتهم والاشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم)(١) ومن هذا التعليل الاخير الذي يرى ان اهل اليمين سموا بذلك ، لانهم ميامين على انفسهم ، وبالعكس اهل الشمال ، من هذا التعليل نعود الى الفكرة الاولى في اطلاق اليمين على الخير ، والشمال على الشؤم ، ذلك اننا اذا عدنا الى البيئة العربية وجدنا فيها صدى الايات الكريمة واضحا في تفكير العربي ومثله . فالتشاؤم والتفاؤل لعبا دورا مهما في تفكير العربي ، وتوجيه تصرفاته ، واعماله ، ولنبدأ باليمين والشمال لانهما موطن بحثنا .

واول ما يتبادر الى الذهن هو فكرة الزجر (٢) ، ذلك انهم كانوا

---

(١) الكشاف ٣ : ١٩٣ ، وانظر ايضا تفسير التستري : ١٢١ .

(٢) انظر حول فكرة الزجر الحيوان ٣ : ٤٣٨ فما بعدها ، الزينة : الورقة ٢٥٢ (أ) ، زهر الاداب ٢ : ٤٩٠ فما بعدها ، وقد ذكر ابن النديم الكتب المؤلفة في الفأل والزجر وما اشبه ذلك . انظر الفهرس ٤٥ ، وانظر ايضا تاريخ العرب لجواد علي ٥ : ٣٢٨ .

يصيحون على الطائر او الظبي اذا مر بهم ، فان انحرف الى جهة اليمين تفاءلوا به وهو السانح ، وان انحرف الى جهـة اليسار تشاءموا منه وهو البارح (١) ، وقد ذكر بعضهم (٢) اختلاف القبائل العربية في التفاؤل ، والتشاؤم من البارح ، والسانح ، وليس لهذا الاختلاف اهمية كبيرة فيما نحن بصدده ، فالقرآن الكريم نزل بلغة قريش ، وتعابيرها ، واكثر ما وردنا من الشعر يمثل لنا الوجهة الاولى في التفكـير العربي : وهي التفاؤل من السانح ، والتشاؤم من البارح . قال زهير بن ابي سلمى :

فَلَما أنْ تَحَمَّلَ أهْلُ ليلى   جَرَتْ بَيْني وَبَيْنَهُمُ الظِباءُ
جَرَتْ سُنُحاً فقلتُ لها أجيزي   نَوىً مَشْمولَةً فَتى اللّقاءُ (٣)

وهناك تعليل لطيف أشار اليه المبرد لفكرة التفاؤل من الطائر إذا مر الى جهة اليمين ، والتشاؤم منه إذا مر الى جهـة اليسار قال : (والعرب تزجر على السانح وتتبرك به ، وتكره البارح ، وتتشاءم به . (والسانح ما أراك مياسره فأمكَنَ صائده ، والبارح ما أراك ميامنه فلم يُمَكِّن الصائد إلا أن ينحرف له) (٤) . وذكر ابن الأثير هذا التعليل مفصلا فيه : (والسانح ما مرَّ من الطير والوحش بين يديك من جهة يسارك الى يمينك والعرب تتيمن منه لأنه أمكن للرمي ، والصيد . والبارح ما مرَّ من يمينك الى يسارك والعرب

---

(١) جمهرة اللغة ١ : ٢١٦ ، الصحاح ٢ : ٦٦٨ ، مقاييس اللغة ١ : ٢٣٩ ، اساس البلاغة : ٣٩٤ .

(٢) جمهرة اللغة ١ : ٢١٦ ، المعاني الكبير ١ : ٢٧٣ ، وانظر ايضا :
Ency . Of Religion : Vol . 4 . P . 816 .

(٣) شرح ديوان زهير : ٥٩ ، وانظر أيضاً شرح ديوان لبيد : ١٤٤ ديوان عنترة : ٤١ ، ديوان جران العود : ٣ ، ٥٣ ، ديوان الحماسة : ١٧٩ .

(٤) الكامل للمبرد ١ : ٢٧٦ .

تتطير به ، لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف) (١) .

ويتبين لنا من هذا التعليل اللطيف مدى تأثير البيئة على تفكير الانسان وسلوكه سبل الحياة . فالبيئة العربية شحيحة بالمواد الغذائية ، مفتقرة الى ما يقوّم حياة البدوي فهمّه ان يجوب الفيافي يتابع ظبياً ، أو يخاتل طائراً ليحصل على رزق يومه فاذا تمكن من صيده فتلك فرحته وغنيمته يرجع الى أهله مسروراً ، وإن لم يتمكن من صيده رجع خائباً ومن هنا جاءت فكرة تفاؤله ، وتشاؤمه ، لأن مرور الطائر الى يمين الصائد معنـاه التمكن من صيده ، وبعكسها ان ابتعد الى جهة اليسار ، فانه بذلك يبتعد عن سلاح الصيد الذي يُحمل عادة باليد اليمنى ، فيفلت الطائر من صائده .

هذه هي الفكرة الأساسية للتفاؤل من السانح ، والتشاؤم من البارح أو بالأحرى فكرة اليمين والشمال . وقد ظلت هذه الفكرة عالقة في ذهن العربي حتى في الحالات التي لا يروم فيها الصيد ، وأصبح يستدل من حركات الحيوانات على ما يستقبله من خير أو شر ، كما كانت حاله من قبـل مع صيده إذا مرّ الى اليمين ، أو الشمال (٢) .

ويتبين مما مرّ بنا أن يدي الانسان هما الأساسان الأصليان في ظهور فكرة التفاؤل ، والتشاؤم . وكون اليد اليمنى هي القوية التي تعين الانسان على صيده هو الذي أوحى لهم بالتفـاؤل من الطائر ، أو الظبي إذا مرّ

---

(١) النهاية في غريب الحديث ١ ، ٨٥ .

(٢) انظر شرح ديوان كعب بن زهير : ٢٤٠ ، شرح اشعار الهـذليين ١ : ٤٢ . المعاني الكبير ١ : ٥٦١ . جمهرة أشعار العرب : ٤٣ . وانظر أيضاً المخصص ٦ : ١٩٥ ،

Ency - of Religion : vol . 4 . p . 816 - 8I7 .

سانحاً ، ومن هنا ايضاً جاء اطلاقهم اسم الشؤمى على اليد اليسرى (١) .

وقد ورد ذكر اليمين في القرآن الكريم دالة على القوة ، وذلك في قصة النبي موسى (ع) (فتولّوا عنه مُدبرين ، فَراغَ الى آلهَتِهِمْ . فقال : ألا تأكلون ؟ ما لكم لا تنطقون فراغَ عليهم ضرباً باليَمين) (٢) فقد اقترن الضرب في الآية الأخيرة باليمين ، لأن فيها القوة وشدة البطش فأخبرنا في الآية عن شدة ضربه لها ، وانما ذكر اليمين لأن قوة كل شيء في ميامنه (٣) . وقال تعالى أيضاً : « وَلَوْ تَقَوَّلَ علينا بعض الأقاويلِ ، لأخَذْنا منه باليَمينِ ، ثم لقَطَعْنا منه الوتينَ) (٤) .

ومن ثم اقترنت دلالة اليمين في الذهن العربي على الخير ، والبركة ، لأنها مركز القوة ، والسيطرة اللتان تشكلان عماد حياة العربي في بيئته المتخاصمة ، المتطاحنة ، فاذا أرادوا بيان مكانة الرجل عندهم قالوا : انه بمنزلة اليمين ، وبعكسها إذا أرادوا تحقيره قالوا هو بمنزلة الشمال ، قال ابن الدمينة (٥) :

---

(١) المخصص ٢ : ٣ .

(٢) سورة الصافات ٣٧ : ٩٠ - ٩٣ .

(٣) مجالس ثعلب ٢ : ٤٦٩ . وانظر أيضاً اسرار البلاغة : ٤٠٢ ، الخصائص ٣ : ٢٤٩ ، تلخيص البيان : ٢٨٧ ، الكشاف ٣ : ٣٩ . متشابهات القرآن ١ : ٨٠ . وانظر الشعر في ديوان الشماخ : ٩٧ .

(٤) سورة الحاقة ٦٩ : ٤٤ - ٤٦ .

(٥) هو عبد الله بن عبيد الله بن أحمد من خثعم ، والدمينة أمه ، شاعر بدوي كان رقيق الشعر ، وهو من شعراء العصر الأموي ، اغتاله مصعب بن عمر السلولي ، وهو عائد من الحج نحو سنة ١٣٠ هـ . انظر معجم الشعراء : ٤٠٢ والأغاني ١٥ : ١٤٤ .

أبيني أفي يُمْنَى يَدَيكِ جَعَلْتِنِي فأفرح أم صَيَّرتني في شمالكِ (١)

أي هل أنا من المقدمين عندك أم من المؤخرين ؟

ومن مجموع هذه الدلالات اشتقوا من اليمين اليُمن للدلالة على البركة والخـير ، فاذا امتدحوا شخصاً قالوا عنه انه ميمون (٢) ومن هنا نرى أن التعبير القرآني المعجز يعطي من الصور والايحاءات ما تعجز عن التعبير عنه صفحات طويلة .

(فأمَّا من أوتيَ كتابهُ بيمينهِ فيقول : هاؤُم اقرأوا كتابيه ، اني ظَننتُ إنّي مُلاقٍ حِسابيه ، فهُوَ في عيشةٍ راضية ، في جَنَّةٍ عالية ... وأمَّا من أوتيَ كتابَهُ بشمالِه ، فيقول : يا لَيتَني لم أوتَ كتابيه ، ولم أدرِ ما حِسابيه ، يا ليتها كانتْ القاضية... خُذوهُ فَغُلُّوهُ ، ثم الجحيم صلّوه ، ثم في سِلسلةٍ ذَرْعُها سبعونَ ذِراعاً فاسْلكُوهُ) (٤) . فالآيات الكريمة لم تفصّل في كيفية معرفة الناس نتيجة قضاء الله فيهم ، وإنما عرضت في تعبير جامع لكل الصور والايحاءات التي يتصورها الذهن العربي لليُمن ، والبركة والشؤم ، والشر . فاذا أردنا المغنى العام المقصود من الآيات الكريمة فهمنا أنه سبحانه وتعالى بعد أن يقضي بين الناس قضاء عادلا ينقسم الناس الى قسمين نتيجة أعمالهم فاذا كانت حسنة رضي الله عنهم وأثابهم وإن كانت سيآتهم كثيرة يئسوا ، لما ينتظرهم من العقاب ، والعذاب . هذا المغنى نجده في الآيات الكريمة محلّى باطار من الصور ، والايحاءات

(١) ديوان ابن الدمينة : ١٧ .

(٢) وقد وردت هـذه الفكرة في بعض الأساطير العربية انظر تاريخ العرب للأصمعي : ١٤ ،

(٣) جمهرة اللغة ٣ ، ١٨١ ، لسان العرب ١٧ : ٣٥ .

(٤) سورة الحاقة ٦٩ : ١٩ ـ ٢٢ ، ٢٤ ـ ٣٢ .

العالقة فى الذهن العربي في التيمن من اليد اليمنى والتشاؤم من اليسرى ، واطلاق اليمين على البركة والشمال على الشر والشؤم .

ومن هنا نستطيع أن نجمع كل المعاني التي ذكرها المفسرون في تسمية أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال . فأصحاب اليمين هم المفضلون ، لأنهم يثابون لأعمالهم الحسنة في الحياة الدنيا وهم أيضاً ذوو المنزلة الحسنة والمكانة المرموقة عند ربهم بعكس أهل الشمال .

هكذا تعرض الآيات الكريمة نتيجة القضاء بين الناس ، وإن المؤمنين ـ اصحاب اليمين ـ يلقون النعيم والثواب ، على حين يلقى الكافرون ـ أصحاب الشمال ـ العقاب والعذاب .

الفصل الخامس

العقاب

١ ـ عذاب النار

٢ ـ تسميتها

أ ـ جهنم

ب ـ الهاوية

ج ـ الجحيم

د ـ السعير

٣ ـ لهيب النار

٤ ـ شررها

٥ ـ شراب اهل النار

أ ـ الحميم

ب ـ الصديد

ج المهل

٦ ـ طعامهم

أ ـ الضريع

ب ـ الزقوم

٧ ـ صنوف اخرى من العذاب

أ ـ السلاسل والاغلال

ب ـ طلاء القطران

عذاب النار :

بعد ان يحاسب الناس حسابا دقيقـــا ، ويقضي بينهم ينقسمون الى فريقين : فريق المجرمين حيث العقاب والنار ، وفريق المؤمنين حيث الجنة والثواب . وفي المقابلة بين الصورتين يتجلى الاعجاز القرآني في تصوير البون الشاسع بين عقاب المجرمين ، ونعيم المؤمنين ، وكلتا الصورتين تشـــير في النفس احاسيس وصورا شتى تتراءى فيها ملامح البيئة العربية واضحة كل الوضوح ، كما نجد فيها صورا انسانية زاخرة بالحياة . يقرأها المرء فيفزع من صور العذاب ، ثم يعود ليطمئن ، ويرتاح عند قراءته لآيات النعيم :
قال الخطابي ذاكرا بلاغة القرآن وتأثيره السحري في النفوس (فانك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ، ولا منثورا ، اذا قرع السمع خلص الى القلب في اللذة ، والحلاوة في حال ، ومن الروعة ، والمهابة في اخرى ما يخلص منه اليـــه ، تستبشر له النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى اذا اخذت حظها منه ، عادت مرتاحة ، قد عراها الوجيب ، والقلق وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ...) (١) . قال الله تعالى : (فاما من أوتيَ كتابَهُ بيَمينه ِ فيقولُ هاؤُم اقرؤا كتابيه اني ظَنَنْتُ انّي مُلاق حسابيه ، فهو في عيشةٍ راضيةٍ ، في جَنــةٍ عاليةٍ ، قُطوفُها دانيةٌ كُلوا واشربُوا هنيئاً بما أسلَفتُم في الأيامِ الخالية واما من أوتيَ كتابهُ بشمالِه ِ فيقولُ : ياليتني لم أوتَ كتابيـــه ، ولم أدْر ما حسابيه ، ياليتها كانتْ القاضية ، ما أغنى عني ماليه ، هلَكَ عني سُلطانيه ، خُذوهُ فغلُّوهُ ثم الجحيم صلُّوه ثم في سلسلةٍ ذرْعُها سبعونَ

(١) رسالة في بيان اعجاز القرآن ٦٤ .

ذراعاً فاسلكوهُ ، إنّهُ كانَ لا يُؤمِنُ باللهِ العظيمِ ...) (١) . انه الاعجاز القرآني الرائع الذي ينقل النفس في لحظات متعددة من الهدوء الشامل ، والنعيم الرائع ، تنساب فيه ، وتتأمله باعجاب ، الى الخوف الرهيب والعذاب الموجع ترتاع منه ، وتتصدع خوفا وهلعاً قصور النار ، وعذابها الرهيب قد اذهلت المسلمين من عرب واعاجم ، كما اذهلت غير المسلمين ، فراحوا يبحثون عن تعليل يعللون به الرهبة العظيمة التي تثيرها التعابير القرآنية في وصف نار جهنم ولظاها .

لقد علل المتكلمون ترهيب زرادشت لأصحابه ، وتوعده لهم بعقاب الثلج دون النار بان زرادشت كان من اهل بلخ ، وهي منطقة لم يعرف سكانها (الا الاذى بالبرد ولا يضربون المثل الا به ، حتى يقول الرجل لعبده : لئن عدت الى هذا لانزعنّ عنك ثيابك ، ولاقيمنّك في الريح ، ولاوقفنّكَ في الثلجِ ، فلما رأى موقع البرد منهم هذا الموقع ، جعل الوعيد بتضاعفه ، وظن ان ذلك ازجر لهم عما يكره) (٢) .

وهذا التعليل صادر عن فكر عميق عارف باثر البيئة ، واهميتها ، بالنسبة لتفكير السكان ، وطبيعي ان يناقش المجوس وغيرهم عذاب نار الاخرة في القرآن الكريم من هذه الوجهة ايضا ، فقال بعضهم : (فلعل ايضا صاحبكم انما توعد اصحابه ، لان بلادهم ليست ببلاد ثلج ، ولا دمق وانما هي ناحية الحَرور ، والوهج ، والسموم ، لان ذلك المكروه ازجر لهم) (٣) . وقد رد الجاحظ على هذا الادعاء بان العرب لم يعرفوا السموم

---

(١) سورة الحاقة ٦٩ : ١٩ - ٣٤ .

(٢) الحيوان ٥ : ٦٧ .

(٣) ن . م ٥ : ٦٩ والدمق : الثلج مع الريح يغشى الانسان من كل أوب حتى يكاد يقتل من يصيبه .

والوهج القاتل فحسب ، انما عرفوا التطرف المناخي في بيئتهم من حر ، وبرد . قال : (فقلت له : ان اكثر بلاد العرب موصوفة بشدة الحر في الصيف ، وشدة البرد في الشتاء ، لأنها بلاد صخور ، وجبال . والصخر يقبل الحر والبرد، ولذلك سمت الفرس بالفارسية العرب والاعراب « كهيان » والكه بالفارسية هو الجبل ، فمتى احببت ان تعرف مقدار برد بلادهم في الشتاء ، وحرها في الصيف ، فانظر في اشعارهم ، وكيف قسموا ذلك ، وكيف وصفوه ، لتعرف ان الحالتين سواء عندهم في الشدة ....) (١)

ورد الجاحظ هنا مفحم للزرادشتية ، ومن يذهب مذهبهم ، لان النار التي يصفها الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم لم يصفها عقابا للعرب فحسب وانما هي عقاب وترهيب للبشرية جمعاء ، يرهب منها الناس الذين عانوا لظى الحر الشديد ، كما يرهب منها من لم يعان الحر ، لانه عرفها من الوجهة الثانية حين اتخذ النار وسيلة للتدفئة وقت البرد .

ونجد مصداق قول الجاحظ في تأمل مناخ البيئة العربية المتطرف ، ذلك لان العرب عرفوا التطرف المناخي في بيئتهم ، وساعدتهم هذه المعرفة على تصور الصور الرهيبة لعذاب الاخرة لانهم عانوا بعض جوانبها ايام الحر والسموم ، كما ساعدتهم ايام البرد الشديد على معرفة النعيم الرائع الذي وعد به المتقون في جنة معتدلة الهواء ، وارفة الظلال :

فقد وصفت معظم اقاليم الجزيرة العربية بشدة الحر ، والسموم المؤذية (٢) . وفي الاحاديث النبوية الشريفة ما يعكس شدة الحر التي كان المسلمون يعانونها في بعض المواسم حتى امر الرسول (ص) بتأخير

(١) الحيوان ٥ : ٦٧

(٢) احسن التقاسيم : ٩٥ ، آثار البلاد : ٨٦ .

صلاة الظهر الى ان تمر الهاجرة لانها كما يقول : (شدة الحر من فيح جهنم) (١) .

اما شدة الحر في مكة فيعكسه حديث نبوي اخر وهو قوله (ص) (من صبر على حر مكة تباعدت منه جهنم مائة عام ، وتقربت منه الجنة مائتي عام) (٢) ، وعدم تحديد النبي (ص) لمدة الصبر يزيد في تصوير شدة الحر ولظاه في مكة .

وكذلك صفة المدينة وحرها التي يكون فيها النبي (ص) شفيعا لمن يصبر على لأواءها (٣) .

اما في الشعر العربي فاننا نجد فيه صور الحر يعرضها الشعراء بدقة وتفصيل لا نجدها في المعاجم الجغرافية . فقد وصفوا سيرهم وقت الهاجرة ، وكيف ان شدة الحر تجاوز أذاهم الى اذى حيواناتهم . فالناقة يصيبها الهزال (٤) . وتحتفر الظباء والثيران كُنُسا تتقي فيها لفح الهاجرة(٥) وفصلوا في وصف صورة الحيوانات حين تنزى من اذى الرمضاء كالضباب(٦)

---

(١) الموطأ ١ : ١٦ ، سنن ابي داود ١ : ٩٦ ، الجامع الصحيح ١ : ٢٩٥

(٢) مختصر البلدان ١٧ ، معجم البلدان ٤ : ٦١٩ .

(٣) مسند الامام احمد ٢ : ١١٣ ، ١١٩ ، ٢٨٨ ، ٣٤٣ ، ٣٩٧ ، وانظر ايضا اثار البلاد : ١٠٨ ، وفاء الوفا ١ : ٤ فما بعدها .

(٤) انظر ديوان الشماخ : ١٣ .

(٥) ديوان طرفة : ٣٨ ، ديوان سحيم : ١٥ ، ديوان الشماخ : ١٢، المفضليات ١٣٣ ، شرح القصائد : ١٦٢ .

(٦) انظر الحيوان ٦ ، ١٣٦ .

والجنادب (١) ، والحرباء (٢) ، بل نرى بعضهم يبالغ في وصف لهيب الحر فيقول عنه انه يكاد يشوى اللحم (٣) او ان ملابسهم تكاد تشتعــل لشدة لفح الهاجرة (٤) .

ووصفوا ايام الحر باوصاف كثيرة واسمــاء عديدة (٥) . على ان شدة الحر هذه لاتؤيد قول من اعترض بأن عذاب الآخرة كان بواسطة النار لان العرب اهل سموم ، وحر شديد ، ذلك لأنهم مع معاناتهم الحر الشديد ، فقد عانوا البرد القارص في بيئتهم ايضــا (٦) ، وذكروه في اشعارهم - وان لم يبلــغ مبلغ الحر في اذاه وشدته - وقد فسر بعض المفسرين الغساق الذي يسقاه اهل النار (٧) ، بانه السائل الذي لا يستطيعون ذوقه لشدة برده (٨) مما يدلنا على انهم عرفوا اذى البرد كما عرفوا اذى الحر ، وانهم فهموا ان البرد يمكن ان يكون وسيلة من وسائل التعذيب. ومعرفتهم للحر والبرد هو الذي ساعدهم على تصور عذاب القيامة ، وتخيل نعيم الجنة .

---

(١) انظر ديوان كعب بن زهير: ١٦ ، المفضليات : ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، الملاهي واسماؤها الورقة ٣٢ .

(٢) انظر ديوان امرىءالقيس ٣٠٤ ، ديوان كعب بن زهير، ١٤ ، ٢٥٢، ديوان شعر ذى الرمة : ٤٧ ، اراجيز العرب : ١٠ ، الحيوان ٦ : ٣٦٦ .

(٣) المفضليات : ١٩٩ شرح ديوان الحماسة ٤ : ١٨٠٣ .

(٤) ديوان القطامي: ٢٦ ، ٢٧ ، اراجيز العرب : ١٢١ .

(٥) العين : ١٥ ، الازمنة لقطرب : ٤٠ .

(٦) انظر الفصل السادس : الثواب بالجنة - ٢ - اعتدال جوها .

(٧) سورة ص ٣٨ ، ٥٧ ، النبأ ٧٨ : ٢٥ .

(٨) جامع البيان ٣٠ : ١٣ - ١٤ ، الكشاف ٣ : ١٨٤ .

ومما مر بنا تتبين لنا شدة الحرارة التي كان العرب يعانونها في بيئتهم وانها جاوزت أذاهم الى اذى حيوانهم ، ودوابهم ومن هنا نستطيع ان نتصور اي ايحاء رهيب ترسمه الآيات الكريمة في وصف هول النار ، وعذاب لهيبها قال الله تعالى واصفا لظى النـــار المحرق : (يُبصرونهم يَود المُجرمُ لو يَفتدِي من عذاب يومئذٍ ببَنيهِ ، وصاحبتِه وأخيه ، وفَصيلتِه التي تُؤويه ، ومَنْ في الأرضِ جميعا ثم يُنجيهِ ، كلاّ إنّها لَظى ، نَزاعة للشَّوى ، تَدعو من أدبَر وتَولّى) (١) . انها صورة تعيد الى الذاكرة اذى الحر ولفح الهـــاجرة حتى اذا تجسدت هذه الصورة جاءت الآيات القرآنية الكريمة لتزيد ايحاء الرهبة ، والهلع بان حر النار وعقابها لا يقارن بصورة من صور الحياة الدنيـــا ، ولا تدركه عقول البشر مهما تخيلته ، (سأُصليه سَقرَ ، وما أدراكَ ما سَقَرُ ، لا تُبقي ، ولا تَذَرُ لَوّاحةٌ للبَشَرِ) (٢) . وقال تعالى ايضا : (كلاّ لينبذنَّ في الحُطَمةِ ، وما أدراكَ ما الحُطَمةُ ، نارُ اللهِ الموقدةُ ، التي تَطلّعُ على الأفئدةِ) (٣) انه استبعاد للذهن من ان يتصور نار الآخرة كما يصفها الله سبحانه وتعالى ولكنه يستطيع ان يتصور بعض ملامحها فيما عاناه في حياته الدنيا من الاذى والعذاب ، ومما ترسمه الآيات القرآنية الكريمة من صور العذاب في البيئة العربية .

---

(١) سورة المعارج ٧٠ : ١١ ـ ١٧ .

(٢) سورة المدثر ٧٤ : ٢٦ ـ ٢٨ .

(٣) سورة الهمزة ١٠٤ : ٤ ـ ٧ .

٢ - تسميتها :

ورد تعبير النار فى احدى وعشرين ومائة آية فى القرآن الكريم (١) على أنها دار العذاب التي يحل بها المجرمون يوم القيامة ، ويعذبون بلهيبها ولظاها المحرق . وقد سميت بعدة أسماء تجتمع كلها لترسم صورة العذاب ، الرهيبة . فقد أطلق عليها اسم جهنم ، والجحيم ، وهي نار الحريق (٢) ، واللظى (٣) وهي السعير وسَقَر .

أ - جهنم :

أما جهنم فقد اختلف المفسرون في أصلها ، فقال بعضهم أنها عربية وأنها مشتقة من قولهم بئر جهِنّام ، للبعيـــدةِ القَعْر (٥) . وقال بعضهم أنها عربية مأخوذة من التَجَهُّمِ والتَكَرُّه ، ويقال جهمُ الوجـــهِ أي كريه الوجه (٦) .

---

(١) انظر المعجم المفهرس ٧٢٣ - ٧٢٥ .

(٢) سورة آل عمران ٣ : ١٨١ . الانفال ٨ : ٥٠ ، الحج ٢٢ : ٩ ، البروج ٨٥ : ١٠ .

(٣) المعارج ٧٠ : ١٥ ، سورة الليل ٩٢ : ١٤ .

(٤) وقد وردت في سبع وسبعين آية انظر المعجم المفهرس ٧٧ : ١٨٤ - ١٨٥

(٥) انظر الاشتقاق : ٣٥٤ ، جمهرة اللغة ٣ : ٤٠٤ ، المخصص ١٠ : ٣٦ ، لسان العرب ١٤ : ٣٩٦ ، النهاية في غريب الحديث ١ : ١٩٢ ، الألفـاظ السريانية ، مجلة المجمع العلمي العربي م٢٣ ج٣ : ٣٤٥ .

(٦) الزينة : الرازي ٢١٢ .

أما الفريق الثاني فقد قالوا بأعجميتها ، واختلفوا في أصلها أيضاً ، فقال بعضهم أنها فارسية (١) ، وقال آخرون بل هي سريانية (٢) .

ويبدو ان أرجح الأقوال هو قول من قال بأنها عبرية الأصل . قال يونس بن حبيب وقيل هو تعريب كهِنّام بالعبرانيــة (٣) ، ويرى .

كاراديفو :ان الكلمة مشتقة من اللفظ العبري جِيحون ، أو وادي هِنّوم (٤)وكان وادياً بالقرب من بيت المقدس تُقَدّم فيه القرابين) (٥) .

ومع ترجيحنا كون جهنم عبرية الأصل ، فاننا نجد فيها دلالة واضحة للبيئة العربية ، وذلك ان الألفاظ الأعجمية حين تطلق على مسمياتها ، إنما تعكس سبب اختيار العرب لها ، وتعكس لنا تفكير من أطلقها ، ودلالتها في ذهنه . فجهنم حين عرفت في العبرية بالوادي العميق ، وجد العربي فيها صورة لمظهر من مظاهر بيئته ، ألا وهي صورة الآبار التي اعتمد عليها في حياته الى جانب الأمطار . فكان منها الغميقة القعر ، وكان منها الصغيرة الضحلة ، فاستعار لفظة جهنم للدلالة على البئر العميقة (٦) ومن هنا جاء التعبير القرآني ليربط بين المعنى المادي المستمد من البيئة العربية وبين أصل الكلمة الذي عرفته العبرية بالوادي العميق ومعان الكلمة عبرية الأصل فمن الممكن أن نضيف الى مغناهـا قول من قال انها عربيـة

---

(١) الصحاح ٥ : ١٨٩٢ ، المعرب : ١٠٧ ، المفردات : ١٠١ .

(٢) الألفاظ السريانية ، مجلة المجمع العامي العربي م ٢٣ ج ٣ : ٣٤٥ .

(٣) انظر لسان العرب ١٤ : ٣٩٧ .

(٤) انظر الكلمة في قاموس الكتاب المقدس ٢ : ٤٥٤ .

(٥) دائرة المعارف الاسلامية ٧ : ١٩٥ ،

(٦) راجع الصفحة السابقة .

الأصل ، وأنها مشتقة من التجهم والتكره (١) ، ذلك لأن هـذا المعنى يعطينا فكرة عن الصورة التي رسمها العربي في ذهنه لجهنم . وكيف انها شديدة على الـكافرين ، تحطمهم ، وتأخذهم بقوة (٢) . وهي عميقة القعر بعيدة الأغوار ، يهوي فيها المجرم ، فلا يجد له قراراً ، وهو معنى ، رسمه تعبير قرآني آخر وهو :

ب ـ الهاوية :

قال الله تعالى : (فأمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَهُوَ في عِيشَةٍ راضيةٍ ، وَأمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُمُّهُ هاويةٌ ، وَمَا أدراكَ ما هيَ ؟ نارٌ حاميةٌ) (٣) . فقد قالوا فى تفسير الهاوية بأنها سميت كذلك لأنها عميقة يهوي من يرمى بها إلى قعرها العميق (٤) .

(١) راجع الصفحة السابقة .

(٢) وقد تعسف كارادي فوفي شرحه لتصور المسلمين لجهنم حين زعم أن الرسول (ص) تمثلها في بعض الآيات على صورة حيوان . فهي في نظره أشبه بوحش هائل فغر فاه ، وكشف عن أنيابه وتأهب لالتهام المغضوب عليهم . انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة جهنم ٧ : ١٩٦ . وهذا تعسف من الكاتب لأن الاسلوب القرآني المعجز قد سار في معظم آياته - خاصة في الترهيب والترغيب - برسم صور مجازية تثير الذهن ، وتهزه هزاً ، وهي معانٍ لا يدركها إلا من عرف أسرار العربية ، وروعتها في التعبير ، والمجاز .

(٣) سورة القارعة ١٠١ : ٦ — ١١ .

(٤) انظر تنوير المقياس : ٣٩٤ ، جامع البيان ٣٠ : ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، الزينة ٢ : ٢١٢ ، التبيان ١٠ : ٤٠١ . وقد ورد في قاموس الكتاب المقدس أن =

وذهب بعضهم بتعبير الأم الى معناهـا الحقيقي المشهور . روى الطبري عن ابن عباس قوله : (وإنما جعلَ النارَ امـّهُ ، لأنها صارتْ مأواهُ ، كما تؤوي المرأةُ ابنها) (١) . وقال ابن قتيبة : (كانت الأم كافلة الولد وغاذيته ومأواه ، وقريبته ، وكانت النار للكافر كذلك ، جعلها امـّه) (٢) . ويؤيد هذا التفسير قوله تعالى واصفاً الجنة والنار بالمــأوى : (فأمـّا من طـَغىٰ ، وآثـَرَ الحـَياةَ الدُنيا ، فان الجـَحيمَ هي المــأوىٰ ، وأمـّا مـَنْ خافَ مـَقـامَ رَبـِّهِ ، وَنهـىٰ النـَّفسَ عـَنِ الهـَوىٰ ، فـَإنَّ الجـَنـَّةَ هي المأوىٰ) (٣) ، وكون جهنم بمنزلة الأم للـكافر ، وانها الهاوية أُعتمد في فهمها على استعمال لغوي وهو قولهم : هـَوَتْ امـُّهُ أي هـَلـَكـَت (٤) ، وهـَوَتْ امـُّهُ فهـي هاوية أي ثاكلة (٥) .

ويمكن القول أن هـــذا المعنى متطور عن المعنى الحسي الأول وهو السقوط والتردي لأن من يهلك أو تصيبه مصيبـة تثكل امه ، وفي ذلك هلاك لها لعظم مصيبتها . ونقل أبو حاتم الرازي تفسيراً آخر وهو قولهم أن النار

= (هاوية ترجمة لكلمة شبول العبرانية ، ومعنى هذه الـكلمة في الأصل موضع الموتى ، وتوصف الهاوية بالعمق) انظر قاموس الكتاب المقــدس ٢ : ٤٥٨ ، ومع أن دلالة الكلمة في العبرية هي نفسها في العربية إلا أن هذا لا يعني أنها أعجمية لأن دلالتها في العربيـــة مشهورة ، واستعمالها اللغوي معروف . انظر الصحاح ٦ : ٢٥٣٨ ، لسان العرب ٢٠ : ٢٤٨ .

(١) تأويل مشكل القرآن : ٧٧ ، انظر أيضاً جامع البيان ٣٠ : ٢٨٣ .

(٢) انظر جامع البيان ٣٠ : ٢٨٢ ، وانظر أيضاً تنوير المقياس : ٣٩٤ .

(٣) سورة النازعات ٧٩ : ٣٧ – ٤١ .

(٤) لسان العرب ٢٠ : ٢٥٠ :

(٥) الصحاح ٦ : ٢٥٣٩ ، وانظر لسان العرب ٢٠ : ٢٥٠ .

سميت كذلك لأنهم يهوون فيها أبداً (يعذبون لا يستقرون ، ولا يجدون قراراً فهم يهوون ، وهو مأخوذ من الهواء بين السماء والأرض ، كأنهم أبداً في الهواء لا قرار لهم) (١) . ويبـــدو ان التفسير الأول ، وهو أن الهاوية وصف لنار الآخرة بأنها عميقة يهوي فيها المجرمون ، هذا التفسير ارجح التفاسير الأخرى ، لأنه ينسجم مع الوصف العام للنار ، وكيف انها رهيبة مخيفة عميقة ، يهوي فيها المجرم فلا يجد لها قراراً ، وهو معنى ورد في اللغة حين قالوا : هوي في البئر إذا سقط فيها وتردّى (٢) ومن الطبيعي أن ينتشر هذا الاستعمال اللغوي نظراً لكثرة الآبار ، وما يطرأ للعربي في سيره في الصحراء من تعرضه الى السقوط والزلل في حفرة ، أو بئر قديمة ويؤيد هذا التفسير قوله تعالى : (انّ المنـــافقينَ في الدركِ الأسفل من النّار ولن تجدَ لهم نصيراً) (٣) .

ج - الجحيم (٤) :

قال الله تعالى : (والذين كفروا بآياتنا اولئكَ اصحابُ الجحيمِ) (٥) وقال ايضا : (فأمّا إنْ كانَ من المقربين ، فروْحُ وريحانٌ وجناتُ نعيمٍ . وامّا إنْ كانَ من اصحابِ اليمينِ ، فسلامٌ لكَ من اصحاب اليمين

---

(١) الزينة ٢ : ٢١٢ .

(٢) الصحاح ٦ : ٢٥٣٨ ، لسان العرب ٢٠ : ٢٤٨ .

(٣) سورة النساء ٤ : ١٤٥ .

(٤) وقد وردت في ست وعشرين آية انظر المعجم المفهرس : ١٦٤ - ١٦٥

(٥) سورة المائدة ٥ : ١١ .

وأما إن كانَ من المكذبينَ الضالينَ ، فنزُلٌ من حميم ، وتصلية جحيم) (١) فالجحيم في الآيات السابقة ، تعبير اخر وصفت به نار الاخرة لشدة تأججها وحرها (٢) ، من قولهم جَحَمتْ النارُ اذا اضطرمت (٣) ، وحجر جاحم اذا اشتد اشتعاله (٤) . قال الاعشى :

بمشعلةٍ يغشى الفراشُ رشاشها   يبيتُ لها ضوءٌ من النارِ جاحم (٥)

اي ضوء نار متوقد شديد الحرارة . وقال قيس بن الخطيم :

ونصدُقُ في الصباحِ إذا التقينا   ولو كانَ الصباحُ جحيم جمْر (٦)

فقد اطلق الجحيم هنا على شدة الحر والتهابه ، واستعاروا هذا اللفظ في التعبير عن شدة الحرب واستعارها (٧) .

فلفظة الجحيم تصور شدة الحر في البيئة العربية ، وتعكس لنا اهمية البيئة في ايجاد التعابير والالفاظ ، وكيف ان شدة الحر جعلتهم يديرون في كلامهم تعابير عديدة تصف شدة الحر والتهابه . وتسمية النار بالجحيم تشترك مع التعابير الاخرى في رسم صورة لهيب النار وعذابها الموجع .

---

(١) سورة الواقعة ٥٦ : ٨٨ - ٩٤ .

(٢) جامع البيان ١ : ٥١٧ ، الزينة ٢ : ٢١١ ، التبيان ١ : ٤٣٧ المفردات: ٨٦ النهاية في غريب الحديث ١ : ١٤٥ .

(٣) الصحاح ٥ : ١٨٨٣ ، المفردات : ٨٦ ، اساس البلاغة : ١٠٩ .

(٤) جمهرة اللغة ٢ : ٥٩ .

(٥) ديوان الاعشى : ٨١ .

(٦) ديوان قيس بن الخطيم : ٦١ تحقيق ابراهيم السامرائي .

(٧) انظر شرح ديوان الحماسة ٢ : ٥٠٠ ، ٤ ، ١٨٦٢ .

د ـ السعير (١) :

قال الله سبحانه وتعالى : (كُتِبَ عليه انه من تولاه ، فإنَّهُ يُضِلُّه ، ويهديهِ الى عذاب السعير) (٢) . وفُسّر السعير بالنار الموقدة (٣): (بلْ الساعة موعِدُهُمْ والساعَةُ أدهى وأمرُّ إن المجرمين في ضَلالٍ وسُعُر ، يوم يُسْحَبون في النار على وجوههمْ ذُوقوا مسَّ سقَرَ) (٤) وفسر بعضهم السُعُر في هـذه الآيات الكريمة بالحريق والنيران : (٥) وخص بعضهم السُعُرَ بالعناء (٦) فقط ، ويمكن ان نجمع هذين التفسيرين بان الحريق الذي يعذب به المشركون يتركهم في عناء ، ونصب .

وهناك من فسر السعر بالجنون روى السجستاني : (سُعُر جمع سَعيرٍ في قول ابي عبيدة . وقال غيره : في ضلال وسعر ، في ضلال وجنون ، يقال : ناقة مسعورة اذا كان بها جنون) (٧) . وقال الزمخشري (السعر الجنون . يقال : ناقة مسعورة قال :

كأنَّ بها سُعْراً اذا العيس هزها ذميلٌ وإرخاءٌ من السَيرِ متعِبُ (٨)

(١) وقد وردت في ست عشرة آية انظر المعجم المفهرس : ٣٥٠ ـ ٣٥١ .

(٢) سورة الحج ٢٢ : ٤ .

(٣) تنوير المقياس : ٢٠٦ مجاز القرآن ١ : ١٣٠ ، جامع البيان ١٧ : ١١٦ .

(٤) سورة القمر ٥٤ : ٤٦ ـ ٤٨ .

(٥) مجاز القرآن ٢ : ٢٤١ ، جامع البيان ٢٧ : ١٠٩ ، الكشاف ٣ : ١٨٦ .

(٦) تنوير المقياس : ٣٣٥ ، الفراء عن لسان العرب ٦ ، ٣١ : جامع البيان ٢٧ : ١٠٩ .

(٧) غريب القرآن : ١٣٦ ، وكذا قول الفارسي في المحكم ١ : ٢٩٩ .

(٨) الكشاف ٣ : ١٨٤ .

وكذا ورد معنى السعر في كتب اللغة (١) . وتفسير السعر بالجنون واقترانه بالناقة المسعورة يثير الانتباه ، لانه ابتعد عن معنى الحريق ولأنه اقترن بالناقة التي اعتادها العربي وجعلها صديقته في سيره الطويل فخبر كل حركاتها ، وسكناتها ، وعرفها في حالات مرضها وصحتها ، فاذا اصابها السعر ركضت على غير هدى ، واسرعت في سيرهـا ، ومن هنا فسر بعضهم السُعُر بالجنون في قوله تعالى : (ان المجرمين في ضلالٍ وسُعُرٍ) (٢) لان المجرمين في النار يفقدون رشدهم ، وتفكيرهم ، لشدة العذاب وهول النار ، ويكونون في ضلال وحيرة ، فيشبهون بذلك الناقة المسعورة التي اصابها الجنون ، فسارت على غير هدى . اما في المجال اللغوي فنجد ان الكلمة اطلقت في الاصل على اشتعال النار وشـدة حرارتها (٣) ، فاذا كانت الريح شديدة الحرارة قويـة - وهي التي يسمونها السموم - اطلقوا عليها اسم السُعار (٤) ، لان شدة حرارتها شبيهة بشدة حرارة النـار ، واشتعالهـا . واذا كان المفسرون لم يشيروا الى معنى السموم في تفسيرهم الآية الكريمة فاننا نفهمه من دلالة الكلمة اللغوية ، ومن ورود السموم في

---

(١) انظر قول الخليل في المخصص ٣ : ٥٥ ، ٧ : ١٢٢ ، وانظر ايضا غريب القرآن : ١٣٦ ، الصحاح ٢ : ٦٨٥ ، لسان العرب ٦ : ٣٠ .

(٢) سورة القمر ٥٤ : ٤٧ .

(٣) جمهرة اللغة ٢ : ٣٣٠ ، الصحاح ٢ : ٦٨٥ ، مقاييس اللغة ٣ : ٢٧٥ ، الزينة ٢ : ٢٠٨ ، المحكم ١ : ٢٨٩ ، اساس البلاغة : ٤٤٠ ، النهايـة في غريب الحديث ٢ : ١٦٢ . وانظر الشعر في شرح ديوان زهير : ٢١٤ ، المفضليات : ٨٤ الوحشيات : ١٢١ .

(٤) الخليل عن المخصص ٩ : ٩٠ ، جمهرة اللغة ٢ : ٣٣٠ ، الصحاح ٢ : ٦٨٥ مقاييس اللغة ٣ : ٧٥ ، المحكم ١ : ٢٩٩ .

القرآن الكريم ، فقد وصف الله سبحانه وتعالى عذاب النـــار بانه عذاب السموم ، حيث يفرح المؤمنون بنجاتهم من النـــار فيتباشرون بينهم (وأقْبَـــلَ بعضُهم على بعضٍ يتساءلونَ : قالوا انّا كنـــا قبـــلُ في اهلنا مشفِقِينَ ، فمنَّ اللهُ علينا ، ووقانا عذابَ السَّمومِ) (١) . وقال الله تعالى واصفا اصحاب الشمال : (واصحابُ الشِمالِ ، ما اصحابُ الشِمالِ ، في سَمومٍ وحَميمٍ ، وظلٍ مِنْ يَحمومٍ ، لا باردٍ ولا كَريمٍ)(٢)

لقد عانت البيئة العربية من لفح السموم الحارة ما عانت ، ولم يقتصر اذاها على الانسان بل جاوزته الى الحيوان ، فذكر ذلك الشعراء في اشعارهم ووصفوا الصُوَر التي اعتادوها عند هبوب السموم ، واشتداد الحر (٣) ، حتى اذا جاء التعبير القرآني واصفا عذاب الكافرين : (بل الساعةُ موعدهم والساعة ادهى وأمر ان المجرمين في ضَلالٍ وسُعُر ، يوم يسحَبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سَقَر) (٤) تذكر العربي السعار وتمثلت له لظاه الحارة فاستطاع ان يتصور الايحاءات الرهيبة التي توحيها الآيـــة الكريمة في تصوير عذاب المجرمين .

وهناك معنى اخر للكلمة ، وهو قولهم اذا اشتد العطش والجوع . استعر : قـــال ابن السكيت (٥) (رجل مسعور وبـــه سُعار اي جوع

---

(١) سورة الطور ٥٢ : ٢٥ ـ ٢٧ .

(٢) سورة الواقعة ٥٦ : ٤١ ـ ٤٤ .

(٣) انظر شرح ديوان لبيد : ١٠٢ ، ديوان الشماخ : ٨٣ ، المفضليات ١٨٢ شرح ديوان الحماسة ٤ : ١٨٠٣ ، الجبال والامكنة : ٤٦ ، ذيل النوادر : ٢٠٧ الطرائف الادبية : ٦٢ معجم البلدان ١ : ١٥٥ .

(٤) سورة القمر ٥٤ : ٤٦ ـ ٤٨ .

(٥) ابن السكيت في المخصص ٥ : ٣٥ ، وانظر ايضا جمهرة اللغة ٢ : ٢٣٠ =

وشَهوة) . وقال الزمخشري ، (ومن المجــاز : . : وبه سُعار وهو توهج العطش) (١) ، فكأن شدة العطش تلهب فى جوف الانسان حرارة شبهوها بالنار . ونستطيع ان نفهم هذا المعنى اللغوي فى الآية الكريمــة السابقة ، لان معنى العطش معنى عاشه البدوي في بيئته ، واحسّ به في اسفاره الطويلة ، حين يتشوق الى قطرة من الماء تروي ظماه ، ومع انهم قالوا ان السُّعار شدة العطش او الجوع ، الا ان دلالة العطش على البيئة العربية اوضح من دلالته على الجوع (٢) ومع ذلك يمكن اضافــة المعنى الاخير الى التفاسير السابقة لتجتمع صور العذاب والحرمان في عذاب النار

فاذا جمعنا كل هذه التفاسير عرفنا اي اعجاز عظيم تحماه كلمــة واحدة في تسمية نار المجرمين يوم القيامــة ، لانها تجمع عدة صور رهيبة عاشها البدوي في حياته وعانى من اذاهــا ما عانى ، فيكون معناها ان المجرمين في ضلال ، وحيرة من حر النار ، ولظاها المؤذي . وتنقلهم هذه الصورة الى صورة السموم الحارة التي عانوها في بيئتهم ، ومع عذاب النار يجتمع الحرمان من الماء والطعام ، بكل ما يحمله معنى العطش من معان رهيبة لها دلالتها على النفس العربية . ثم هم فاقدو الوعي حائرون ، تائهون يشبه حالهم حال الناقة المسعورة التي تركض على غير هدى ، وتسير الى غــير غاية ، هم حيارى ، عطاشى ، تلفحهم السموم بحرها ، وتحرقهم النيران بلظاها كل هذه الصور يعكسها التعبير القرآني في تسمية النار ووصفها بالسعر (٣)

= الصحاح ٢ : ٦٨٥ ، فقه اللغة : ٥٠ .

(١) اساس البلاغة ٤٤ ، وانظر ايضا لسان الغرب ٦ : ٣٠ .

(٢) انظر الفصل الخامس ـ ٦ ـ طعامهم ـ ب ـ الزقوم .

(٣) انظر في هذا موضوع الاشتراك من اسباب البلاغــة في التعبير في كتاب دروس في البلاغة : ١٩٧ .

ه سقر :

وسقر اسم اخر من اسماء النار التي يعذب بها الكافرون يوم القيامة .
قال الله تعالى : (سَأُصليه سَقَر ، وما ادراكَ ما سَقَرُ ، لا تبقي ولا تَذَرُ ، لواحة للبَشَرِ) (١) . وقال ايضا : (الاّ اصحابَ اليمين ، في جنات يتساءلونَ عن المجرمينِ ، ما سلككُم في سَقَر ؟ قالوا لم نك من المصلين ....)(٢) وقال تعالى ايضا : (ان المجرمين في ضلالٍ وسُعرٍ ، يومَ يُسْحَبونَ في النارِ على وجوهِهم ذوقوا مَسَّ سَقَرَ) (٣) .

قال المفسرون في سقر انها علم من اسماء النار (٤) ، وخصهابعضهم بالباب الرابع من النار (٥) .

وقال بعض المفسرين ان سقر اسم اعجمي (٦) . ويبدو ان للكلمة استعمالاً عربياً من قولهم سقرته الشمس تسقره سقرا بالسين والصاد اذا آلمت دماغه (٧) . وقالوا الصقرة : شدة الحر (٨) ، وكذا وردت

(١) سورة المدثر ٧٤ : ٢٦ ـ ٢٩ .

(٢) سورة المدثر ٧٤ : ٣٩ ـ ٤٣ .

(٣) سورة القمر ٥٤ : ٤٧ ـ ٤٨ .

(٤) التبيان ١٠ : ١٨٠ ، وانظر ايضا المفردات : ٢٣٤ ، الكشاف٣: ١٨٦

(٥) تنوير المقياس : ٣٧٣ ، وانظر ايضا جامع البيان ٢٩ ـ ١٥٨ .

(٦) النهاية في غريب الحديث ٢ : ١٦٨ .

(٧) الزينة ٢ : ٢١٤ التبيان ١ : ١٨٠ ، المفردات : ٢٣٤ ، الكشاف ٣ : ١٨٦ وانظر اللغة في جمهرة اللغة ٢ : ٣٣٤ ، المخصص٩ : ٦٩ .

(٨) الغريب المصنف الورقة (٢٧٦) .

في الشعر (١) .

وشدة الحرارة وايلامها للانسان اوحت للعرب استعمالا اخر للكلمة وهو قولهم : الصقر الضرب على اعلى الرأس (٢) ، وسموا الفأس العظيمة التي تكسر الصخر والحجارة القوية بالصاقور (٣) .

ومعاني الكلمة المختلفة تساعدنا كلها على فهم الجو المرعب الذي تثيره الآيات الكريمة (يَومَ يُسحَبونَ في النارِ على وجوهِهِم ، ذُوقوا مَسَّ سَقَر) (٤) . او قوله تعالى (سأُصْلِيهِ سَقر ، وما أدراكَ ما سَقَرُ لا تُبقي ولا تَذَرُ ، لَوّاحة للبَشَرِ ....) (٥) . فالنار التي يعذب بها المجرمون شديدة الحر تلفح المعذبين بلظاها المحرق ، فتفلق رؤسهم ، وتذيب ما في بطونهم ، وتنقل لنا هذه التسمية شدة حر الهاجرة في الجِزيرة العربية الذي يكاد فيه الحجر ان يذوب ويفلق الصخر ، الا ان هذه الصورة لا يمكن ان تقارن بشيء من صورة نار الاخرة التي لا تبقي ولا تذر . ويلاحظ في تعبير سقر في سورة المدثر انها محاطة بالابهام والغموض فكأن سقر مجهولة للسامع فتكررها الآية لتزيد من ايحاء الرعب

---

(١) ديوان شعر ذى الرمة : ٥٠٤ ، امالي اليزيدي ١ : ١٤٤ ، الحيوان ٥ : ٢٣٢ .

(٢) المخصص ٦ : ٩٦ .

(٣) جمهرة اللغة ٢ : ٣٥٧ ، الصحاح ٢ : ٧١٥ ، المخصص ١٠ : ١٠ ، لسان العرب ٦ : ١٣٦ ، اساس البلاغة : ٥٣٥ ، النهاية في غريب الحديث ٢ : ١٦٨ وانظر الشعر في مجالس ثعلب ٢ : ٤٥٨ ، المؤتلف والمختلف : ١١٩ .

(٤) سورة القمر ٥٤ : ٤٧ .

(٥) سورة المدثر ٧٤ : ٢٦ .

(سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ، وما أدراكَ ما سَقَرُ ؟ لَوّاحةٌ للبَشَرِ) (١) انك لا تعرف معنى سقر ، فليست كالتي عرفتها في الحياة الدنيا انما هي شديدة قوية ، لا تبقي ولا تذر وفي هـذا استبعاد لذهن الانسان بانه مهما تخيل سقر ، فانه لن يستطيع ان يتصورها حتى تصورها ، الا ان العربي يستطيع ان يجد فيها ايحاء واضح الملامح للبيئة العربية ، فترتسم في ذهنه صقرات شمس الجزيرة ، وحرها المؤذي الذي يذكرهم بالفؤوس القوية تفلق الصخر ، ولكن هيهات لهم ان يقارنوا بين الصورتين ، لان الآية الكريمة تقول وما ادراك ما سقر ؟ انه الهول الذي يتجسد امام الكافرين يوم القيامة ويعكسه تعبير سقر في الآيات الكريمة .

٣ ـ لهيب النار :

اما لهيب النار فانه تارة يكون لهيبا خالصا لايشوبه دخان ، وتارة يلف المعذبين بدخان قاتم . قال الله تعالى : (يا معشرَ الجنِ والانسِ إنْ استطعتم ان تنفذوا من اقطـارِ السَموات والارضِ لا تنفذون الا بِسلطانٍ فبايّ آلاء رَبكما تُكذبان ؟ يُرْسَلُ عليكما شواظٌ مِنْ نارٍ ونحاسٍ فلا تنتصران ، فبايّ آلاء ربكما تكذبان) (٢) :

فالآيات الكريمة تصور لهيب النار بتعبير الشواظ ، وقد قال المفسرون عن الشواظ بانه اللهيب بلا دخان (٣) . وفي المسائل التي سألها نافع بن

(١) سورة المدثر ٧٤ : ٢٧ .

(٢) سورة الرحمن ٥٥ : ٣٣ ـ ٣٦ ،

(٣) تنوير المقياس : ٣٣٧ ، مجاز القرآن ٣ : ٢٤٤ ، جامع البيان ٢٧ : ١٣٩ التبيان ٩ : ٤٧٤ .

الازرق لابن عباس انه سأله عن الشواظ (فقال : اللهب الذي لادخان له ، قال : فهـــل كانت العرب تعرف ذلك قبل ان ينزل الكتابَ على محمدٍ ربُّك ؟ قال : نعم اما سمعت بقول أمية بن خلف (١) :

الا مَنْ مُبلغٍ حَسانَ عنّي مُغلْغَلَةً تدبُّ الى عُكاظِ
اليسَ ابوكَ فينا كان قينــاً لدى القيناتِ (فسلا)(٢) في الحفاظ
يمانياً يظَلُّ يشُدُّ كِــيرا وينفخُ دائِباً لهبَ الشواظِ

قال : صدقت) (٣) وفي رواية اخرى انه تمثل بابيات حسان التي رد فيها على امية :

فتأتيهِ قصائد محكمــات وُتنْشَدُ بالمَجازِ الى عُكاظِ
مَرتكَ فاخضَعَتْكَ بذاتِ ذلٍّ فقاقيع تأجَجُ كالشواظِ (٤)

ومن هنا يتضح لنا ان الشواظ عرفه العرب في بيئتهم ، وعرفوا ان النار اذا كانت على اشدها فانها تكون لهبا خالصا لادخان له ، وكذا

---

(١) امية بن خلف بن وهب ، من بني لؤي احد جبابرة قريش في الجاهلية ومن ساداتهم ، ادرك الاسلام ولم يسلم ، وهو الذي عذب بلالا الحبشي عند ظهور الاسلام ، اسره عبد الرحمن بن عوف يوم بدر ، فراه بـــلال ، فصاح بالناس يحرضهم على قتله فقتلوه . انظر سيرة النبي ٢ :٧٢١ ، عيون الاثر ١ : ٢٥٩ الكامل لابن الاثير ٢ : ٤٨ .

(٢) في المخطوط ضئيلا ، والصواب كما هو مثبت اعلاه ، وهكذا رويت الابيات في ديوان حسان بن ثابت : ١٤١ ، وكذلك ورد في الصحاح ٣ : ١١٧٣ لسان العرب ٩ : ٣٢٦ .

(٣) مسائل نافع بن الازرق الورقة ٨ (ب) .

(٤) ن . م الورقة ٦ (أ) وانظر الابيات في ديوان حسان : ١٤١ ، ١٤٢ مع اختلاف في رواية البيتين .

قال اللغويون (١) .

اما النحاس فقد قالوا في تفسيره انـــه الصفر المذاب (٢) . وقال بعضهم انه الدخان (٣) وحين سئل ابن عباس عن معرفة العرب له قبل الاسلام تمثل بقول النابغة :

تُضِيئُكم مِنْ سِراجِ السَّليطِ لم يَجْعَلِ اللهُ فيه نُحاسا (٤)

والسَّليط هو دهن الزيت (٥) . وقد استدل ابن عباس بهذا البيت على معرفة العرب لهذا المعنى القرآني . ويبدو ان هناك علاقـــة متينة بين النحاس الذي هو الدخان ، وبين النحاس ذلك الجوهر المعروف من المعادن والظاهر ان المعدن هو الاساس فى التسمية ، لان النحاس او اي معدن من المعادن اذا اذيب سَبَّبَ دخانا قاتما ، ومن هنا اطلق على كل دخان قاتم اسم النحاس . . . ومن الطبيعي ان يعرفه العرب في بيئتهم على اعتباره من المعادن المتوفرة في الصحراء العربية (٦) .

وقد فسر اليحموم بالدخان الاسود ايضا في قوله تعالى : (وأصحابُ

---

(١) الكامل المبرد ١ : ٣٢٤ ، جمهرة اللغة ٣ : ٦٠ ، الصحاح ٣ : ١١٧٢ مقاييس اللغة ٣ : ٢٢٣ .

(٢) جامع البيان ٢٧ : ١٤٠ ، الكشاف ٣ : ١٩٠ .

(٣) تنوير المقياس : ٣٣٧ ، مجاز القرآن ٢ : ٢٤٤ ، جامع البيان ٢٧ : ١٤١ المفردات : ٥٠٣ ، الكشاف ٣ : ١٩٠ .

(٤) مسائل نافع بن الازرق الورقة ٨ (ب) والبيت منسوب للنابغة الذبياني في المخطوط وجامع البيان ٢٧ : ١٤١ ، والصواب انه للنابغة الجعدي كما هو مذكور في ديوانه : ٨١ ، وانظر ايضا التبيان ٩ : ٤٧٥ .

(٥) الصحاح ٣ : ١١٤٩ .

(٦) انظر زكاة المعادن في الموطأ ١ : ٢٤٩ .

الشمالِ ، ما أصحابُ الشمالِ ؟ في سَمُومٍ وحَميمٍ ، وظِلّ مِنْ يحموم لا باردٍ ولا كريمٍ) (١) . فجو الآيات الكريمة يساعدنا على تصور هذا المعنى ، لان السياق العام يوحي بهول العذاب ، فقد ذكر المجرمون وهم اصحاب الشمال ، ثم تبعه استفهام يثير في الذهن جوا من الغموض والرهبة حتى اذا اتضح هذا الابهام ظهر عن سَموم لافحة تلوح المجرمين وتحرقهم بلظاها ، ولكنها ليست كالسموم التي عرفوها في بيئتهم ، فاحتاطوا لها بوسائل ، واحتموا منها بنخله او خيمة . . . مثلا .

انها سموم حارة لافحة لا يوجد معها ظل ، فاذا وجدوه فانما هو ظل من دخان قاتم تثيره النار الرهيبة ، فلا يجدون فيه البرد الذي وجدوه في ظل الحياة الدنيا ، ولا الطمانينة التي يحتاجون اليها ، فهو ظل ، ولكنه يثير السخرية على كل من يحتمي به ، لان أذاه اشد واضنى من اذى النار ولظاها !! هذه السخرية تذكر العرب بالظل البارد الذي فاءوا اليه في حياتهم الدنيا ، ليتقوا به صقرات الهجيرة ، ولفح سمومها ، وكيف ان شاعرهم مثلاً يحِنّ الى نخلة استظل تحتها يوما ، وجمعته مع من يحب ، فيردد حنينه اليها ، ويبعث لها سلامه ، واشواقه ، كما لو انها كائن حي يبادله الشعور :

ألا يانخلةً مِنْ ذاتِ عِرْقٍ بَرودَ الظِلّ شاعَكُمُ السَلامُ (٢)

وذات عرق : موضع بالحجاز (٣) ، وقد نهى الرسول (ص) عن كسر اغصان السدر او التنضب ، لانها من ذوات الظلال يسكن الناس

---

(١) سورة الواقعة ٥٦ : ٤١ - ٤٤ .

(٢) مجالس ثعلب ١ : ١٩٨ ، وقيل انه كنى بالنخلة عن المرأة ، وحتى لو كان هذا القول كناية ، فانه يعكس لنا الصورة المحببة .

(٣) انظر معجم البلدان ٣ : ٦٥١ .

اليها في البرد ، والحر (١) ، وفي هذا دليل واضح على شدة تعلق العرب بالاشجار ، والنخيل التي تمنحهم الظل اذا اشتد الحر ، او داهمهم البرد ، والمطر ، وهي من الناحية الاخرى تساعدنا على فهم الآيات الكريمة التي تصور نار جهنم ، وظلها القاتم ، وكيف يتصورها العربي الذي عانى ماعانى من الحر ، وعرف طيب الظل ، والبرودة ، فاذا به في الآخرة يلتجأ الى الظل الذي يتراءى له ، فلا يجد فيه الامان ، ولا البرودة التي ينشدها . قال الله تعالى : (لَهُمْ من فوقِهِمْ ظُلَلٌ مِنْ النارِ ، ومِنْ تَحتِهم ظُلَلٌ ذلكَ يُخَوِّفُ اللهُ به عباده ياعبادِ فاتقونِ) (٢) . وقال تعالى مخاطبا الكافرين باسلوب يسخر منهم وذلك بدعوتهم الى الالتجاء الى ظل من النار يزيد لهيبه اذى النار ، وعذابها : (انطلقوا الى ما كنتُمُ به تكذّبونَ ، انطَلِقوا الى ظِلٍ ذي ثلاثِ شُعَبٍ ، لا ظَليلٍ ، ولا يُغني من اللَّهَبِ ، إنها تَرمِي بِشَرَرٍ كالقَصْرِ كانَهُ جمالاتٌ صفر ، ويْلٌ يومئذٍ للمكذبين) (٣) واذا قارنا هذه الصورة الرهيبة بصورة ظلال الجنة الوارفة اكتملت لنا الصورة الرائعة واتضح الاسلوب المعجز في بيان عذاب المجرمين ، ونعيم المؤمنين : (والذينَ آمنوا ، وعَملوا الصالحاتِ سندخلهم جناتٍ تجري من تَحتِها الانهارُ خالدينَ فيها أبَداً ، لَهُمْ فيها أزواج مُطَهَّرَةٌ ، وندْخِلُهُمْ ظِلاً ظَليلاً) (٤) . وقال تعالى ايضا واصفا نعيم المؤمنين بين الظلال الوارفة ، (إنَّ اصحابَ الجنَةِ اليوم في شُغُل فاكِهونَ ، هُمْ وازواجُهمُ في ظِلالٍ ، على الأرائِكِ متكئون ، لَهُم

(١) انظر سنن ابي داود ٢ : ٦٥٠ .

(٢) سورة الزمر ٣٩ : ١٦ .

(٣) سورة المرسلات ٧٧ : ٢٩ ـ ٣٤ .

(٤) سورة النساء ٤ : ٥٧ .

فيها فاكهةٌ ، ولَهُم ما يدَّعونَ ، سلامٌ قولاً من ربٍ رحيمٍ) (١) .
هذه الظلال الوارفة ، والنعيم الرائع يوضح لنـــا معالم الاذى الذي يلاقيه المجرمون في النار ، والمقارنة بينهما تزيد الصورة وضوحا ، فالمجرمون لا يجدون ظلاً يفيئون تحته ، ويحتمون به من لهيب النار وشررها ، فاذا وجدوه فانمــا هو ظلٌ من دخانٍ اسود ، ولهيب من نحاس يتعالى فوق رؤسهم .

٤ ـ شررها :

ولم تكتف الآيات الكريمة بتصوير النار ، ولظاها ، انمــا وصفت الشرر الذي يتطاير منها ، فشرر النار الذي عهده الناس في حياتهم الدنيا صغيراً ، قصير الامد نجده في وصف نار الاخرة صورّ تصويراً رهيبا لطوله ، واستمرار قدحه ، ثم لونه القاتم . قال الله تعالى : (انطلقوا الى ما كُنْتمُ به تُكذبُون انطلقوا الى ظلٍ ذي ثلاث شُعَبٍ ، لا ظليلٍ ولا يُغْني من اللهَبِ ، إنها ترمي بِشَررٍ كالقَصْرِ ، كأنهُ جمالات صفر وَيْلٌ يومئذٍ للمكذبين) (٢) .

فقد شَبَّهَ شرر النــار بالقصر ، واختلف المفسرون في تفسيره تبعا لاختلافهم في قراءته ، فمن قرأه بإسكان الصاد فسّره بالبناء المشيد ، المسمى بالقصر (٣) . وفسره ابن قتيبة بالقَصر من قصور مياه الاعراب (٤)

(١) سورة يس ٣٦ : ٥٥ ـ ٥٨ .

(٢) سورة المرسلات ٧٧ : ٢٩ ـ ٣٤ .

(٣) جامع البيــان ٢٩ : ٢٣٩ ، التبيان ، ١٠ : ٢٣١ ، المفردات : ٤١٤ ، الكشاف ٣ : ٣٠٢ .

(٤) تأويل مشكل القرآن : ٢٤٥ .

والملاحظ في التفسير الاول انه لا ينقل صورة من صور البيئة العربيــة ، فالقصر – وان ذكره بعض الشعراء في اشعارهم – (١) قليـلا ما عرفته البيئة العربية في فيافيها الواسعة ، واطنابها المضروبة ، وانما سمي هذا البناء قصرا ، لان جذوع النخيل ، والخشب هي اساس بنائه ، وهي التي يطلق عليها القصر كما سيأتي ذكره .

اما القصر من قصور مياه الاعراب الذي فسر به ابن قتيبـة الآية الكريمة فانه لا يعطينا صورة واضحة عن قصده ، ولا يوجد في الشعرالعربي ما يصوره ، الا اذا كان المراد منه تلك العريشــة التي تُبْنى حول البئر يُحبَّسُ الماء فيها ، ويقْصَرُ ، وذلك انهم قالوا في صفات البئر المعروشة بانها التي تطوى قدر قامة من اسفلها بالحجارة ، ثم يطوى سائرها بالخشب وحده ، وذلك الخشب هو العرش (٢) . ولكننا ايضا لا نجد بين هــذه الصورة وشرر النار في الآية الكريمة وجه شبه قوي ، مما يبعدنا عن تفسير ابن قتيبة السابق . اما قراءة من قرأ القَصَرَ بفتح الصاد ، فانها تعطينا تفسيرا هو اقرب الى البيئة العربية ، من القراءة الاولى . قال ابن عباس كالقَصَرِ كاسافــل الشجر العظام (٣) . وقال ابن قتيبــة ، ومن قرأ بالقَصَرِ شبهه باعناق النخل ، ويقال بأصوله اذا قطع (٤) . وهنا يبدو اختلاف بسيط فهل القصر لغةً اعناق الابل ام اعناق النخل واصوله ؟

(١) ديوان الاعشى : ٤٣ .

(٢) الغريب المصنف الورقة : (٢٤١) ، الصحاح ٣ : ١٠١٠ ، المخصص ١٠ : ٤٢ ، اساس البلاغة ٦٢٢ . لسان العرب ٨ : ٢٠٤ .

(٣) تنوير المقياس : ٣٧٧ .

(٤) تأويل مشكل القرآن : ٢٤٥ ، وانظر المفردات : ٤١٤ ، الكشاف ٣ : ٣٠٣ ، النهاية في غريب الحديث ٣ : ٢٥٦ ، وانظر اللغة في العين : الورقة(١٥) .

الا اننا نجد في الشعر الجاهلي صورا طالما رسمهـا الشعراء في اشعارهم الا وهي صورة الناقة التي يشبهونها بجذع النخلـة (١) ، وصورة الظعائن التي وصفوها وشبهوها بمجموعـة النخيل (٢) ممـا يرجح كون القصر ، اطلق في الاصل على النخلة ، ومنه على الناقة ، ومن ثم اطلق بصورة عامة على اصل العنق سواء كان للشجرة ، او النخل ، او الابل (٣) . وفي كلتـا الصورتين نجد دلالة واضحة للبيئة العربية ، فقد اعتاد العربي رؤيـة اعناق ابله الطويلة ، كما اعتاد رؤية النخيل ، وجذوعها السامقة ، فاستمد منها مادة لتشبيهاته ، واخيلته .

ومن هنا يبدو ان التفسير الاخير اقرب التفاسير الى البيئة العربيـة فقوله تعالى : (إنَّها تَرْمي بِشَرَر كالقَصْرِ) (٤) يرسم لنا صورة لشرر النار يوم القيامة ، وكيف انه يختلف عن الشرر القصير الأمد فى الحياة الدنيا ، لانه طويل الامد ، بعيد المدى ، ينقـل الى ذهن العربي صورة اعناق الابل الممتدة الطول ، او صورة جذوع النخل الجبارة . ويتبع هذا التشبيه تشبيه اخر للشرارات يقصد منه تبيـان لونها وهو قوله تعالى : (انها ترمى بِشَرَرٍ كالقَصِر كأنَّهُ جِمالاتُ صفْرٌ) (٥) . قال بعض

---

(١) ديوان كعب بن زهير : ١٣ ، ٨١ ، ٢١٧ ، وانظر ايضـا الطرائف الادبية : ٦٩ .

(٢) انظر ديوان كعب بن زهـير : ١٢٢ ، ١٩١ ، ٢٥٢ ، ديوان علقمة الفحل : ٣١ ، اراجيز العرب : ٤٤ ، الاصمعيات : ٢١٧ .

(٣) المخصص ١١ : ١٠ .

(٤) سورة المرسلات ٧٧ : ٣٢ .

(٥) ن . م .

المفسرين إنّ معنى الجِمالات الجمال (١) . فيكون معنى الآية ان الشرر الذي يتطاير بكثرة وقوة شديدة يشبه الجمال السود ، وخصّ بها الجمال او النوق الضخمة التي شبهت بالجمال اضخامتها (٢) ليدل على عظم الشرارات بالاضافة الى لونها القاتم . فاللون الاصفر كثيراً ما اطلقه العرب على لون السواد (٣) . وقد علل ابن قتيبة هذه التسمية وسبب تخصيص الله سبحانه وتعالى للجمال السود . قال : (وانما سُميت السود من الابــل صُفرا ، لانه يشوب سوادها شيء من صفرة كما قيل لبيض الظباء أدْمٌ ، لان بياضها تعلوه كُدرة ، والشرر اذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار اشبه شيء بالإبل السود لما يشوبها من صفرة) (٤) .

وهناك تفسير اخر لمعنى الجمالات الصفر في الآيــة الكريمة وهو قولهم انها حبال السفن الضخمة ، معتمدين في ذلك على استعمال لغوي عرفه العرب . قال الخليل : (الجُمَّل : حَبْلُ السفينة) (٥) .

---

(١) تنوير المقياس : ٣٧٧ ، تأويل مشكل الحديث : ٢٤٥ ، المفردات : ٩٦ ، الكشاف ٣ : ٢ . ٣ .

(٢) غريب الحديث : ٢٨٠ ، مقاييس اللغة ١ : ٤٨١ ، وانظر الشعر في ديوان الشماخ : ٤٠ ، ٥٤ ، المفضليات : ٢٢٩ ، الحيوان ٦ : ٧٠ .

(٣) انظر الغريب المصنف الورقة (٢٢) ، الصحاح ٢ : ٧١٤ ، مقاييس اللغة ٣ : ٢٩٤ ، المخصص ٧ : ٦ ، ٥٥ .

(٤) تأويل مشكل القرآن : ٢٤٥ .

(٥) عن المخصص ١ : ٢٥ ، الصحاح ٤ : ٦٦١ ، وانظر ايضا النهاية في غريب الحديث ١ : ١٧٩ وفسر بعضهم قوله تعالى (ولا يَدْخلون الجنــةَ حتى يَلجَ الجملُ في سُمّ الخياط) سورة الاعراف ٧ : ٤٠ بانه حبل السفينة انظر تنوير المقياس : ١٠١ ، الكشاف ١ : ٥٤٨ وقد ذكر الاب مار اغناطيوس =

واذا كانت صورة الشرر الذي يتطاير بقوة من نار الاخرة يشبه الى حد ما صورة الحبال الغليظة الممتدة ، فان تفسير الجمالات في قوله تعالى (انها تَرمي بِشَرَرٍ كالقَصْرِ ، كأنهُ جِمالاتٌ صُفْرٌ) (١) بالجمال السود اقرب الى البيئة العربية التي اعتمدت على الأبل في حياتها اليومية اعتماداً كلياً ، على حين نجد اهمية السفينة عند العرب لا تصل الى مستوى الضروريات ، نظراً للصحارى الواسعة التي انعدمت فيها البحار والانهار الدائمة ، ويؤكد هذا القول ما نراه في كتاب المخصص ، وان ما استغرقه بحث السفينة من هذه الموسوعة الكبيرة لا يتجاوز الست صفحات ، على حين كاد البحث عن الجمل يشكل جزء كاملا بذاته (٢) :

٥ ـ شراب اهل النار :

تصور الآيات الكريمة العطش ، والحرمان من الماء على انهما وسيلتان من وسائل التعذيب التي يعانيها المجرمون يوم القيامة . فشراب اهل النار، وتعذيبهم بالعطش صُوِّر بصورة رائعة يظهر فيها الاعجاز القرآني متجلياً ويقف امامها الانسان ذاهلاً . ففي اللحظة التي تصدر فيها نتيجة الحساب يبدأ عقاب المجرمين فيساقون سوقاً شديداً الى جهنم ، وهم عطاشى محرومين من الماء . اما المؤمنون فانهم يحشرون الى الجنة بعزة وكرامة . قال الله

= الجمل على انه لفظ سرياني ، وفي هذا دلالة على بعد الكلمة عن البيئة العربية . انظر مقال الالفاظ السريانية مجلة المجمع العلمي العربي م ٢٣ ج ٣ ص ٣٤٣ .

(١) سورة المرسلات ٧٧ : ٣٢ ـ ٣٣ .

(٢) انظر المخصص عن الابل ٧ : ١ ـ ١٧٤ ، السفينة ١٠ : ٢٩ ـ ٣٣ ، وانظر ايضاً نظام الغريب ١٣٢ ـ ١٥١ .

تعالى : (يومَ نحشُرُ المتقينَ الى الرحمنِ وفدا ، ونسُوقُ المجرمينَ الى جهنّمَ وِرْدا) (١) . وقد فسر المفسرون الوِرْد في الآية الكريمة بمعنى العطاشى (٢) . ومن المشهور ان معنى الورد في اللغة هو اتيان الماء وهو خلاف الصدر (٣) . وانما اطلق تعبير الورد في الآية الكريمة على العطاش ، لان من يرد الماء لا يرِدُهُ الا لعطشٍ كما يقول الزمخشري (٣) الا ان المجرمين لايرتوون بوردهم جهنم ، بل تبدأ مرحلة اخرى للتعذيب والعقاب . . . فمع شدة ولهيبها المحرق — الذي مرت بنا صوره — يعاقب المجرمون بلون اخر من صنوف التعذيب ، وهو حرمانهم من الماء . وقد صور هذا الحرمان بشكل محاورة جرت بين اهل الجنة واهل النار : (ونادى اصحابُ النار اصحابَ الجنةِ : أنْ أفيضُوا علينا من الماءِ أوْ مما رَزَقكُمْ اللهُ قالوا : انَّ اللهَ حرَّمهُما على الكافرين الذين اتخذوا دينَهم لَهْواً ولعباً وغرتْهُمُ الحياةُ الدُنيا ، فاليومَ ننساهُمْ كما نسُوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون) (٥) . فهذه الآيات الكريمة ترسم صورة رهيبة لحرمان المجرمين من الماء . وقد فهم العرب والمسلمون هذه الصورة ، واستطاعوا ان يتمثلوها بما وجدوه في بيئتهم ، ولم يكتفوا بتصور الآيات الخاصة بالحرمان من الماء بل فسروا بالعطش الايات التي تبدو بعيدة عن

---

(١) سورة مريم ١٩ : ٨٦ .

(٢) اللغات في القرآن : ٣٦. جامع البيان ١٦ : ١٢٩ ، ١٣٠، التبيان ٧ : ١٥٠

(٣) انظر جمهرة اللغة ٢ : ٢٥٨ الصحاح ١ : ٢٥٨، مقاييس اللغة ٦ : ١٠٥، المخصص ٩ : ١٥٥ ، وانظر شواهد الشعر في المفضليات : ٢٢٥؛ الامالي للقالي ٢ : ٢٤٥

(٤) الكشاف ٢ : ٢٩٢ .

(٥) سورة الاعراف ٧ : ٥٠ - ٥١ .

الماء ، والعطش في مفهومها العام (١) وقد فسر النعيم في قوله تعالى (كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين ، ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم) (٢) . مما يعطينا صورة عن اهمية الماء عندهم وكيف انهم احسوا ان حرمانه عذاب لا يدانيه عذاب ، وان توفره في الجنة نعيم وثواب فالعربي الذي طالما احس بأذى العطش والظمأ في بيئته الصحراوية ، ثم عرف اللذة في الحصول عليه بعد ظمأ قاتل . هذا العربي يستطيع ان يتصور في الآيات الكريمة مدى العذاب الذي يعذب به المجرمون في النار بحرمانهم من الماء ويستطيع ان يتصور الآيات التي تعرض عطش المجرمين ، وحرمانهم . ومن هنا جاء التأثير العظيم في نفوس العرب من مسلمين ومشركين .

لقد عانى العرب من حرمانهم الماء في بيئتهم الحارة ما عانوا ، تلك البيئة التي يلاقي فيها الحيوان ما يلاقيه الأنسان من شدة القيظ ، والأذى فقد روى الأصمعي انه قيل لأعرابي ما لوح جسمك ؟ قال الأداوى والنجم . يريد انه كثير الأسفار فهو يراعي أداوته كم فيها من الماء (٣) . فمن الطبيعي اذن ان نجدهم متلهفين الى الماء في مثل هذه الأجواء الشديدة الحر وان يجدوا فيه اعظم النعيم ، وأحسنه ، يفرح العربي ويبلغ غاية سعادته اذا تيسر له شيء من الماء ، ويعتبر الحصول عليه بشارة يبشر بها وفرجاً يمنه الله عليه . فال الراجز :

تبشّري بالرّفْهِ والماءِ الرّوى وَفرجٍ منكِ قريبٍ قد أتى (٤)

---

(١) راجع ص ١٤٩ .

(٢) سورة التكاثر ١٠٢ : ٥ ـ ٨ .

(٣) معاني الشعر : ٢٦ .

(٤) شرح القصائد السبع : ١٩٨ ، لسان العرب ١٩ : ٦٣ والبيت غير منسوب الى قائله

ويحن العربي الى الماء حنينه الى اهله ، ووطنه ، ومرتع صباه . ولا يجد اجمل من تمنيه شربة ماء يشربها بعد عطش (١) وفخروا بكرمهم الذي لا يمنعه جوع ، ولا عطش ، وانهم يجودون بما لديهم في الحالتين (٢) . ولندرة الماء عندهم صار اعظم ما يمدح به الرجل هو الصبر على تحمل العطش ، وقرنوه بالجمل ذلك الحيوان الذي احبوه لتحمله العطش الشديد في الصحارى الواسعة من ذلك ما يذكر في خبر عامر بن الطفيل حين توفي ، ونُصِبَ حول قبره حِمى ، ان احد ابناء قومه قال لهم : (ضَيَّقْتُمْ على أبي علي أنَّ اباعلي بان في الناس بِثلاث : كان لا يَعْطَشُ حتى يَعطشَ الجَمَلُ ، وكان لا يضلُّ حتى يضلَّ النجم . . .) (٣) .

كل هذا يعكس اهمية الماء في البيئة العربية ، لانهم عانوا من فقدانه ما عانوا ، فاستطاعوا ان يعرفوا لذة الماء البارد بعد لوحة شديدة وعطش مضن ، وشبهوا به الحديث الجميل الذي يترك اثراً طيباً في نفوس سامعيه قال القطامي :

فَهُنَّ يَنْبِذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ
مَواقِعَ الماءِ مِنْ ذي الغُلَّةِ الصّادي (٤)

واذا اراد الشاعر ان يبين شدة وجده ، وولهِهِ بصاحبته شبهه بوجد الظمآن للماء اذا حرم منه . قال امرؤ القيس :

---

(١) انظر الحيوان ٦ : ٨٦ ، الوحشيات : ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ثمار القلوب : ٤٤٥ ، الحماسة البصرية : الورقة ٣٠٨ (أ) .

(٢) منتهى الطلب : الورقة (٢٤٧) .

(٣) الاغاني ١٥ : ١٣٩ ط بولاق وانظر حول حمى الماء مجمع الامثال ٢ : ٣٤ .

(٤) ديوان القطامي : وانظر ايضا الحيوان ٥ : ٤١ .

لَعَمْرُكَ إنّني لأحبُ مَيّاً كحُبّ مُحَلاءٍ ظمأنَ رَيّا (١)

وانشد ابن دريد لاعرابي قوله :

وإني لأهْواها وأهْوى لِقاءها كما يَشْتهي الصّادي الشَراب المُبرَّدا(٢)

وشدة الشوق الذي يشعر بـه المحب لا يتصوره الا حرّاً يأكلُ احشاءه ، فاذا اراد المبالغة في اظهار ألمه قال : انه حرٌ لا بردَ فيه(٣)

وقال الثعالبي : برد الشراب يتمثل به في كل محبوب وعند كل مشتهى (٤)

وأخيراً فقد سئل الأمام علي عن حب المسلمين للرسول (ص) فقال : (كان والله احب الينا من اموالِنا ، واولادِنا ، وابائِنا وأمهاتِنا ، ومن الماء البارد على الظمأ) (٥) .

هذه الصورة المحببة للماء ، وما يلاقيه العرب في بيئتهم الصحراوية الشحيحة تساعدنا على تصور الجو الرهيب الذي تثيره الآيات الكريمة : (ونادى اصحابُ النارِ أصحابَ الجَنّةِ أنْ أفيضُوا علينا من الماءِ أوْ مما رَزَقكُمْ اللهُ ، قالوا : إنَّ اللهَ حرمهما على الكافرين) (٦) .

فهذه الآيات وحدها كافية لأثارة الجو الرهيب في نفس الانسان ، فكيف

---

(١) ديوان امرىء القيس : ٢٥٩ .

(٢) الامالي للقالي ١ : ٣٣ ، وانظر ايضـا اراجيز العرب : ٦٧ ، والبيت منسوب للاحوص الشاعر الاسلامي المعروف في الاغاني ١١ : ٢٢ وانظر ايضـا زهر الاداب ٢ : ٣٧٢ ، التنبيه على اوهام ابي علي : ٢٧ .

(٣) الحيوان ٥ : ١٩٢ ، الصناعتين : ٧٧ ، الكامل للمبرد ٢ : ، ٦٠٦ ، الأمالي للقالي ٢ : ١٩٢ .

(٤) ثمار القلوب : ٤٩٩ ، وانظر ايضا النهاية في غريب الحديث ١: ٧١ .

(٥) الكامل للمبرد ٢: ٦٠٧ ، ثمار القلوب : ٤٩٤ .

(٦) سورة الاعراف ٧ : ٥٠ .

بالعربي الذي يرى في حرمان الماء عذاباً لايدانيــه عذاب ؟ ان الآيات الكريمة تثير في ذهنه معالم بيئته القاسية التي عرف فيها اهمية الماء ، ومـا يصيب الانسان من الأذى والحرمان حين يُحْرم منه او يفتقره في مجاهل الصحراء وفيافيها . . . !

انها مشاهد رهيبة تثيرها الآيات الكريمة في رسم صور العذاب بالعطش والحرمان من الماء حين يطلب اهل النار من اهل الجنة ان يفيضوا عليهم شيئاً من الماء يروي عطشهم ، ولكن الرد يأتيهم قاسيا رهيبا ، اذ لارحمة لاهل النار ، ولا يفيض اهلُ الجنة عليهم بشيء من الماء ، حتى اذا بلغ بهم الظمأ مداه ، وَقُطِّعَتْ امعاؤُهم لهفا على الماء ، سُقوا شراباً حاراً واي شراب ؟ انه شراب صُوِّر بعدة تعابير ، كل منهـا يعطي صورة مفزعــة ، فهو تارة الحميم ، واخرى الغسّاق ، ويُشَبَّه مرة بالمُهْل ، وبالصديد مرة اخرى .

أ ـ الحميم :

ورد الحميم في الآيات الكريمة محاطا بسياق عام يعرض عذاب جهنم الأليم ، ولظاها المحرق ، ففي سورة الدخان عرضت الآيات الكريمة طعام اهل النار الذي يغلي في بطونهم ويؤذيهم ، فيأتي الشراب ليغلي هو الاخر في بطونهم ، ويزيد عذابهم (ان شجرةَ الزَّقوم طعــامُ الأثيم ، كالمُهْل يَغْلي في البطون كغَلْي الحَميم ، خُذُوهُ ، فاعتلوهُ الى سَواءِ الجحيم ثم صبُّوا فوقَ رأسِــهِ من عذابِ الحَميم ، ذُقْ إنَّكَ انت العزيز

(١) ورد في خمس عشرة آية انظر المعجم المفهرس : ٢١٢ .

الكريم) (١) . وقال تعالى ايضا : (أذلك خيرٌ نُزُلاً أمْ شجرةُ الزقُّوم ؟ إنّا جعلْناها فتنةً للظالمين انها شجرةٌ تخرج في أصْل الجحيم طلْعُها كأنّهُ رؤسُ الشياطين ، فإنّهمْ لاكلونَ منها ، فمالِئون منهـا البطونَ ، ثم إنَّ لهم عليها لشوْباً من حميم ، ثُمَّ إنّ مرْجعَهُم لإلى الجحيم) (٢) . وفي سورة الرحمن صُوِّرَ المجرمون وهم يطوفون في جهنمَ بينَ الحميمِ ، والماءِ الحارِ الذى بلغ اقصى درجات الحرارة : (يُعْرَف المجْرمونَ بِسيماهُمْ فيُؤخَذُ بالنواصي والأقـدامِ ، فبايّ آلاء ربّكما تكذبان ؟ هذه جهنمُ التي يُكذّبُ بها المجرمون ، يطوفونَ بينها وبينَ حميمٍ آنٍ) (٣) . وفي سورة الواقعة نجد وصفا دقيقا لهذا الشراب المؤذي الذي يلجأ اليه المجرمون بعد ان يحرق الزقوم بطونهم ، فيشربون من الحميم فلا يرتوون ، بل يزيـد اذاهم ، وعطشهم ، ويشبهون بذلك الابل الهيم : (ثم إنّكُمْ ايّها الضالونَ المكذبونَ ، لآكلونَ من شجرٍ من زقّوم فمالئون منها البطونَ ، فشاربونَ عليهِ من الحميمِ ، فشارِبونَ شُرْبَ الهيمِ ، هذا نُزُلُهُمْ يومَ الدينِ) (٤) . ونجد في صفة هذا الشراب ايضا انه يقطع الامعاء لشدة حرارته : (وسُقوا ماءً حميمـاً فقطّعَ امعاءَهُمْ)(٥) .

لقد فسر بعض المفسرين الحميم في الآيات السابقة بانه الماء الحار

---

(١) سورة الدخان ٤٤ : ٤٣ ـ ٤٩ .

(٢) سورة الصافات ٣٧ : ٦٢ ـ ٦٨ .

(٣) سورة الرحمن ٥٥ : ٤١ ـ ٤٤ .

(٤) سورة الواقعة ٥٦ : ٥١ ـ ٥٦ .

(٥) سورة محمد ٤٧ : ١٥ .

المغلي الذي تناهى حره ، وبلغ اقصى الدرجات (١) : وقال اخرون ان الحميم دموع اعين المجرمين في النار ، تتجمع في خنادق فيُسقَونه (٢) :

وكلا التفسيرين يعطي معنى واحداً هو أن ما يُسقى منـه المجرمون شراب شديد الحرارة ، سواء كان مغليـا او كان دموع المجرمين الحارة . ومن الضروري تتبع دلالة الكلمة ، ومعانيها في الذهن العربي لمعرفة الايحاء الذي تثيره الآيات الكريمة .

فالحر في الصحراء العربية — وقد مرت بنا صوره — جعل العرب يكثرون من وصف شدة القيظ والايام الحارة ، فسموا القيظ الحميم (٣) وقالوا حُمـّة الحر وشدته (٤) . وقد وردت بهذا المعنى الحِسي في القرآن الكريم ايضا حين ذُكِرت اموال الباطل ، وكيف انها يُحمى عليها في نار جهنم ، ويكوى بها اصحابها (٥) ، ووصفت النار بالحامية لشدة حرارتها (٦) وكذلك وردت في الحديث النبوي الشريف (٧) .

ومن هنا اطلق الحميم على كل ما اشتدت حرارته ، فاطلق مثـلا

---

(١) تنوير المقياس : ٨٩ ، مجاز القرآن ١ : ٢٧٤ ، جامع البيان ١٧ : ١٣٣ ، ٣٠ : ١٣ ، تفسير القمي: ٣٤٦ ، التبيان ٨ : ٥٠٣ ، الكشاف ١ : ٥١١ .

(٢) جامع البيان ٣٠ : ١٣ .

(٣) الازمنـة لقطرب : ٤٥ ، النوادر ١ : ١٥ ، الصحاح ٥ : ١٩٠٥ ، لسان العرب ١٥ : ٤٣ .

(٤) الصحاح ٥ : ١٩٠٤ ، لسان العرب ١٥ : ٤٢ .

(٥) سورة التوبة ٩ : ٣٥ .

(٦) سورة الغاشية ٨٨ : ٤ .

(٧) مسند الامام احمد ١ : ٨٣ ، ٢٠٧ ، ٢٦٢ .

على العيون الحارة التي وجدت في بعض انحاء الجزيرة العربيـــة وسمّوها الحُمة (١) .

ومن ثم اطلق الحميم على كل ماء حار (٢) . اما العرق الذي اطلق عليه الحميم (٣) فقـــد سمي بذلك على التشبيه ولانه لايخرج من مسامات جسم الانسان الا عند اشتداد الحر اما الحميم الذي هو القريب او الصديق والذي ورد في القرآن الكريم ايضا (٤) فقـــد علل الراغب تسميته بانه يحتد لحماية ذويه (٥) .

وفي كل هذه المعاني المتعددة للكلمة نجد انها تعني شدة الحر وبلوغه اقصى الدرجات وهو المعنى الذي فسرت به الآيات الكريمة بان المجرمين حين تشويهم النار بلظاها فيتمنون ماء يطفئون به غليلهم ويخففون به شدة الحر وعذاب النار ، فاذا بهم يسقون ماء بلغ في غليه اقصى درجات الحرارة فيقطع امعاءهم ، ويزيد عذابهم .

وورد الحميم في آيتين على انه وسيلة من وسائل التعذيب الجسدية بالاضافة الى اعتباره شرابا قاسيـــا (هذان خَصمانِ اختصموا في ربِّهم

(١) صاحب العين عن المخصص ١٠ : ٢٣ ، جمهرة اللغة ١ : ٦٤ ، الصحاح ٥ : ١٩٠٤ .

(٢) ابو عبيدة وابن السكيت عن المخصص ١٠ : ٣٣ ، جمهرة اللغة ١ : ٦٤ ، الصحاح ٥ : ١٩٠٤ .

(٣) صاحب العين عن المخصص ٩ : ١٣٩ ، جمهرة اللغة ١ : ٦٤ ، المسلسل : ٢٨٧ ، المفردات : ١٢٩ وانظر الشعر في شرح ديوان لبيد : ١٣٢ ، ديوان النابغة الجعدي : ١١ ، ديوان المزرد بن ضرار : ٤١ ، شعر المثقب العبدي : ٢٥ .

(٤) انظر المعجم المفهرس : ٢١٢ .

(٥) المفردات : ١٣٩ .

والذين كَفَرَوا قطِّعَت لهم ثيــاب من نارٍ يُصَبُّ من فوق رؤسهم الحميم ، يُصْهَرُ به مافي بطونهم والجلودُ ، ولهُم مقامِع من حديد)(١)
ففي هذه الآيات نجد تصويرا معجزا رائعا لشدة حرارة الحميم ، فهو اذا صب على رؤسهم صهر جلودهم ، وبطونهم ، ومــع ذلك يعادون الى خلقتهم الاولى ، ليعاد عذابهم ، وقوله تعالى ولهم مقامع من حديد يزيد تصوير شدة حرارة الحميم الذي يصب على رؤوس المجرمين ، وقد قنعوا بالحديد ، فيلهب بحرارته رؤسهم ، وينفــذ الحميم الى بطونهم فيذوبها ، فتتشكل الصورة الكاملة لعذاب الحريق مع الشراب الحار الذي يسقونه ، ويصب على رؤوسهم .

ب ـ الصديد :

اما الصديد فقد وصف به الماء الذي يغاث به المجرمون في النار حين يشتد عطشهم (واستفتحوا ، وخابَ كلُّ جبارٍ عنيدٍ ، مِنْ ورائِهِ جَهنَمُ ويُسقى من ماءِ صديــدٍ ، يَتَجرعُهُ ، ولا يكادُ يسيغُهُ ، ويأتيهِ الموتُ من كل مكانٍ ، ومــا هو بميت ، ومن ورائِهِ عذابٌ غليظٌ) (٢) .

فقد فسر الصديد بانه ما يخرج من اجساد المعذبين في النــار من قيح ودم (٣) . وهكذا عرفــه العرب في حياتهم ، وتعابيرهم

(١) سورة الحج ٢٢ : ٢٠ ـ ٢١ .
(٢) سورة ابراهيم ١٤ : ١٥ ـ ١٧ .
(٣) تنوير المقياس : ١٦١ ، مجاز القرآن ١ :٣٣٨ ، جامع البيان ١٣ :١٩٥ التبيان ٦ : ٢٨٣ ، الكشاف ٢ : ١٧٥ ، النهاية في غريب الحديث ٢ : ٢٥٤ .

اللغوية (١) ، وهذا المعنى الذي فسرت به الآية الكريمة يعطي ايحاء رهيبا اضافة الى ايحاء العطش ، والحرمان من الماء ، لانه يوحي بالاذى والالم الشديد ، فهو يخرج من اجساد المعذبين ، وحروقهم في النار ، ومع ذلك لا يجدون شراباً غيره فيضطرون الى شربه وتجرعه ، ولكنهم لا يستطيعون احتماله ، لانه لا يشفي غليلهم اولا ، ولأنه يثير التقزز في النفوس ثانيـا فيتمنون الموت ، ولكنهم لا يموتون ، لانهم قـد كتب عليهم العذاب الأزلي الدائم .

ج - المهل :

ومثل الصديد فسر بعضهم المهل في قوله تعالى : (وَقُلِ الحقُّ من ربِّكم فَمَنْ شاءَ فليُؤمِنْ ، ومن شاءَ فليَكفرْ ، إنا اعتَدْنا للظالمين نارا احاطَ بهم سُرادِقُها ، وان يَستَغيثوا يُغاثوا بماء كالمُهل يَشوي الوجوهَ ، بِئسَ الشرابُ ، وساءَتْ مُرتَفَقا) . (٢) الا ان في الآية الكريمة ايحاء آخر غير معنى الجروح والقروح ، وهو معنى المُهلِ الذي فسره معظم المفسرين بالنحاس الذائب كما مر بنا سابقاً (٣) . فهذا المعنى يزيد الآية ايحاء آخر ، ذلك ان الماء الذي يُغاث به المجرمون يغلي كغليان النحاس والمعدن ، ولشدة غليانه يحرق الوجوه ، ويشويها ، فكيف بهم اذا أجبروا على شربه وتجرعه ! ! وهو في هـذه الحالة مقزز غير سائغ

(١) الغريب المصنف الورقة : (١١٢) ، جمهرة اللغة ٣ : ١٩٠ ، الصحاح ١ : ٤٩٣ ، مقاييس اللغة ٣ : ٢٨٢ ، المخصص باب الجراح والقروح ٥ : ٩١

(٢) سورة الكهف ١٨ : ٢٩

(٣) راجع : ص ٨٣

كالصديد والقيح ، ومثل هذا فسر بعضهم الغساق في قوله تعالى : (إنَّ جهنمَ كانتْ مرصادا ، للطاغينَ مآبا ، لابثينَ فيها أْحقابا ، لا يَذُوقونَ فيها بَرْداً ، ولا شَرابا ، الا حميما وَغـَسّاقا) (١) ، فقالوا انه ما يسيل من جلودهم من الصديد ، والقيح (٢) . وقالوا في تفسير البرد في الآية الكريمة بانه سبحانه وتعالى حَـرَّم على الكافرين الشراب البارد الذي يبرد حر السعير (٣) ، فهم لا يسقون إلا الحميم والغَـسّاق . وقـد اجتمعت في هذا الشراب شدة الحرارة ، ونتن الرائحة . وقال بعضهم البرد هنـا النوم . ويبدو ان المعنى الأول اكثر انسجاماً مع سياق الآيات العام الذي يعرض شدة العطش والحرمان من الماء البارد الا الشراب الذي يزيد عطشهم ويحرق ابدانهم . هذه التعابير تجتمع كلها لتصور شراب أهل النار على انه وسيلة من وسائل التعذيب اضافة الى معاناتهم لهب النار ، ولظاها المحرق ومن الواضح ان اطلاق الشراب على هذا الضرب من العذاب انما صدر عن سخرية لاذعة بالمجرمين ، حين تقطع امعاؤهم عطشا ، فيغاثون بماء لا يروي غلتهم ، ولا يفيدهم فائدة الماء ، ولكنهم يشربون منه ، لأنهم لا يجدون شرابا غيره ، ولان الطعام الذي يتجرعونه يزيد عطشهم ويحرق

---

(١) سورة النبأ ٧٨ : ٢١ ـ ٢٥

(٢) جامع البيان ٣٠ : ١٣ ، الكشاف ٣ : ١٨ ، وكذا قال اللغويون انظر شواهد الشعر في المفضليات : ٢٩ ، الوحشيات : ٢٢٦

(٣) تنوير المقياس : ٣٧٩ ، جامع البيان ٣٠ : ١٢ ، تنزيه القرآن : ٣٦١ الكشاف ٣ : ٣٠٦

(٤) تنوير المقياس : ٣٧٩ جامع البيان ٣٠ : ١٢ ، الكشاف ٣ : ٣٠٦ ، والنظر ايضاً المداخل : مجلة المجمع العلمي العربي ٩٢ : ٨ : ٤٦٠

بطونهم ، فيشربون من هـذا الشراب دون ان يجدوا فيـه لذة الشراب ونعيم الماء :

وعذاب العطش والحرمان من الماء صور في آية أخرى بتعبير رائع يجعل من صورة العطش لوعة دائمة التجديد ، تتجسد فيها صور في البيئة العربية قال الله سبحانه وتعالى : (ثُمَّ انكم ايها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئونَ منها البطونَ ، فشاربونَ عليه من الحميمِ فشاربون شُربَ الهيمِ ، هذا نزُلُهُم يومَ الدينِ) (١) .

ففي هذه الآيات الكريمة ترتسم لنا صورة العطش الدائم ، والحرمان الأزلي من الماء ، وشبه شربهم المتواصل الذي لا يجديهم بشرب الهيم :

وقـد اختلف المفسرون في تفســير الهيم ، فقال بعضهم ان الهيم (هي الابل الظماء اذا اخذها الداء الهيام لا تكاد ان تروى) (٢) :

وقال آخرون بان الهيم هي الابل العِطاش ، ولم يخصوها بالمرضى قال ابن عباس : (وقيل كشرب الابل العطاشى اذا اكلت الحمض) (٣) وكذا قال اللغويون (٤) . وقد اعتمد المفسرون في هذا التفسير على معنى عرفوه في بيئتهم ، وكثر استعماله في لغتهم وتعابيرهم ، ذلك انهم اعتادوا

---

(١) سورة الواقعة ٥٦ : ٥١ ــ ٥٦

(٢) تنوير المقياس : ٣٣٩ ، جامع البيان ٢٧ : ١٩٥ ، التبيان ٩ : ٥٠٢ الكشاف ٣ : ١٩٥

(٣) تنوير المقياس ٣٣٩ ، وانظر ايضاً جامع البيان ٢٧ : ١٩٥ - ١٩٦

(٤) جمهرة اللغة ٣ : ١٨٢ ، الصحاح ٥ : ٢٠٦٣ ، اساس البلاغة : ١٠٧١ لسان العرب ١٦ : ١١٠ ، ديوان الشماخ : ٨٥

ان يراقبوا ابلهم في حاله صحتها ، ومرضها ، فعرفوا فيها داء اسموه الهيام وهو (داء يصيب الابل من ماء تشربه مستنقعاً) (١) . وقال ابن السكيت (الهُيامُ داءٌ ياخذ الابل عن بعض المياه بتهامة) (٢) . وقد عرف الجغرافيون العرب هذا الضرب من الماء في وصفهم لانحاء الجزيرة العربية فذكره عُرام في وصفه لواد شس في تهامة فقال وهو بلد مهيمة موباة ، لا تكون بها الابل ، ياخذها الهيام عن نقوع بها ساكرة لا تجري قال الشاعر :

كأنَّكَ مَرْدوعٌ شس مَطَّرِدٍ
يفارِقُه من عُقْدةِ التَبعق هيُمها (٣)

أي كأنك جمل مبعد عن وادي شسّ مصاب باوجاع مؤلمة ، يريد ان يفارقه ، وخصت هذه المنطقة بالذكر ، لانها موباة بمرض الهُيام ؛

واذا كان هذا الماء الذي يسبب مرض الابل قد عرف بعينه في منطقة تهامة ، وعرفوا نتائجه الوخيمة على ابلهم فمن الجائز ان نجد ماء راكدا مثله في مناطق أخرى من الجزيرة الغربية يسبب مرض الهيام ايضاً ، ومن هنا نجد شيوع استعمال كلمة الهيام في اشعارهم ، ووصفهم لابلهم . قال الحادرة (٤) :

---

(١) الغريب المصنف : الورقة (٤٠٢)

(٢) عن المخصص ٥ : ٣٧ . وانظر ايضاً ٧ : ١٧٠

(٣) اسماء جبال تهامة : ٢٩ ، والبيت غير منسوب لقائله ، وانظر أيضاً معجم البلدان ١ : ٦٧٢

(٤) الحادرة لقب غلب عليه ، والحويدرة ايضاً اسمه قطبة بن اوس بن محصن من شعراء قيس ، شاعر جاهلي مقل ، وانما سمي الحادرة لقول زبان بن صبار الفزاري

كأنكَ حادرةُ المَنكَبين رصعاء تنقضُ في حائرِ

انظر ديوان المفضليات : ٤٨ - ٤٩ ، الآغاني ٣ : ٧٩

أودى السِّفارُ برمها فتخالُها هِيماً مُقطَّعةً حبالَ الأَذْرُعِ (١)

أي ذهبت كثرة الاسفار بلحوم هذه الابل ، وشحومها ، واصابها الهيام ففصّد عروقها وقطعها ، لانها تشرب من الماء فلا تروى . وقال لبيد :

أَجزتُ الى معارِفها بشُعْثٍ واطْلاح من العيديّ هِيمُ (٢)

هذه الصورة للابل العطاشى المريضة قد علقت في اذهان العرب وشعرائهم ، فجعلوا منها مادة لا تنضب لتشبيهاتهم ، واخيلتهم . قال اعرابي :

فما وَجْدُ ملواحٍ من الهِيمِ حُلِّئت عن الماءِ حتى جوفُها يتَصلْصلُ
تَحومُ وتغشاها العِصيُّ وحولَها اقاطيعُ أنعامٍ تُعَلُّ وتُنْهَلُ
بأكثرَ مني غُلةً وتَعطُّفاً الى الماءِ الا انني أتَجَملُ (٣)

فصورة الابل المصابة بمرض الهيام ، المتشوقة الى الماء الدائمة العطش الا انها محرومة يمنعها اصحابها عن الورد بالضرب والعصي ، ومع ذلك ترى امامها الأنعام ترد الماء وترتوي منه ، فيزيد وجدها وتشوقها الى الماء هذه الصورة شبه بها الاعرابي حاله في شدة عطشه الا انه اكثر صبراً وتجملا من الابل الهيم . والاعرابي في هذه التشبيهات انما استند على صورة اعتادها في الصحراء الواسعة .

ومن هنا جاء تفسير المفسرين لقوله تعالى : (ثم انكم ايها الضالونَ المكذبونَ ، لآكلونَ من شَجر من زقوّم ، فمالئونَ منها البطونَ ،

---

(١) المفضليات : ٤٧ ، وانظر ايضاً قول ربيعة بن مقروم : ١١٨

(٢) شرح ديوان لبيد : ١٠٣

(٣) الحيوان ٣ : ١٠٤ ، وانظر شواهد شعرية أخرى في ديوان عامر بن الطفيل : ٣٢ ، ديوان شعر ذى الرمة : ٥٨٨ ، تاريخ العرب للاصمعي : ١٠٣ الصحاح ٥ : ٦٠٣

فشاربونَ عليـــه من الحميمِ ، فشاربونَ شربَ الهيم) (١) وذلك ان عطش اهل النار الشديد يجعلهم يشربون من الماء المغلي فلا يرتوون ، بل يزداد عطشهم ، وألمهم ، ومثلهم في هذا مثل الابل الهيم التي مرت بنا صورها ، والتي اعتادها العرب في بيئتهم .

اما التفسير الثاني للاية الكريمة فقد ذهب به بعضهم بعيدا عن معنى الابل العطاشى فقالوا (الهيم هي الارض السهلة) (٢) . وقال الطـــبري (يقال ان الهيم الرمل ، بمعنى إن اهل النار يشربون الحميم شرب الرمل الماء) (٣) : وقد استمد المفسرون هذا المعنى من استعمال لغوي للكلمة عرفه العرب ، وشاع استعماله ايضا ، وهو اطلاقهم الهيام على نوع من الرمل . قال الاصمعي (الهيام الذي لا يتمالك ان يسيـــل من اليد من لينه) (٤) ، قال لبيد :

تَجتافُ أصْلاً قالِصاً مُتنبذاً   بعُجوب أنقاءٍ يَميلُ هيامها (٥)

يقول ان هذه البقرة تدخل نفسها في جوف شجرة كبيرة ، بعيـــدة عن المسالك نابتة في اطراف كثبان تنهال رمالها بسرعة وقال ايضاً :

---

(١) سورة الواقعة ٥٦ : ٥١ ـ ٥٦

(٢) تنوير المقياس : ٣٣٩ .

(٣) جامع البيان ٢٧ : ١٩٥ ، الكشاف ٣ : ١٩٥ .

(٤) عن الغريب المصنف : الورقة ٢١٤ ، وانظر ايضـــاً مجالس ثعلب ٢ : ٤٦٨ ، جمهرة اللغة : ٣ : ١٨٢ ، الصحاح ٥ : ٢٠٦٣ ، اساس البلاغة : ١٠٧١ لسان العرب ١٦ ، ١١٢ :

(٥) شرح ديوان لبيد ٣٠٩ ، والشطر الثاني من شواهد الخليل في العين١٤ والاصمعي في المخصص ١٠ : ١٤٥ .

يَزَعُ الهِيامَ عن الثرى ويمدّهُ   بُطَحٌ تَهايُلُه على الكثبانِ (١)

هذا الرمل الذي يتساقط بسرعة ، ويسيل منها لادنى حركة لايمسك الماء اذ سرعان ما تبتلعه ذراته ، وتغور به ، فـلا يبقى له اثر ، وهي صورة تشبه صورة الابل الهيم التي لايجديها الماء شيئاً ، فمهما شربت عادت الى حالها الاولى من لوعة العطش والتشوق الى الماء وفي كـلا الصورتين نجد معنى ماديا وثيق الصلة بالبيئة العربية بحيث يصعب علينا تحديد دلالة الكلمة الاولى .

وهكذا يعرض لنا تعبير الهيم في الآيات الكريمة صورة العطش الدائم واللوعة المستمرة التي يعانيها المجرمون يوم القيامة ، كما يعكس لنا صورا من البيئة العربية . صورة الابل المريضة بالهُيام تشرب الماء فلا ترتوي ، وصورة الرمل المنهال الذي لا يمسك المـاء ، ولا يحفظه ، وهي صورة تكمل ملامح عذاب المجرمين في النار حين يسقون الطعام المؤذي الذي يلهب بطونهم ، فيشربون فوقه شرابا حارا يزيد عطشهم ويلهب احشاءهم .

٦ ـ طعامهم :

اما طعام اهل النار فقد صور في القرآن الكريم بعدة تعابير تجتمع كلها لاثارة جو رهيب لصنف آخر من صنوف عذاب المجرمين في النار :

أ ـ الضريع

قال الله تعالى : (وجوهٌ يومئذٍ خاشعةٌ ، عاملةٌ ناصبةٌ ، تصلى

(١) شرح ديوان لبيد : ١٤٤ .

ناراً حامية ، تُسقى من عينٍ آنية ، ليس لهم طعامٌ الا من ضريعٍ لا يسمِنُ ولا يُغني من جوعٍ) (١) . فقد سمي طعام المجرمين بالضريع ووصف بانه لا يسمن ولا يشبع كما هو معروف في طعام الناس . وقد اختلف المفسرون في تفسيره ، فقال بعضهم : (لا ادري ما الضريع ، لم اسمع عن اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فيه شيئا) (٢) ، وقال آخرون ان الضريع شجر من نار (٣) .

وقرن فريق من المفسرين الضريع بنبات عهدوه في البيئة العربية ، وعرفوا ميزاته وصفاته قال ابن عباس : (شوك يكون في البادية) (٤) وقال ابن قتيبة مفسرا الضريع بانه (نبت يكون في الحجاز ، يقال لرطبه الشبرق ، لا يسمن ، ولا يشبع ، قال امرؤ القيس :

فاتبعتهُمُ طَرْفي وقد حال دونَهم غوارُب رَمْلٍ ذي ألاءٍ وشِبرقِ

والعرب تصفه بذلك) (٥) . وقال ابن قتيبة ايضاً ان (الضريع من اقوات الانعام ، لا من اقوات الناس ، واذا وقعت فيه الابل لم تشبع وهلكت هزلا قال الهذلي يذكر ابلا وسوء مرعاها :

وحُبِسْنَ في هَزْمِ الضَّريعِ فكلُّها حَدباءُ داميةُ اليدينِ حَرودُ (٦)

---

(١) سورة الغاشية ٨٨ : ٢ ـ ٦ .

(٢) هو قول الحسن البصري في التبيان ١٠ : ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

(٣) تأويل مشكل القرآن : ٤٨ ، جامع البيان ٣٠ : ١٦٢ وانظر ايضاً متشابهات القرآن ٢ : ١١٦ .

(٤) اللغات في القرآن : ٥٤ .

(٥) تاويل مشكل القرآن : ٤٨ ، والبيت في ديوان امرىء القيس ١٦٩ ، وانظر ايضاً النهاية في غريب الحديث ٣ : ١٨ .

(٦) تاويل مشكل القرآن : ٤٩ .

وهذا البيت لقيس بن خويلد بن العيزارة (١) في ابيات يرثي بها اخاه وروايته في الديوان :

وحُبِسْنَ في هَزْمِ الضَّريعِ فكلُّها حَدباءُ داميــةُ اليدينِ جدودُ (٢)

وهي ارجح من رواية ابن قتيبة ، لأنها تبين صورة الابل التي شبه بها الشاعر القوم الذين يقتاتون مالا يشبعهم ، بانهم كالابل التي حبست ، ومنعت الا من اكل الضريع ـ وهو الشبرق ـ فهزلت وبدت عظامها ، وانقطع لبنها .

وقال آخرون ان الضريع هو الحجارة (٣) ، ولا يوجــد في استعمال الكلمة اللغوي ما يساعدنا على فهم الضريع بانــه الحجارة . اما الذين قالوا بان الضريع شجر من نار (٤) ، فانمــا ردوا بقولهم على من اعترض على وجود طعام في النار التي تحرق كل شيء .

ويبدو ان اقرب هذه التفاسير هو قول من قال ان الضريع نبت معروف في الجزيرة العربية ، وليس القصد من هذا اطعامهم ، ضربا من الطعام ، انما المراد السخرية بالمجرمين ، ذلك لان الناس تاكل لتزيد قواها وتشبع ، اما طعام اهل النار فانه لا يغني من جوع ولا يسمن ابداً ، وله صورته الواضحة في البيئة العربية ، فقد اعتاد العرب النباتات المتوفرة في بيئتهم ، وخبروا انواعها ، وما يفيد حيوانها ، وما يضره ، فكان من بينها

(١) شاعر جاهلي من بني هذيل ، والعيزارة امه ، وبها يعرف ، وهو قيس ابن خويلد ، اسرته فهم فافلت منهم ، واخذ سلاحــه تأبط شرا . انظر شرح اشعار الهذليين ٢ : ٤٨٩ .

(٢) شرح ديوان الهذليين ٢ : ٥٩٨ ، وانظر ايضا الصحاح ١:١٠٨ ، ٤٦١

(٣) جامع البيان ٣٠ : ١٦٢ .

(٤) انظر : ص ٢٤٧

ضرب خاص من النباتات اذا رعت فيه حيواناتهم ساءت حالها وتدهورت صحتها ، وذلك هو الشبرق اليابس الذي إطلقوا عليه اسم الضريع (١) .
ومن هنا فخروا بخيولهم القوية ، واعتنائهم بها ، وكيف انهم لا يطعمونها الا الطعام الجيد لا الضريع المؤذي :

ألا منعَتْ ثُمالةُ بطنَ وجٍ   بجُرْدٍ لم تُباحَتْ بالضَّريعِ (٢)

ومن هـذا النبت الذي يهزل الابل ويضعفها اطلقوا تعبير الضَّرَع على الضعف والذل بصورة عامة (٣) . لان من يضعف ، ويهزل تذل نفسه ، وتسكن ومن هنا فسر بعضهم الضريع بقولهم : (الضريعُ بمعنى المُضرْعُ أي يضرعهم) .

وهذا المعنى المتطور من الاصل المادي يساعدنا على فهم الآية الكريمة وذلك انه ما دام طعام اهل النار لا يسمن ، ولا يغني من جوع ، وانه الضريع الذي اذا اكلته الابل هزلت قواها ، فان هذا الطعام يؤدي حتماً الى ضعف قواهم وهزلهم ، وانما سمي طعاما (من حيث يستطعم) (٤)

---

(١) انظر الفاخر : ١٠٧ ، جمهرة اللغة ٢ : ٣٦٢ ، فقه اللغة : ٤٧ المحكم ١ : ٢٥٠

(٢) الفاخر : ١٠٧ ، والبيت منسوب لمالك بن عوف الغامدي في اساس البلاغة : ٣٢

(٣) جمهرة اللغة ٢ : ٣٦٢ ، الصحاح ٣ : ١٢٤٩ ، تمام فصيح الكلام : الورقة ١٥ ، مقاييس اللغة : ٣٩٥ ، المحكم ١ : ٢٤٩ ، وانظر شواهد الشعر في ديوان الاعشى ٣٩ : ١٠٩ ، المفضليات : ٢٠١ ، الوحشيات : ٢٣ ١٢٢ الحماسة اليصرية : الورقة (ب) . وكذا وردت في القرآن الكريم انظر سورة المؤمنون ٢٣ : ٧٦

(٤) تنزيه القرآن : ٣٥٣

أو (اريد انه لا طعام لهم اصلا ، لان الضريع ليس بطعام للبهائم فضلا عن الانس ، لان الطعام ما اشبع ، او اسمن ، وهو منهما بمعزل كما تقول ليس لفلان ظل الا الشمس ، تريد نفي الظل على التوكيد) (١) :

وهذا الجوع المهزل الذي يعذب به المجرمون تضاف اليه شدة العطش ، والحرمان من الماء ، فتكتمل صورة المعذبين في النار وما يلاقونه من صنوف العذاب والأذى .

ب - الزقوم :

وهناك تعبير آخر يخص طعام اهل النار ونجد فيه وصفاً للشجرة التي يأكل المعذبون منها . قال الله تعالى : (الا عبادَ الله المخلصين أولئك لهم رزقٌ معلومٌ ، فواكهُ وهم مكرمون ، في جناتِ النعيمِ على سُررٍ متقابلينَ ، يُطافُ عليهم بكأسٍ من مَعينٍ ... أذلك خيرٌ نُزُلاً ام شجرة الزقومِ ؟ انا جعلناها فتنةً للظالمينَ ، انها شجرةٌ تخرجُ في اصلِ الجحيمِ ، طَلْعُها كأنهُ رؤس الشياطين فانهم لآكلونَ منهافمالئونمنها البطونَ ، ثم انَّ لهُمْ عليها لشوبا من حميمٍ ، ثم إن مَرجِعهم ، لإلى الجحيمِ) (٢) . وقال تعالى ايضاً واصفا ثواب أهل الجنة معددا نعمهم (واصحابُ اليمينِ ، ما اصحابُ اليمينِ ؟ في سدرٍ مخضود وطَلْح منضودٍ وظل ممدود وماءٍ مسكوبٍ وفاكهةٍ كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة) (٣) . وقال سبحانه وتعالى واصفاً عذاب المجرمين وطعامهم : (ان شَجرةَ الزقومِ طعامُ الاثيمِ ، كالمُهل يغلي في البطون

(١) الكشاف ٣ : ٣٣٢

(٢) سورة الصافات ٣٧ : ٤١ - ٦٨

(٣) سورة الواقعة ٥٦ : ٢٦ - ٣٤

كَغَلْيِ الحميمِ ، خُذوهُ فاعتُلوهُ الى سَواءِ الجحيمِ ثم صُبُوا فوقَ رأسهِ من عَذابِ الحَميمِ) (١) ففي هذه الآيات الكريمة مقابلة رائعة بين شجرة الزقوم التي يأكل المجرمون منها فتملأ بطونهم ، وتغلي فيها كغلي الحميم ، وبين صورة المؤمنين الآمنين في جناتهم حيث الفاكهة المتنوعة ، ولحوم الطير ، وكل ما تشتهيه أنفسهم .

وطعام المجرمين في هذه الآيات الكريمة عبر عنه بشجرة الزقوم ، الا ان المفسرين لم يفسروا لنا ماهية هذه الشجرة ، لأنهم لم يعرفوا شجرة بعينها في بيئتهم تسمى الزقوم ، ولكن في أذهانهم صورة لهـا ، ذلك لأنهم اعتادوا ان يسموا كل طعام ثقيـل بالزقوم (٢) . وقد اعترض ناس على وجود شجرة في النار التي تحرق كل شيء ، وان هذه الشجرة لا يعرفها العرب فكيف خاطبهم الله سبحانه وتعالى بما يجهلون ؟ قال القاضي عبد الجبار بن احمد راداً على هؤلاء : (وجوابنا أنه اذا وصف حالها صح التخويف بها ، ولذلك قال الله تعالى (كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم) (٣) . وقال ايضاً (وربما قيل في قوله تعالى (ثم إنكم ايها الضالونَ المكذبون لآكلون من شجرٍ من زَقوم) كيف يصح التوعد بما لا يعرف من جملة الأشجار ؟ وجوابنا ان لفظة الزقوم معروفة بأنها تستعمل في الكريه من الأشياء فجاز ان يتوعد الله تعالى بذكرها) (٤) :

روي انه لما نزلت الآيات الكريمة بذكر الزقوم لم يعرفه العرب فقال ابو جهل : هذا شجر لا ينبت بأرضنا فمن منكم يعرفه ؟ فقال رجل

(١) سورة الدخان ٤٤ : ٤٣ — ٤٨

(٢) لسان العرب ١٥ : ١٦١ ، النهاية في غريب الحديث ١ : ١٢٨

(٣) تنزيه القرآن : ٣٥١

(٤) ن ٠ م

من افريقيا الزقوم بلغة افريقيا الزبد والتمر : فقال ابو جهـل يا جارية هات تمراً وزبداً نزد قمه ؟ فجعلوا يأكلون ويتزقمون ويقولون : ابهذا يخوفنا محمـد في الآخرة ؟ فبين الله تعالى في آية أخرى الزقوم بقوله (انها شجرة تخرجُ في اصلِ الجَحيمِ) . ومن هـذه الرواية يتبين لنا ان العرب لم يعرفوا شجرة بعينها تسمى الزقوم . واذا كان هذا الأفريقى ـ ان صحت الرواية ـ قد ادعى انها عندهم التمر والزبد ، وان أبا جهل استغل قوله للسخريـة من الرسول الكريم (ص) فقول الأفريقي هـذا يؤكد لنا جهل العرب في بيئتهم بالزقوم ، أمـا دلالتها على الطعام الثقيل او المكروه فانما عرفت بعـد نزول الآيات الكريمة :

وتأتي بشاعة الزقوم من الآيات التي تليها ، وتصفها وصفاً رهيباً تضع سخرية ابي جهل في صورة شاحبة سرعان ما تتلاشى لتحـل محلها صورة الرهبة من هـذه الشجرة (أذلك خيرٌ نُزُلاً امْ شَجرة الزقومِ ، انا جعلناها فتنةً للظالمينَ إنها شجرةٌ تخرجُ في أصل الجحيمِ ، طَلْعُها كأنه رؤوسُ الشياطينِ ، فأنهم لآكلونَ منها فمالئونَ منها البطونَ) (٢) .

وتشبيه طلع شجرة (الزقوم برؤس الشياطين اثار نقاشاً بين المفسرين فقال بعضهم الشياطين هنا الحيات وذكر هـذا ابن قتيبة حين قال : (والشياطين حيات خفيفات الأجسام قبيحات المناظر . قال الشاعر ذاكراً ناقته :

تُلاعِبُ مثنى حضرميٍ كأنّهُ
تعمج شَيطانٍ بذي خِروَعٍ قَفرِ (٤)

---

(١) تنزيه القرآن : ٣٢١ .

(٢) سورة الصافات ٣٧ : ٦٢ ـ ٦٨ .

(٣) تنوير المقياس : ٢٧٨ .

(٤) لم ينسبه ابن قتيبه الى قائلـه ، وكذا قال الجوهري في الصحاح ـ

يعني زماما ، شبه تلويه بتلوي الحية . وقال آخر :

عُجَيِّزٌ تَحْلِفُ حينَ أحلِفُ

كَمِثْلِ شَيطانِ الحَماطِ أعرَفُ (١)

والحِماط شجر ، والعرب تقول ذلك اذا رأت منظراً قبيحاً كأنه شيطان الحَماط ، يريدون حية تاوي في الحماط) (٢) :

وتفسير المفسرين هذا صادر عن معرفتهم ضرباً خاصا من الحيات اطلقوا عليه اسم الشيطان كما ورد في كتب اللغة (٣) .

وقال آخرون : ان رؤس الشياطين شجر معروف في البيئة العربية ، وذكر الاصمعي انه يسمى الصوم (٤) ، واطلق عليه بعضهم اسم الاستن وقالوا عنه انه شجر بشع ، منكر الصورة ، يقال لثمره رؤس الشياطين ، وهو الذي ذكره النابغة :

تَحيدُ عن استَنٍ سودٍ أسافلُه

مثلُ الأماءِ الغوادي تَحمِلُ الحُزَما (٥)

ــ ٥ : ٢١٤٤ ، وهو منسوب لطرفة بن العبد في الحيوان ٤ : ١٣٣ ، والبيت غير موجود في ديوانه .

(١) البيت غير منسوب وانظر ايضا التبيان ٨ : ٥٠٣ .

(٢) تاويل مشكل القرآن : ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، وانظر ايضا ادب الكاتب : ٢٢١ ، جامع البيان ٢٣ : ٦٤ ، التبيان ٨ : ٥٠٣ ، الكشاف ٢ : ٦٠٣ .

(٣) الغريب المصنف : الورقة (١٧٩) ، الصحاح ٥ : ٢١٤٤ ، مقاييس اللغة ٣ : ١٨٤ :

(٤) عن الكامل للمبرد ٣ : ٨٢١ ، وانظر ايضا جامع البيان ٢٣ : ١٦٤ ، التبيان ٨ : ٥٠٣ .

(٥) الكامل للمبرد ٣ : ٨١٨ ، الحيوان ٤ : ٣٩ ، ٦ : ٢١١ ، الصناعتين ، ٨٥ : والبيت في ديوان النابغة ١٠٣ .

وهناك تفسير اخر يجمع التفسيرين السابقين ، وهو اقرب التفاسير الى الناحية الادبية يرى بأن الله سبحانه وتعالى اراد ان يصور بشاعة شجرة الزقوم فشبه طلعها برؤس الشياطين لان الناس رسموا في اذهانهم صورة منكرة لها ، واول من ذكر هذا التفسير – فيما قرأت من مصادر – هو ابو عبيدة حين سئل في مجلس الفضل بن الربيع عن قوله تعالى : (طلعها كأنَّهُ رؤسُ الشياطينِ) (١) (بان الوعد والوعيد انما يقع بما عرف مثله وهذا لم يعرف قال فقلت انما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم اما سمعت قول امرىء القيس :

أيَقْتُلُني والمَشْرفيُّ مضاجِعي ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغوالِ (٢)

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان امر الغول يهولهم أوعدوا به) (٣) .

وقال الجاحظ معللا هذا التشبيه ايضا بانه سبحانه وتعالى (قد جعل فى طباع جميع الامم استقباح جميع صور الشياطين ، واستسماجه ، وكراهيته واجرى على السنة جميعهم ضرب المثل في ذلك) (٤) . وقال ايضا رادا على من انكر هذا التشبيه لان الناس لم يروا الشيطان ، ولا وصفت لهم صورته فقال : (قلنا : وان كنا نحن لم نر شيطانا قط ، ولا صور رؤسها لنا صادق بيده ، ففي اجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان ، حتى

---

(١) سورة الصافات ٣٨ : ٦٤ .

(٢) البيت في ديوان امرىء القيس : ٣٣ .

(٣) معجم الادباء ٧ : ١٦٧ ، وذكر انه بعد ان رأى استحسان الفضل لقوله واستحسان السائل ايضا عزم على ان يضع كتاباً في القرآن الكريم ثم وضع كتاب مجاز القرآن ، الا ان الملاحظ انه لم يذكر هذا التفسير في مجازه .

(٤) الحيوان ٤ : ٩٤ .

صاروا يضعون ذلك في مكانين احدهما ان يقال : هو اقبح من الشيطان، والوجه الاخر ان يسمى الجميل شيطانا على جهة التطير . . . ففي اجماع المسلمين العرب ، وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على انه في الحقيقة اقبح من كل قبيح والكتاب انما انزل على هؤلاء الذين قد ثبت في طبائعهم بغاية التثبيت) (١) .

ويبدو هذا التفسير اقرب التفاسير الى الناحية الادبية ، ذلك لانهم جروا في تشبيهاتهم على ما عهدته اذهانهم ، وتمثلته اخيلتهم ، وللشياطين في اذهانهم صورة واضحة الملامح للبشاعة والقبح ، وتعكس لنا هذه الفكرة نادرة يرويها الجاحظ عن امرأة اخجلته ، وذاك انها اتته يوما وهو على باب داره فقالت له : (لي اليك حاجة ، واريد ان تمشي معي ، فقمت معها الى ان اتت بي الى صائغ يهودي فقالت له : مثل هذا ، وانصرفت فسألت الصايغ عن قولها فقال : انها اتت الي بفص وأمرتني ان انقش لها عليه صورة شيطان فقلت : ياستي ما رأيت الشيطان ، فاتت بك ، وقالت ما سمعت ! !) (٢) واذا كانت هـذه النادرة تعكس لنا روح النادرة والنكتة التي عرف بها الجاحظ ، والتي استدل بعضهم بها على بشاعة خلقه ، فان فيها انعكاساً لصورة الشيطان كما تمثله الذهن العربي ، ومن هنا شبهوا به كل شيء كريه المنظر بشع الصورة (٣) . كما سموا كل خبيث مهلك بالغول (٤) . ومن هنا ايضاً نفهم سبب تسميتهم ذلك الضرب من

---

(١) الحيوان ٦ : ٢١٣ وانظر ايضاً تاويل مشكل القرآن : ٣٠٢ ، الكامل للمبرد ٣ : ٨١٨ ـ ٨٢١ ، جمهرة اللغة ٢ : ١٥٠ .

(٢) سرح العيون ٠ ٢٥٠ .

(٣) الحيوان ١ : ٣٠٠ ثمار القلوب : ٦٠ .

(٤) الصحاح ٥ : ١٧٨٦ ، لسان العرب ١٤ : ٢١ .

الحيات بالشياطين ، لان رؤسها كريهة المنظر ، او لانها شديدة الاذى ، وكذلك القول في النبات الذي اسموا ثمره بالشياطين لبشاعة منظره فصدر تفسير القائلين في وصف شجرة الزقوم بان طلعها كأنه رؤس الشياطين او رؤس الحيات .

اما التفسير الجامع لكل هذه الصور فهو الذي مر بنا سابقاً بان طلع شجرة الزقوم شبه في القرآن الكريم برؤس الشياطين الحقيقية . لان كفار قريش حينما استهزأوا واستهانوا بشجرة الزقوم نزلت الآيات بعدها لتصف صورة هذه الشجرة الملعونة بانها ليست كما تتصورها اذهانهم انما هي بشعة مؤذية كصورة الشياطين التي تخيلتهـا اذهانهم ، ومع ذلك فان التفسيرين الاولين يضفيان على شجرة الزقوم ايحاء اخر للبشاعة ، والرهبة مقترنا برؤس الحيات المنكرة ، ورؤس ثمار الشجر البشع الصورة المسماة بالشياطين .

ومما مرّ بنا نجد ان طعام اهل النار وصف في كل الآيات الكريمة بانه ليس كالطعام الذي اعتاده الناس ، فهو لايسمن ، ولا يشبع ويتجرعه المجرمون على مضض لانهم مجبرون على اكله (انّ لدينا أنكالاً ، وجحيما وطعاماً ذا غُصـَّةٍ وعذاباً ألـِيما) (١) ، وهم فى هذه الحالة كأنهم قد حرم عليهم الطعام ، اذ كيف تستطيع النفس ان تدنو من طعام هـــذه صفته واذاه ؟ ومن هنا جاء قوله تعالى (فليس له اليوم ههنا حميم ، ولا طعام الا من غسلين) (٢) في نفي وجود الطعام لاهل النار الا مايخرج من جروحهم من الدّم ، والصديد (٣) . وقال ابن عباس : أن الغِسْلين

(١) سورة المزمل ٧٣ : ١٢ ـ ١٣ .

(٢) سورة الحاقة ٦٩ : ٣٦ .

(٣) مجاز القرآن ٢ : ٢٦٨ : تأويل مشكل القرآن : ٤٨ ، الكامـل للمبرد ٢ ، ٤٥ ، تنزيه القرآن : ٣٥٣ الكشاف ٣ : ٢٦٦ .

هنا معناه الحار (١) وكذا قال اللغويون (٢) وطبيعي ان يكون الصديد الذي يخرج من ابدانهم حاراً ، لان كل ما يحيطهم هو اللهب ، واللظى المستعر بالاضافـة الى ان شرابهم شديـد الحرارة مغلي . ولا يمكن ان نفهم ان الغِسْلين ضرب آخر من الطعام ، وان المعذبين في النـار على طبقـات ، ومنهم من يأكل الزقوم ، ومنهم من ياكل الغِسْلين ، ومنهم من ياكل الضريع ، كما ذهب بعض المفسرين (٣) ، وذلك لان الغسلين ليس ضرباً من الطعام ، وانما اريد به نفي وجود الطعام الذي يسمن ، ويشبع كما هو مصور في الزقوم ، والضريع . فليس لهم طعـام الا من الصديد الذي تفرزه اجسادهم ، وفي ذلك تبشيع لحالهم .

ويلاحظ في كل التعابير التي تحدثت عن طعام اهل النار في القرآن الكريم انها اقتصرت على وصف بشاعة الطعام ، فلو قارنا هذه الآيات بالآيات التي تخص الشراب والتي ورد ذكرها سابقاً لوجدنا في الطائفة الاولى تصويرا لبشاعة الطعـام الذي يُكره على استساغته المجرمون دون الحديث عن عناء الجوع ، والحرمان من الطعام ، على حين نرى الآيات التي تخص الشراب تحدثت عن العطش وما يلاقيه المعذبون من اذى حرمانه . ولعل خير ما يعلل به هذه الظاهرة القرآنية هو تحرج العربي ، واباؤه الذي يحول دون وصف جوعه ، وما يلاقيه من حرمان الطعام ، اوما يسد رمقه . قال الاستاذ جميل سعيد في حديثه عن وصف الطعام عند العرب : (على اننا حين ننظر في الشعر العربي ـ ولا سيما الجاهلي منه ـ نجد الشعراء قد كبتوا احساسهم بالجوع كبتاً ، وفخروا به وجعلوا التصريح بهذا الاحساس امراً

---

(١) اللغات في القرآن : ٥٠ ، وانظر ايضاً متشابهات القرآن : ١٠٦ .

(٢) الصحاح ٥ : ١٧٨٢ ، لسان العرب ١٤ ، ٧ .

(٣) تأويل مشكل القرآن : ٤٨ الكشاف ٣ : ٣٣٢ .

يخزى الانسان منه ، ويلام عليه . . والشعراء الاسلاميون تابعوا الشعراء الجاهليين في هذا ، وعدوا شكاة الجوع منقصة توجب اللوم) (١) . على ان هـذا القول لا يعني ان العرب لم يعانوا من شدة الجوع ما عانوه من العطش ، ذلك لأننا نعرف ان الجزيرة العربية أرض جدب وفقر في معظم اجزائها وقد كثرت فيها المجاعات ، واشتدت فيها الحاجة الى الطعام في كثير من الاحيان ، ومن هنا ذكرت هذه المجاعات في اشعارهم في موضوع فخرهم (٢) حين يفضلون ضيفهم وجارهم على أنفسهم عنـد المسغبة ، وانهم لا يدنون الى الطعام ، وان كانت بهم حاجة اليه يؤثرون به غيرهم على أنفسهم (٣) ، كما هجوا اعداءهم بحبهم الطعام (٤) .

هذا الاباء النفسي يجعل العربي يأنف من ذكر جوعه ، وحاجته إلى الطعام بل نراه يفخر بتحمله الجوع . قال الشنفرى في لاميته المشهورة :

---

(١) الوصف في شعر العراق : ٤٠٠

(٢) وهذا لا يعني انعـدام ذكر الجوع في الشعر الجاهلي في غير موضوع الفخر ، فقد وجدت اشارات اليه ، الا انهم لم يقصدوا فيها اظهار ألمهم من الجوع ، والحاجة الى الطعام انظر في هـذا أعجب العجيب : ٣٢ ، ٣٦ وشعر السليك في أمثال العرب : ١٤ .

(٣) انظر ديوان عروة بن الورد : ٦٢ ، منتهى الطلب : الورقة (٣٤٦) في شعر عروة بن الورد ايضاً ، ديوان علقمة الفحل : ٥٢ ، ٧٢ ، ديوان عدي ابن زيد : ١٤٧ ، وانظر ايضاً اعجب العجب : ٢٠ ، مجالس ثعلب ١ : ٦٨ ، ٦٩ امالي الزجاجي : ٢٠٤ ، أسماء المغتالين : ٢٤٢

(٤) انظر ديوان المزرد بن ضرار : ٥٠ ــ ٥١

أديمُ مِطالَ الجوعِ حتى أُميتهُ
واضرِبُ عنه الذِكْرَ صَفْحاً فأُذْهَلُ (١)

ومثل هـذا قول أبي خراش الهذلي (٢) :

وإنّي لأُثوي الجـوعَ حتى يَمَلّني
فيذهبُ لم تدنسْ ثيابي ، ولا جرمي (٣)
أردُّ شجاعَ الموتِ قـد تَعلَمينهُ
وأوثِرُ عبـدي من عيالكِ بالطُعمِ

فهو هنا يفخر بأنه لا يبالي بالجوع الذي يؤذيه ، ويربأ بنفسه عن الحصول على الطعام الذي يدنس سيرته ، واباءه ، وانما يتغلب على جوعه ويؤثر عبده ، وعياله بما لديه من الطعام . هذا هو المثل الأعلى الذي رسمه العربي لنفسه حين ترّفع عن ذكرِ حاجته إلى الطعام ، أو وصف ألمه من شدة الجوع ، وهو يختلف عن وصفه لعطشه ، وشدة تشوقه الى الماء كما مر بنا سابقاً (٤) . ومن هنـا لم تتحدث الآيات الكريمة عن حرمان المجرمين من الطعام الذي يشبعهم جرياً على عادة العرب في تحرجهم من الحديث في هذا الموضوع ، على حين نرى عكس ذلك في الحديث عن العطش الذى صورته الآيات الكريمة أروع تصوير ، وذلك جريا على عادة

(١) اعجب العجب : ٣٢

(٢) هو خويلد بن مرة من بني هذيل من مضر . شاعر مخضرم وفارسٌ فاتكٌ مشهورٌ بالعَدْو فكان يسبق الخيـل . اسلم وهو شيخ كبـير توفي نحو ١٥ هـ . انظر الشعر والشعراء ٢ : ٥٥٤ ، الأغاني ٢١ : ٣٨ فما بعدها ، الاصابة ١ ، ٤٥٧ ، خزانة الادب ١ : ٢١٣ ، الاصابة ١ : ٤٥٧

(٣) الأشباه والنظائر : ١٥٧

(٤) انظر ص ٢٣٢

العرب في وصف شدة العطش الذي عانوه في أسفارهم ، واوقات الهاجرة الحارة وسنجد هذه الفكرة ايضاً في الحديث عن شراب أهل الجنة وطعامهم (٥) .

٧ – صنوف اخرى من العذاب :

وبالاضافة الى وسائل التعذيب التي مرت بنا صورها نجد في القرآن الكريم صنوفاً أخرى تعرض جوانب جديدة لتعذيب المجرمين في النار وتنعكس فيها ايضاً بعض ملامح البيئة العربية .

أ – السلاسل والأغلال :

فالسلاسل والأغلال من الصور التي تؤكد الآيات الكريمة وجودها حيث يقيد المعذبون : (إنّا اعتَدْنا للكافرين سَلاسلاً واغلالاً وسعيرا) (٢) . ووصفت الآيات الكريمة هذه القيود بانها تغل أعناق الكافرين فيسحبون بالنار على وجوههم : (الذين كَذَّبوا بالكتابِ وبما أرسَلْنا به رُسلنا فسوفَ يعلَمونَ إذْ الاغلالُ في أعناقِهِمْ والسلاسلُ يُسْحَبونَ في الحميم ، ثم في النارِ يُسْجَرونَ ، ثم قِيلَ لهم أينَ ما كُنْتُم تُشرِكون) (٣) . وقال تعالى أيضاً : (وان تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قولهُم : أإذا كُنّا تُراباً إنّا لفي خَلْقٍ جديدٍ ؟ أولئكَ الذينَ كَفَروا بربِّهم ، واولئكَ الاغلالُ في أعناقِهِمْ ، واولئكَ

(١) انظر ص : ٣٠٧

(٢) سورة الانسان ٧٦ : ٤

(٣) سورة غافر ٤٠ : ٧٠ – ٧٣

أصحابُ النارِ هُمْ فيها خالدونَ) (١) . والاغلالُ جمع غُلّ : وهي الحديدة التي تجمع يد الأسير الى عنقه (٢) . اما السلاسل فهي جمع سلسلة وهي حلقة منتظمة من جهة الطـول مستمرة (٣) . وكذلك قولهم في الاصفاد (٤) . هذه القيود الرهيبة تثير في النفس تساؤلا ما اذا كان العرب يعرفون القيود ، والسلاسل ؟ . ام انهم بمجرد سماع الآيات الكريمة يستطيعون تخيلها من الجو الرهيب الذي يرسمه سياق الآيات العام . واذا بحثنا عن هـذه الصورة في البيئة الجاهلية وجدناها واضحة كل الوضوح فقد فخر الشعراء بقبائلهم ، وبطولاتهم التي ينتصرون فيها على أعدائهم . ويكبلونهم بالأغلال ، وقد كررها الشعراء الفرسان في اشعارهم ، وكيف انهم يعودون من الغارات ، وقـد كبلوا أسراهم بالاصفاد ، والقيود . قال عنترة :

تَرَكْنا ضرارا بين عانٍ مُكَبَّلٍ وَبَيْنَ قتيلٍ غابَ عنه النَوائحُ (٥)

وقال أيضاً :

وعـدنا بالنِّهابِ وبالسبايا وبالأسرى تُكَبَّلُ بالصِفادِ (٦)

---

(١) سورة الرعد ١٣ : ٥ وانظر ايضاً سورة سبأ ٣٤ : ٣٣

(٢) الصحاح ٥ : ١٧٣٢ ، لسان العرب ١٤ : ١٣

(٣) التبيان ٩ : ٩٥ ، وانظر اللغة في الصحاح ٥ : ١٧٣٢ ، لسان العرب ١٣ : ٣٦٧

(٤) الفصيح : الورقة ١٧ ، الصحاح ١ : ٤٩٥ ، لسان العرب ٤ : ٢٤٣

(٥) ديوان عنترة : ٤٥

(٦) ن . م : ٥٥ وانظر ايضاً ٦٤ ، ٧١ ، ٩٧ ، ديوان سلامة ابن جنـدل : ١٨ ، ٤٧ ، ٤٨ ، النقائض ، ١ ، ٧٦ ، ١٥٣ ، اسماء المغتالين : ٢٢٧

وقال يزيد بن عمرو بن الصعق (١) في يوم المروت (٢) مفتخرا

وَضرَّجْنا عبيدة بالعَوالي فأصبحَ مُوثقاً فينا أسيرا (٣)

ونجد ذكر القيود مصورا في جانب شعري آخر ، حين وصفها الشعراء الذين عانوا ثقلها واحسوا بوطئها الشديد على أيديهم ، واقدامهم قال المهلهل بن ربيعة ذاكراً القيود التي أوثق بها فحالت دون حراكه :

واليك ابنةَ المُجَلَّل عني لا يُواتي العناقَ مَنْ في الوِثاقِ (٤)

وقال ابو محجن الثقفي ، وقد اوثق بالحديد والسلاسل التي حالت دون حركته وسيره قال :

اذا قُمتُ عَنّاني الحديد وأُغْلِقَتْ مصارعُ دوني قد تُصم المُنادِيا (٥)

---

(١) يزيد بن عمرو بن الصعق من وجوه قيس . ذكر انه كان يحضر مجلس ابن جفنة ، وهو الذي اسر رؤبة بن رومانس اخا المنذر لامه . انظر الأغاني ١ : ١٣٨ معجم الشعراء : ٢٣٧

(٢) هو يوم بين بني تميم وعامر بن صعصعة . وكان سببه انه التقى قعنب ابن عتاب الرياحي وبجير بن عبد الله العامري بعكاظ . فقال بجير لقعنب : ما فعلت فرسك البيضاء ؟ قال هي عندي وما سؤالك عنها ؟ قال : لانها نجتك في يوم كذا وكذا . فانكر قعنب ذلك وتلاعنا وتداعيا ، فكانت بعدها غارات واسرى بين الطرفين . انظر الكامل لابن الاثير : ٢٦٤ . ٢٦٥

(٣) النقائض ١ : ٧٢ .

(٤) اسماء المغتالين : ٢٠٨ . وانظر ايضاً شرح ديوان عنترة : ٩٧ ، ديوان عدي بن زيد : ٢٤٠ ديوان النابغة الجعدي : ١٠٣ : ديوان الخنساء : ١٢ . ٢٢ وانظر ايضاً الشعر والشعراء ٢ : ٥٨٣ ، امثال العرب : ٦٢ غريب الحديث ١ : ٣٢٢ — ٣٢٤

(٥) ديوان : أبي محجن ٦٧

فصورة القيود والسلاسل الواضحة الملامح في البيئة العربية تتمثل في الذهن العربي حين يتلو الآيات الكريمة : (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ، ثم الجَحِيمَ صلُّوه ، ثم في سِلسلةٍ ذَرْعُها سَبعونَ ذِراعاً فاسْلكُوهُ إنَّه كانَ لا يُؤمِنُ باللهِ العظيمِ) (١) . ففي هذه الآيات الكريمة تتابع مشاهد التعذيب ، والعقاب ، حيث يوثق المجرمون بالسلاسل ، والأغلال تلف أجسادهم فلا يطيقون الحركة ، ثم تتلاشى هذه الصورة لتحل محلها صورة اشد رهبة ، ورعبا ، وهي صورة الأصفاد التي يوثقون بها : فتلفهم لفاً ، لان سياق الآيات العام يساعدنا على تصور هذه الرهبة حين يوجه الخطاب الى الملائكة بأخذ المجرمين عنوة وقوة (٢) ، وتضييق وثاقهم بالسلاسل والقيود .

اما تحديد طول السلسلة التي يقيد بها المجرمون في النار : والتي ذكرت الآيات الكريمة انها سبعون ذراعاً ، فقد ذهب فريق من المفسرين الى العدد الحقيقي فقالوا : (سبعين ذراعاً من ذراع الملك) (٣) . وروي عن نوف البكالي (٤) انه قال : كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بينك وبين مكة ، وهو يومئذ في مسجد الكوفة (٥) .

(١) سورة الحاقة ٦٩ : ٣٠ ـ ٣٤

(٢) ويؤكد معنى القوة في اخذ المجرمين قوله تعالى : (يُؤْخَذُ المجرمون بالنواصي والاقدام) سورة الرحمن ٥٥ : ٤١

(٣) تنوير المقياس : ٣٦٦ ، جامع البيان ٢٩ : ٦٣

(٤) هو نوف بن فضالة البكالي . كان اماما لأهل دمشق . ذكره ابن حبان في الثقاة وقال : كان راوية للقصص استشهد مع محمد بن مروان في الصائفة وتوفي نحو سنة ٥٩٥ هـ انظر تهذيب التهذيب ١٠ : ٤٩٠

(٥) جامع البيان ٢٩ : ٦٣

هكذا فهم بعض المفسرين طول السلسلة وتحديدها ، إلا ان الذي يتتبع الاستعمال اللغوي للعدد سبعة ، والأسلوب القرآني الكريم يجد انه سبحانه وتعالى نهج في بيانه البلاغي منهج العرب في أساليبهم ، وتعابيرهم فقد ذكرت السبعة والسبعون في التضعيف ، والتكثير . وهكذا وردت في القرآن الكريم (١) ، والحديث النبوي الشريف (٢) في مواضع عديدة لا يراد منها العـــدد حقيقة ، وانما مجازاً على سبيـــل المثـل والكثرة لا العد والحصر .

ومن الذين اشاروا الى هذه الناحية الازهري بقوله : (وأرى قول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسـلم ان تَستَغفِرْ لهم سبعينَ مرة ، فلن يغفر اللهُ لهم) (٣) . في باب التكثير والتضعيف ، لا باب حصر العدد ، ولم يرد الله عز وجل ان زاد على السبعين غفر لهم ، ولكن المعنى ان استكثرت من الدعاء ، والاستغفار للمنافقين ، لم يغفر الله لهم) (٤).

وقال الزمخشري مؤكدا هـــذه الفكرة : (وجعلها سبعين ذراعاً ارادة الوصف بالطول كما قال (ان تستغفر لهم سبعين مرة) (٥) : يريد مرات كثيرة ، لانها اذا طالت كان الارهاق اشد) (٦) .

---

(١) المعجم المفهرس : ٣٤٠ .

(٢) النهاية في غريب الحديث ٢ : ١٤٣ .

(٣) سورة التوبة ٩ : ٨٠ .

(٤) عن لسان العرب ٨ : ١٠ .

(٥) سورة التوبة ٩ : ٨٠ .

(٦) الكشاف ٣ : ٣٦٤ .

ب ـ طلاء القطران :

قال الله تعالى : (يوَمَ تُبَدَّلُ الارضُ غيرَ الارضِ والسموات لله الواحد القهار وترى المجرمينَ يومئذ مُقَرنينَ في الأصفادِ سَرابيلُهُمْ من قَطرانٍ ، وتغشى وجوههم النار ، ليجزي الله كل نفس ما كسبت . إنَّ الله سريعُ الحسابِ) (١) .

ففي هذه الآيات نجد وصفا لملابس اهل النار ، وكيف انها تضفي صورا رهيبة اخرى تزيد ملامح العذاب هولا ورعبا .

فالسرابيل هي القمص كما قال المفسرون (٢) واللغويون (٣) . اما القطران ففيه ثلاث لغات قَطِران ، قِطْران ، قِطِران (٤) . وقد اختلف المفسرون في تفسيره فقال بعضهم انه الهناء الذي تهنأ به الابل الجربى(٥). وقال بعضهم بل هو الصفر المذاب (٦) . وبمثل هـذا التفسير الاخير

---

(١) سورة ابراهيم ١٤ : ٤٨ .

(٢) تنوير المقياس : ١٦٣ ، مجاز القرآن ١ : ٣٤٥ .

(٣) جمهرة اللغة ٣ : ٣٠٥ ، الصحاح ٥ : ١٧٢٩ ، لسان العرب ٦ : ٣٥٦ وانظر شواهد الشعر في ديوان عامر بن الطفيل : ١٤ ، شرح ديوان لبيد : ٣٥٨، المفضليات : ١٤٥ ، الوحشيات : ٢٢٦ ، وانظر ايضا الصناعتين : ٥٩ .

(٤) جامع البيان ١٣ : ٢٥٥ ، التبيان ٦ : ٣١٠ ، الكشاف ٢ : ١٨٥ .

(٥) جامع البيان ١٣ : ٢٥٥، التبيان ٦ : ٣١٠ .

(٦) تنوير المقياس : ١٦٣ ، جامع البيان ١٣ : ٢٥٦ .

قال من قرأ قَطْرانٍ (١) اي من صفر مذاب قــد تناهى حره (٢)

ومع ان القراءتين تقدم لنا معنى مشتركا واحدا وهو السائل المذاب الشديد الحر سواء كان من صفر مذاب ، او من الهناء الذي تهنأ به الابل فالذي يبدو ان القراءة الاولى واعتبار الكلمة اسما واحدا (القطران) هي الارجح ، لان اكثر القراء عليها (٣) . ولانها تقدم لنــا صورة واضحة الملامح للبيئة العربية ، شديدة الصلة بحيوانها ، وذلك ان ابلهم كثــيرا ما كانت تصاب بالجرب فاضطروا الى معرفة دواء يعالجونها به فكان الهناء او القطران . وقد قالوا عنه (انه عصارة الابهل ، والارز ، ونحوها ، يطبخ فيتحلب منه ، ثم تهنأ به الابل) (٤) . وقال ابو حنيفة : (زعم من ينظر في كـلام العرب ان القطران هو عصير الصنوبر ، وان الصنوبر هو اسم لوزة ذاك ، وان شجرته به سميت صنوبرا) (٥) . ولا يهمنا في هذا الباب اختلافهم في استخراج مادة القطران (٦) . وانما المهم معرفة صفة القطران ، ثم دلالته على البيئة العربيــة ، ومعرفة العرب له قال علقمة الفحل واصفا ناقة :

---

(١) وبهذا المعنى ورد القطر في قوله تعالى : (حتى اذا جعله نــارا وقال اتوني افرغ عليه قِطْرا) سورة الكهف ١٨ : ٩٦ .

(٢) تنوير المقياس : ١٦٣ ، جامع البيان ١٣ : ٢٥٧ . وانظر ايضا ادب الكاتب : ٢٢١ لسان العرب ٦ : ٤١٧ .

(٣) التبيان ٦ : ٣١٠ .

(٤) لسان العرب ٦ : ٤١٦ ، الابهــل حمل شجر العرعر ، انظر الصحاح ٤ : ١٦٤٣ .

(٥) لسان العرب ٦ : ٤١٧ .

(٦) قد يكون هذا الاختلاف صادرا عن اختلافهم في استخراجه ، فيصنعه=

قَدْ أدْبَرَ العُرُّ عنها وهي شامِلُها

من ناصِعِ القطرانِ الصِرْفِ سِيم (١)

يقول قد ذهب الجرب عن هذه الناقة ، ولكن بقايا القطران مازال مطليا على جسدها ، ومع اننا لا نستخلص من هذا البيت صفة من صفات القطران ، الا انه يعكس لنا دلالاته في الذهن العربي ، ومعرفة العرب له قال الزمخشري مفسراً القطران ، ذاكراً صفاته بانــه : (ما يتحلب من شجر يسمى الابهل فيُطْبَخُ فتُهنأ به الابل الجربى ، فيحرق الجرب بحرّه وحدته ، ومن شأنه انه يسرع في اشتعال النار ، وقد يستسرج به ، وهو اسود اللون ، نتن الريح ، فتطلى به جلود اهــل النـار حتى يعود طلاؤه كالسرابيل وهي القمص لتُجمع عليهم الاربع : لذع القطران ، وحرقه ، واسراع النار في جلودهم ، واللون الوحش ونتن الريح) (٢) : فالزمخشري هنا يجمع كل الايحاءات التي تدل عليها كلمة القطران ، فهو شديد الحر تطلى به اجساد الكافرين ، فتسرع النار اليهــا وتحيطهم من كل مكان . وقول الزمخشري بانه اسود اللون منسجم مع صفة المجرمين يوم القيامة ، وانهم يكونون سود الوجوه (٣) ومن هنا يبدو ان قوله تعالى : (وترى المُجرمينَ يَومئذٍ مُقَرَّنين في الاصْفاد ، سَرابِيلُهُمْ من قَطِرانٍ ، وتَغْشى وجوهَهُم النارُ ، ليجزي الله كلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَت ، انَّ

= بعضهم من مادة ، ويصنعه اخرون من مادة اخرى .

(١) ديوان علقمة الفحل : ٦ ، وانظر ايضا شرح ديوان كعب : ١٦٠ ، وانظر ص ٨٤ .

(٢) الكشاف ٢ : ١٨٥ .

(٣) انظر ص ١٣٩ فما بعدها .

اللهُ سَرِيعُ الحِسابِ) (١) لايراد به وصف لباس حقيقي لاهل النار(٢) وانما رسم صورة رهيبة لعذاب النار ، حيث تطلى اجسادهم بمادة يسرع فيها لهيب النار ، وتحرق جلودهم حتى يصل اللهب الى داخل ابدانهم . وقد عبر عن هذه الصورة بتعبير القطران الذي ينقلنا الى صور اعتادها العرب في بيئتهم . واطلاق اسم السرابيل على هذه المادة يزيد من هول الوصف ، ذلك لان الناس قد عهدوا الملابس تقيهم اذى الحر ، والبرد (٣) ، فاذا بالمجرمين في النار يُسَرْبَلُونَ بمادة لا تمنع عنهم الاذى ، بل تزيد في سرعة اشتعال اجسادهم ، واذاهم . هذه المادة اعتادها العربي في بيئته ، وأَلِفَ ان يطلي بها ابله الجربى ، فعرف صفتها ، وخبر شدة حرارتها ، فكيف به اذا قيل له انها ستكون بمثابة السربال للمجرم يوم القيامة .!!

وبمثل هذا التعبير جاء قوله تعالى : (هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَموا في ربِّهم ، فالذينَ كفروا قُطِّعَتْ لَهُم ثِيابٌ من نارٍ ، يُصَبُّ من فَوقِ رؤسِهم الحَميمُ ، يصْهَرُ بهِ ما في بطونِهِم ، والجلودُ ، ولَهَمْ مقامِعُ من حَديدٍ ، كُلَّما ارادوا ان يَخْرجوا منها من غَمّ أعيدوا فيها ، وذُوقوا عذابَ الحريق) (٤) فكأنَّ شمول النار واحاطتها باجساد الكافرين تشكل لباسا لهم .

انها صورة رهيبة تكمل جوانب العذاب حين تجتمع مع لظى النيران ، والقيود والأصفاد التي تشلّ حركتهم ، فلا يستطيعون الهرب ، أو التخلص

---

(١) سورة ابراهيم ١٤ : ٤٨ .

(٢) تلخيص البيان : ٢٣٨ .

(٣) وبهذا المعنى ورد اللباس في قوله تعالى (وجَعَلَ لكم سرابيلَ تقيكم الحرَّ ، وسرابيلَ تقيكمْ بأسكم . . .) سورة النحل ١٦ : ٨١ .

(٤) سورة الحج ٢٢ : ١٩ - ٢٢ .

من العقاب ، لأنهم قد كتب عليهم العذاب الدائم . (إنَّ الذينَ كَفروا بآياتِنا سوفَ نُصليهم ناراً كلما نَضجَتْ جُلودُهم بدّلناهم جُلوداً غيرها ليَذوقوا العذابَ ، إنَّ الله كانَ عزيزاً حكيماً) (١) .

(١) سورة النساء ٤ : ٥٦ .

الفصل السادس

الثواب بالجنة

١ ـ وصف طبيعتها

٢ ـ اعتدال جوها

٣ ـ أنهارها وشرابها

أ ـ أنهار الماء

ب ـ أنهار اللبن

ج ـ أنهار الخمر

٤ ـ صنوف أخرى من النعيم

أ ـ لباسهم

ب ـ أساور الذهب والفضة

١ ــ وصف طبيعتها

لقد مرّت بنا سابقاً صور العذاب في النار . ودلالتها على البيئة العربية ولنقارنها الآن بصور النعيم التي يثاب بها المؤمنون . فالنار الحامية التي يعذب بها المجرمون ، ويسقون من شرابها الحار المحرق ، تقابلها صورة الجنة العالية والعيون والأنهار الجـــارية ، والفرش الجميلة المنصوبة . قال الله تعالى : (وجوه يومئذٍ خاشعةٌ ، عاملة ناصبةٌ ، تَصلى ناراً حاميةً . تُسقى مِن عَينٍ آنيةٍ ، ليس لهم طَعامٌ إلا مِنْ ضَريعٍ ، لايُسْمِنُ ولا يُغْني من جُوعٍ وجوهٌ يومئذٍ ناعِمةٌ ، لِسَعْيِها راضيةٌ ، في جنة عاليةٍ ، لاتسمَعُ فيها لاغية ، فيها عينٌ جاريةٌ ، فيها سُرُرٌ مرفوعةٌ ، وأكوابٌ موضوعة) (١) وفي سورة التكوير نجد العرض السريع لمشاهد القيامة المتتالية من اضطراب السماوات والأرض ، ثم موقف الحساب ، والقضاء حيث يصدر بعدها قرار الحكم في النار أو الجنة : (إذا الشَمْسُ كُورتَ ، واذا النجومُ انكَدرتْ ، واذا الجبالُ سُيِّرت ، واذا العِشارُ عُطّلَت . . واذا المؤودةُ سُئلت بأيّ ذنبٍ قُتِلت ؟ واذا الصحف نُشِرَتْ ، واذا السماءُ كشِطت واذا الجحيمُ سُعِّرت ، وإذا الجَنةُ أزلِفت . . .) (٢) وقد ورد ذكر الجنة في (١٢١) آية (٣) على انها المثوى الأخير للمؤمنين ، وتقابلها النار قرار المجرمين الأبدي .

---

(١) سورة الغاشية ٨٨ : ٢ ـ ١٤ .

(٢) سورة التكوير ٨١ : ١ ـ ١٣ .

(٣) انظر المعجم المفهرس ١٨٠ ـ ١٨١ .

وقد فسرت الجنة بأنها البستان المحفوف بالشجر ، المتكاثف بالنخيل (١) وكذلك قال اللغويون (٢) . وقد وردت في الشعر الجاهلي دالة على هذا المعنى . قال امرؤ القيس :

تَبَصَّر خليلي هَلْ تَرى مِنْ ظعائنٍ
سوالكَ نقباً بينَ حَزْمَىْ شَعَبْعَب
عَلَوْنَ بانطاكيّة فوق عقمة
كَجِرْمة نَخْلٍ أو كَجنةِ يَثْربِ (٣)

فمجموعة الظعائن فى سيرها ، وارتفاعها ، تشبه عند الشاعر مجموعة النخيل ، اوجنة يثرب بنخيلها واشجارها العالية ، مما يعطينا صورة واضحة لدلالة الجنة في الذهن العربي ، واطلاقها على البستان المتكاثف الأشجار . وكذلك فسروا الفردوس بالجنة (٤) ، الا انهم اختلفوا في اصلها (٥) .

---

(١) معاني القرآن الورقة ١٨ (ب) تفسير الخمسمائة آية : الورقة ٥٠ الينابيع : ١٣٧ التبيان ٦ : ٢٤٦ : حقائق التأويل ٥ : ٢٤٦ : الكشاف ١ : ١٩٨

(٢) الصحاح ٥ : ٢٠٩٣ ، لسان العرب ٦ : ٢٥٣

(٣) ديوان امرىء القيس : ٤٣ ، ٥٨ ، ١١٥ ، شرح ديوان عنترة ٨٠ : المفضليات : ١٠٦

(٤) جامع البيان ١٦ : ٣٦ : التبيان ٧ : ٩٨

(٥) قال بعضهم انها عربية مأخوذة من الفردسة وهي السعة . الفراء عن لسان العرب ٨ : ٤٣ — ٤٤ ، جمهرة اللغة ٣ : ٣٣٣ ، المعرب : ٢٤١ ، وقال بعضهم بل هي رومية — جامع البيان ١٦ : ٣٦ : التبيان ٧ : ٩٨ ، الاتقان ٢ : ١٣٩ ، شفاء الغليل : ١٩٩ ، وذهب آخرون — وهو الأرجح — انها كلمة توافقت فيها اللغات القديمة السامية والشرقية بصورة عامة انظر ذيل =

واذا قارنا صورة الجنة كما وصفها القرآن الكريم بالبيئة العربية استطعنا ان نتصور الايحاءات الجميلة التي توحيها الآيات الكريمة في الذهن العربي ذلك لاننا نجد للزرع ، والأشجار بصورة عامة أهمية عظيمة في حيـــاة العرب وتعابيرهم وتفكيرهم. ونظراً لتعلقهم بصور النخيل فقد أداروها في اشعارهم وتشبيهاتهم فكثيرا ما وصفوا الضعائن في ارتفاع هواد جهن ، واختلاف الوانهن ، وشبهوها بالنخيل ، وطلعـــه المختلف الألوان . قال امرؤ القيس :

فَشَبَّهْتُهُمْ في الآلِ لمّا تَكَمَّشُوا
حدائقَ دَوْمٍ او سَفيناً مُقَيَّرا
او المكرعاتِ مِن نَخيلٍ ابنِ يامِنٍ
دُوَيْنَ الصَّفا اللائي يَلينَ المُشَقَّرا
سَوامِقَ جَبّارٍ اثيثٍ فُروعُـــهُ
وعالَينَ قِنوانا من البُسْرِ أحمَرا

فسرعة الاظعان ، وسيرها في الصحراء الواسعة تشبه عنـد الشاعر النخيل التي تتعالى سامقة في السماء . وتَغَنّوا بوصف الناقة وشبهوها بالنخلة في امتداد صلبها . (١) كل هـــذه التشبيهات تعطينا صورة لأهمية الشجر ، والنخيل في الذهن العربي (٢) ، وكيف انها وجدت في بيئتهم واحبوها كل الحب ، الا ان وجودها كان محدود النطاق اذ افتقرت اليه

= الالفاظ السريانية ، مجلة المجمع العلمي العربي م ٢٦ ج ٣ ص ٣٣٦ ، الدخيل في اللغة العربية ، مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول م ١١ ج ٢

(١) راجع في هذا تشبيه شرر النار بالجمالات ص ٢٢٨

(٢) لقد بلغ تعلقهم بالأشجار ان بعضهم قدسها وعبدها . انظر الميثولوجيا عند العرب : ١٠٩ فما بعدها

كثير من المناطق ، نظراً للبيئة الصحراوية التي تفتقر في كثير من اماكنها الى العشب اضافة الى الشجر والنخيل .

هذه الصورة تعكس في الذهن العربي نعيم الجنة ، وجمالها الطبيعي الرائع الذي طالما تاقت اليه نفوسهم فنجد في وصف الجنة النخيل ، والأشجار المتدانية القطوف الوفيرة الاثمار ، والاعناب : (ولِمَنْ خافَ مقامَ ربهِ جنتان ، فبأي الآءِ ربكما تُكذبان ؟ ذواتا أفنانٍ ، فبأي الآءِ ربكما تُكذبان ؟ . فيهما عينانِ تجريان ، فبأي الآءِ ربكما تُكذبان ؟ فيهما من كلِّ فاكهةٍ زوجان ، فبأيّ الاءِ ربكما تكذبان ؟ ومن دونهما جنتان فبأيّ الاءِ ربّكما تُكذبان ؟ . مُدهامتان ، فبأيّ الاءِ ربّكما تُكذبان ؟ . فيهما عينانِ نضّاختان ، فبأيّ الاءِ ربّكما تُكذبان ؟ . فيهما فاكهةٌ ، ونخلٌ ، ورُمانٌ . .) (١) وقال تعالى معددا نِعمَ الجنة الكثيرة ، والفاكهة المتنوعة ، والطعام اللذيذ ، والظل الوارف الجميل مع وفرة المياه ، والنخل ، والاشجار : (واصحابُ اليمينِ ، ما اصحابُ اليمينِ ، في سِدرٍ مخضودٍ ، وطلحٍ منضودٍ وماءٍ مسكوبٍ ، وفاكهةٍ كثيرةٍ لا مقطوعةٍ ، ولا ممنوعةٍ) (٢) .

لقد احب العرب العشب الذي ترعاه ما شيتهم ، واحبوا المطر ، وترقبوه لأن في انعدامه افتقاراً للعشب وموتاً لحيوانهم ، وماشيتهم . ولما كان لون العشب اخضر فقد تعلقوا بهذا اللون ، واعتبروه احب الألوان الى نفوسهم ، فهو لون الشباب المحبب ولذلك قيل اذا توفي الرجل شاباً قد اختضر (٣) ، ذلك لأنه توفي في ريعان شبابه كالغصن حين يكون

---

(١) سورة الرحمن ٥٥ : ٤٦ — ٥٣ ، ٦٢ — ٦٨

(٢) سورة الواقعة ٥٦ : ٢٧ — ٣٣

(٣) الصحاح ٢ : ٦٤٧ ، لسان العرب ٥ : ٣٢٧ .

على أحسن حال ، واجمله ، ايام خضرته ، ونضارته .

اما اذا ارادوا الدعـــاء على قوم ، فانهم يدعون عليهم بالجدب ، والحرمان من الخصب فيقولون : اباد الله خضراءهم) (١) . لان الخضرة مقترنة بالخير والنعيم ، واذا ارادوا التعبير عن دوام المحبة قالوا : (الامر بيننا اخضر اي جديد لم تخلق المودة بيننا) (٢) . ومن هنا قال ذوالرمة واصفا الوصال بالخضرة :

أَقَرابُ مَيٍّ والوِصالُ أَخْضَرُ   ولمَ يغَيّرْ وصلَهَا المغَيِّرُ (٣)

فايام الوصال وصفها بالخضرة لجمالها ، واقترانها بالجـــدة والبهجة

اما وصف الاشخاص بالخضرة ، فقد ذهب بعضهم الى ان المراد به الفخر وانهم اذا ارادوا مدح الرجل نعتوه بالاخضر (٤) كقول اللهبي (٥) .

وأنا الأخْضَرُ مَنْ يَعْرِفني   أخْضَرُ الجلدةِ في بَيْتِ العَرَبْ (٦)

ويبدو ان هذا النعت لا يراد به الفخر من حيث دلالة اللون على

(١) الفراء عن لسان العرب ٥ : ٣٢٩ ، ادب الكاتب : ٥٠ ، مجمع الامثال ١ : ١٠٩ .

(٢) اساس البلاغة : ٢٣٦ .

(٣) ديوان شعر ذي الرمة : ٢٠٢ ، اراجيز العرب : ١٠ .

(٤) احساس الشعراء العرب بالالوان والاصوات ، مجلة كليـــة الاداب العدد الاول لسنه ١٩٥٦ ص ٨ ، الوصف في شعر العراق : ٩٧ .

(٥) هو الفضل بن عباس بن عتبة بن ابي لهب احد شعراء بني هاشم وكان ممن قدم على عبد الملك بن مروان انظر المعارف : ١٢٦ ، الاغاني ١٥ : ٨ ـ ١٠ المؤتلف والمختلف : ٤١ .

(٦) الحيوان ٣ : ٢٤٨ ، المؤتلف والمختلف : ٤١ ، اساس البلاغة : ٢٣٦ لسان العرب ٥ : ٢٨ ، فخر السودان : رسائل الجاحظ ١ : ٢٠٧ .

النعمة ، والخير ، وانما اريد به لون البشرة . قال ابن قتيبة معلقا على البيت : (الخضرة السواد اراد الأدمة) (١) .

وروى ابن منظور تعقيبا على البيت (يقول ان لون العرب السمرة)(٢) وقال المبرد شارحا ابياتاً لحسان ، ورد فيها ذكر خضر بني خلف قال: (يريد سواد جلودهم كما قال الفضل بن العباس)(٣) (البيت) . وقال (فهذا على القول الاول . وقال اخرون شبههم في جودهم بالبحار ، لما يرى من لون الخضرة في مياهها) (٤) . وكون الشاعر مدحهم لانه شبههم بالبحار التي وصفت بالخضرة غير واضح المغنى ، الا إذا اريد به اللون القاتم الذي يرى في مياه البحر حين تربدّ ، وتضطرب بشدة . ومن هنا يبدو لنا انالشاعر اراد الفخر بكونه من العرب الخُلَّص الذين لم تَشُبهم حمرة الاعاجم (٥) . وهذه التسمية هي التي تفسر لنا وصفه جلّ من قائل الجنة بالدهمة : (ومن دونهما جنتان ، فبايّ الاء ربكما تكذبان ؟ مُدْهامَّتان) (٦) . وذلك وصف لخضرتها بانها لشدة ريها ، ونضرتها

(١) المعارف : ١٢٦ .

(٢) لسان العرب ٥ : ٣٢٥ .

(٣) الكامل للمبرد ١ : ٢١٧ .

(٤) ن . م .

(٥) واطلاق الخضرة على السمرة او السواد ناتج عن طبيعة الالوان ، وصعوبة تحديدها وقد مر بنا سابقا انالذوق العربياعتبر البياض المشوب بالصفرة اجمل الالوان واحلاها انظر ص ١٤١ .

(٦) فخر السودان : رسائل الجاحظ ١ : ٢٠٤ .

تبدو زاهية ، وتقرب الى لون السواد . قال الجاحظ . (واحسن الخضرة ما ضارع السواد . قال الله عز وجل ومن دونهما جنتان ، ثم قال لما وصفهما وشوّق اليهما مدهامتان) .

هذا اللون المحبب الى نفس العربي هو الذي يتمثل في الذهن عند قراءة الآيات الكريمة التي تخص ثواب الجنة ، واشجارها ورياضها .

وهناك آيات اخرى تجسد صورة الخضرة المحببة الى نفس العربي ، وذلك ان لون ثياب اهل الجنة وصفت بالخضرة دون الالوان الباقية لما لهذا اللون من ايحاء جميل في نفوس العرب ، وذوقهم العام . قال الله تعالى (اولئك لهَمُ جنات ُ عدْنٍ تَجْري من تَحتْهِم ْ الانهارُ ، يُحلَّوْنَ فيها من اساور من ذَهب وَيلبسونَ ثيابا خُضْراً من سُنْدسٍ واستبرق ، متكئينَ فيها على الارائك نِعْمَ الثوابُ ، وحَسُنَتْ مرتُفقا) (١) . وقال تعالى . (متكئينَ على رَفْرَف خُضْرٍ) (٢) . هذا اللون الجميل المحبب نجده في وصف ملابس الملوك ، وذلك انهم كانوا يوشونها باللون الاخضر (٣) . كما نجد في وصف الملابس ان بعضها لا تكون الا خضراء اللون (٤) . مما يعكس لنا اهمية هذا اللون ، وحب الذوق العربي له (٥) .

---

(١) سورة الكهف ١٨ : ٣١ .

(٢) سورة الرحمن ٥٥ : ٧٦ ، وانظر الكشاف ٣ : ١٩١ .

(٣) أنظر ديوان النابغة الذبياني : ١٢ .

(٤) انظر في هذا مقال الأنسجة في مجلة الأبحاث ج ٤ كانون الأول السنة ١٤ ١٩٦١ ص ٥٦٦ ، ٥٧١ .

(٥) انظر في هذا مقال البيئة العربية في القرآن الكريم مجلة البيّنة السنة الأولى العدد ١٠ - ١٩٦٣ - ١٣٨٢ هـ .

ومن هنا يتضح لنا ان الخضرة في القرآن الكريم تجسيد للذوق العربي الذي احبها وشغف بها ، لأنها تمثل في نظره الخير ، والرفاهية ، والحياة الدائمة . وكل هذه الصور ترتسم في الذهن عند قراءة وصف الجنة ، وطبيعتها المشرقة الزاهية .

٢ - اعتدال جوها

ان لظى النار ، وحرها الشديد تقابله في الجنة صورة معاكسة إذ وصف جوها بالاعتدال ، وطيب الهواء : (لايَرونَ فيها شمساً ، ولا زَمْهريرا) (١) أي انهم في الجنة في جو معتدل لايعانون الحر الشديد الذي يعانيه أهـل النار ، ولا البرد القارص المؤذي . وفي هذا رد لاعتراض الزرادشتية الذي مر بنا ذكره (٢) . فكما نفي عن الجنة الحر الشديد الذي عاناه العرب ، فكذلك نفي عنها البرد الشديد القارص ، وهو أيضاً مما عاناه العربي في بيئته لأن بلاد العرب لم تكن أرض سموم وحر فقط ، انما عانت البرد والحر على اختلاف فصول السنة ، وان كانت صور الحر أوضح ملامح في الشعر الجاهلي من صور البرد ولعل مرد ذلك الى ان الحر يصحبه عطش مضنٍ يؤلم العربي ويؤذيه . أما في البرد فقد اكتفوا بوصف شدة البرد ، وحاجتهم الى الدفء .

ومعرفة العرب للبرد هو الذي أوحى لبعض المفسرين تفسير الغساق في قوله تعالى : (لايَذوقونَ فيها بَرْداً ، ولا شرابا إلا حميماً وغساقا) (٣)

---

(١) سورة الانسان ٧٦ : ١٣ .

(٢) أنظر ص ٢٠٥ .

(٣) سورة النبأ ٧٨ : ٢٥ .

وذلك لأنهم قالوا بأن مايسقاه أهل النار انما هو شراب لايستطيعون ذوقه لشدة برده (١) . مما يدلنا على ان العرب عانوا من أذى البرد ، مثلما عانوا الحر ولظاه حتى فهموا ان البرد يمكن ان يكون وسيلة من وسائـــل التعذيب يوم القيامة .

لقد عرفت الطائف باعتدال هوائها ، وطيب جوها ، ومع ذلك فقد ذكر أن درجة البرودة تصل فيها أحياناً الى درجة يجمد فيها الماء (٢) ، وكذلك الحال مع باقي جبال الجزيرة العربية . قال المقدسي : (وأما ماكان من ناحية الجبال فهي باردة) (٣) ، وسميت آكام بلاد الازد (آل قراس لكثرة ثلجها) (٤) .

وكما وجدنا صورة الحر واضحة الملامح في الشعر الجاهلي ، فكذلك نستطيع ان نجد فيه وصفاً لشدة البرد ، ورياحه القارصة . قال حاتم الطائي :

أوقِـد فانَّ الليـلَ ليلٌ قرٌّ والريحُ ياموقِـدُ ريحٌ صرٌّ (٥)

وقال آخر (٦) :

اذا كانَ الشِتاءُ فأدْفِئوني فانَّ الشيخَ يـَهدمـُهُ الشتاءُ (٧)

ومن هنا كثر وصفهم لنار الاصطلاء ، وقربهم منها ، وحبهم لدفئها

---

(١) جامع البيان ٣٠ : ١٣ - ١٤ ، الكشاف ٣ : ١٨ .

(٢) صورة الأرض : ٣٢ ، احسن التقاسيم : ٧٩ ، آثار البلاد : ٩٨ ، قطعة من كتاب في الجغرافية : الورقة ٦٦ (ب) .

(٣) أحسن التقاسيم : ٧٠ .

(٤) معجم البلدان ٤ : ٤٦ ، معجم ما استعجم ١ : ٩٢ .

(٥) ديوان حاتم الطائي : ٥٩ .

(٦) حقائق التأويل ٥ : ٢١٧ ، ولم أعثر على نسبة البيت .

(٧) ثمار القلوب : ٤٦٠ .

ومما يحكى في هذا الباب ان اعرابياً اشتد عليه البرد ، فأصاب ناراً ، فدنا منها ليصطلي وهو يقول : (اللهم لاتحرمنيها في الدنيا والآخرة) (١) . ومع ان الطابع الاسلامي واضح في هذه الحكاية الطريفة ، فان لها دلالتها على البيئة العربية وقت الشتاء وكيف ان البرد يشتد فيها الى درجة يتمنى فيها المصطلي النار في دنياه وآخرته ! ومن هنا وصفوا أذى البرد الذي تعانيه حيواناتهم (٢) .

ومع ذكرهم لصور البرد ، ومعاناتهم له في البيئة العربية إلا انه لايبلغ مبلغ تصويره الحر الشديد ، ومعاناتهم العطش فيه ، ومن هنا كان تخويف القرآن الكريم بالحر اضعاف ما خوف بالبرد .

ومن هنا يستطيع العربي ان يتمثل الصورة المشرقة للجنة في انعدام الحر ، والبرد الشديدين ، ويستطيع ان يتصور السعادة المتناهية التي يثاب بها المؤمنون في الجنة :

٣ ـ انهارها وشرابها :

أ ـ انهار الماء .

والى جانب الخضرة المحببة ، والأشجار الجميلة نجد في وصف الجنة صورة أخرى تزيد المشهد روعة وجمالا ، الا وهي صورة الأنهار الجارية

---

(١) ثمار القلوب : ٤٦٠

(٢) ديوان جران العود : ٧ شرح اشعار الهذليين ١ : ٦٨ ، المفضليات : ١٢٦ ، ١٧٧ اسماء المغتالين : ٢٤٢ ، الحيوان ٥ : ٧٥ ، الأزمنة والأمكنة ٢ : ٢٤٢ ، اراجيز العرب : ١٠٩

الوفيرة المياه . وقد وردت في (٣٨) اية (١) : كلها تصف الجنة التي تجري من تحتها الانهار (وَبَشِّر الذينَ آمنوا وَعملوا الصالحاتِ أنَّ لَهُمْ جنــاتٍ تجري من تَحتِها الانهارُ كلما رُزِقوا منها من ثمرةٍ قالوا : هذا الذي رُزِقنا من قبل ، واتوا به متشابها ، وَلهُم فيها ازواج مُطهرةٌ وهم فيها خالدون) (٢) . وقال تعالى ايضاً : (مَثَلُ الجَنَةِ التي وُعِدَ المتقون تجري من تَحتِها الانهارُ أُكُلُها دائِمٌ وظِلُّها : تلكَ عُقبى الذين اتقوا ، وعُقبى الكافرينَ النــار) (٣) وفي سورة محمد (ص) نجد صورتين متعاقبتين احداهما صورة الجنة التي تجري فيها الأنهار وقد عدد الله سبحانه وتعالى انواع هـذه الأنهار فبعضها من ماء صاف وبعضها من لبن ، او خمر ، او عسل كلها اعدت لينعم بها المؤمنون . هذه الصورة تقارن بأخرى تليها ، وهي صورة العذاب وما يلاقيه المجرمون في النــار حين يسقون المـاء الحميم الشديد الحرارة ، فتُقطّع امعاؤهم (مَثَــلُ الجنة التي وُعِدَ المتقونَ فيهــا انهارٌ من ماءٍ غــير آسنٍ ، وانهارٌ من لَبَنٍ لمْ يَتَغيّر طعْمُهُ ، وانهــارٌ من خَمْرٍ لذةٍ للشاربينَ ، وانهارٌ من عَسلٍ مُصفّى ، ولَهُم فيها من كلِّ الثمراتِ ، ومغفرةٌ من ربِّهم كمن هو خالدٌ في النار ، وسُقوا ماء حميماً (٤)) :

واذا بحثنا الماء في القرآن الكريم في غير الآيات التي تخص القيامة

---

(١) انظر المعجم المفهرس ٧١٩ — ٧٢٠

(٢) سورة البقرة ٢ : ٢٥

(٣) سورة الرعد ١٣ : ٣٥

(٤) سورة محمد ٤٧ : ١٥

نجد له اهمية كبيرة ، فقد ورد في (٣٤) آية (١) تصور الماء على انه من النعم العظيمة التي اسبغها الله سبحانه وتعالى على البشر ، فهو أساس الحياة : (وَجعلنا من الماءِ كلَّ شيءٍ حيّ) (٢) ومع ذلك نجد شح الماء ، وقلته في البيئة العربية ، وحيثما نقرأ نجد ذكر الماء ، والعطش ذلك ان للصحراء العربية لا توجد فيها انهار دائمة الجريان ، وانما وديان تسير فيها المياه وقت الامطار ، وسرعان ما تتلاشى ، وتغور (٣) : فلا يوجد في مكة مثلا ماء جار ابداً (٤) . الا ما يحتفرونه من الآبار والعيون (٥) : فالمدينة حياتها على السيول وقت الامطار ، وعلى الآبار سائر السنة (٦) . اما جُدة فان اهلها في تعب دائم ، من الماء كما يقول المقدسي (٧) . اما سائر الجزيرة العربية فان اعتمادها الكلي على الأمطار التي قد تشح احياناً فتتركهم في يأس من الحياة والمراعي (٨) . وقد

(١) المعجم المفهرس : ٦٨٤

(٢) سورة الأنبياء ٢١ : ٣٠

(٣) صورة الأرض : ٢٧ ، وانظر إيضاً هذا العالم : ٣٣٣ . اما ما يذكر عن سد مأرب والمياه التي تجري في انهاره ، فانما احتفر العرب هذه الانهار ليوجهوا اليها السيول التي تسيل من الجبال . انظر الاعلاق النفيسة : ١١٢ ، احسن التقاسيم : ٩٥

(٤) اسماء جبال تهامة : ٤٤

(٥) البلدان : ٣١٦ ، صورة الأرض : ٢٩ المسالك والممالك : ١٣٤ ، معجم ما استعجم ١ : ٢٦٩ ، معجم البلدان ٤ : ٦٢٢

(٦) البلدان : ٣١٢

(٧) احسن التقاسيم : ٧٩

(٨) هذا العالم : ٣٣٣

تخلو بعض المناطق من الآبار ، والعيون ، فتنعدم فيها الحياة (١) . وحول الماء وحفر الآبار دارت الأساطير الغربية ، وكلها تصور التقديس الذي احيط به الماء (٢) .

وقلة المياه ، والحرمان منها عرضت العرب في كثير من أسفارهم الى الخطر المحدق حيث يعانون من أذى العطش والظمأ ما يعرضهم إلى الهلاك : ومن هنا أوجدوا طريقة يقتسمون بها الماء ، وذلك انهم يضعون حصاة في اناء ، ثم يصب فيه من الماء قدر ما يغمر الحصاة ، فيعطاها كل رجل منهم ، واسموا هذه الحصاة بالمقلة (٣) . وهذه الطريقة تطلعنا على شح الماء في بيئتهم الى درجة يقتسمونه فيها ، بقدر ما يغمر الحصاة .

واذا كانت البيئة العربية قد حرمت الأنهار ، وشحت فيها المياه فمن الطبيعي ان يكون اعتمادهم الكلي على الأمطار ، ومن هنا صارت لهم خبرة عظيمة في تتبع مواقع المطر ومعرفة السحاب الممطر ، أو الخادع (٤) . فاذا انقطع عنهم المطر واحتبس فان هناك فروضاً

---

(١) صورة الأرض : ٣٤ ، جزيرة العرب لبيربي : ٢١

(٢) المثالب : الورقة ٣٠ — ٣١ ، المنمق : ٤١٣ فما بعدها ، المحاسن والأضداد : ٧٨ ، المحاسن : ٤١٥ ، ثمار القلوب : ٤٤٤ . وقد خص العرب القدماء الماء بأحاديث طويلة ، فمدحوا الماء البارد ، وذكروا منافع الماء وميزوا بين العذب والرديء كل ذلك نتيجة خبرتهم به . انظر الدلائل والاعتبار : ٦١ المحاسن : ٤٧٠ مختصر البلدان : ٢٢٠ أحسن التقاسيم : ١٠١

(٣) امثال العرب : ٦١ ، الغريب المصنف : الورقة (٢٤٨) مجالس العلماء : ٢١٦ ، ٢١٧

(٤) انظر الأشباه والنظائر ١ : ٥٥ ، امالي القالي ١ : ٨٤

عديدة يقدمونها لاستنزال المطر ، ومنها صلاة الاستسقاء (١) ، أو النيران التي يوقدونها (٢) ومن هنا عبد بعضهم الكواكب التي لا يمطرون عندها رهبة منها ، وخوفاً (٣) . كما عبد آخرون النجوم التي اذا طلعت عليهم توقعوا نزول الأمطار ، وكثرة الخيرات (٤) .

ومن هنا نرى أي صورة جميلة ، تلك التي ينقلها لنا الاعرابي حين يشبه صوت حبيبته بالقطر الذي يسمعه الراعي بعـد سنين طويلة مجدبة وقد أصاخ سمعه ، وملأت الفرحة قلبه في انتظار المطر :

وَحديثُها كالقَطْرِ يَسْمَعُهُ   راعي سنينَ تَتابَعتْ جَدبا

فأصاخَ يَرجُو أنْ يكونَ حَياً   وَيقولُ من فَرَحٍ هَيا ربا (٥)

ومن هنا كان دعاؤهم للميت ان يسقي قبره المطر (٦) ؛ كما نجد

---

(١) انظر صحيح مسلم ٣ : ١٢١٢ : الأزمنـة والانواء : ١٣٦ ، بلوغ الأرب ٢ : ٣٠١

(2) Ency of Religion . Art Religion of the Semitic 1 : 669

(٣) من ذلك عبادتهم للدبران انظر بلوغ الارب ٣ : ٢٣٩ : الميثولوجيا عند العرب : ٧٨

(٤) من ذلك عبادتهم للثريا انظر بلوغ الارب ٢ : ٢٤٠ ، الميثولوجيا عند العرب : ٨٤ ، ١٠٠

(٥) الأشباه والنظائر ١ : ٥٥ ، الامالي للقالي ١ : ٨٤ . وانظر ايضاً المنازل والديار : الورقة ٣٧ ، اسرار البلاغة : ١٢٤

(٦) ديوان الخنساء : ١٥ ، امالي اليزيدي : ٢٢ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٤ الاشباه والنظائر : ٦

في ذكر ايمانهم انهم كانوا يقسمون بالمطر ، وبمنزِل المطر (١) . وقال الجاحظ : والماء قد يكون القسم كقول الشاعر :

لا أَشرَبُ الباردَ او تَرضى   غَضْبَى ولا واللهِ يا أَهلَها

ويقولون لو علم فلان إنَّ شربَ البارد يضع من مروءته لما ذاقه (٢) وقال طفيل مقسماً بالماء .

ولا أقولُ وَجمّ الماءِ ذو نَفَسٍ   من الحَرارةِ إنَّ الماءَ مَشغولُ

ولأهمية الماء في نفوسهم سموا بعض الأشخاص باسم ماء السماء (٣) . ونجد أهمية الماء في البيئة العربية متمثلا في الشعر العربي في كافة أغراضه ، فنجده في الفخر والمديح والغزل وغيرها من فنون الشعر ، فاذا أراد شاعرهم الفخر ، فانما يفخر بشرب قومه الماء الصافي على حين يشرب غيرهم الكدر قال الحارث بن حلزة اليشكري :

وانّا الشاربونَ الماءَ صَفْواً   ويَشربُ غيرُنا كَدراً وطينا(٤)

ويفخر شاعرهم بأنه يمنع نفسه لذة الشراب ، لأنه يؤثِر رفيقه

(١) من ذلك قولهم لا ومقطع القطر ، أنظر الأمالي للقالي ١ : ٥٠ ، ايمان العرب : ٢٠ ، وتروى لاومقطع القطرة . أنظر المخصص ١٣ :١١٨ ، المزهر ٢ : ٢٦٢

(٢) الحيوان ٥ : ١٤٨ ، وقد علق محقق الكتاب على قول الجاحظ بقوله : (والحق ان الماء مقسم عليه لامقسم به ، وأما المقسم به فهو لفظ الجلالة) ويبدو انه حتي في حالة كون الماء مقسم عليه فان له دلالته على أهميته في البيئة العربية . والبيت غير منسوب ، وانظر أيضاً مختصر البلدان : ٢٢٢ .

(٣) الحيوان : ١٤١ ، وانظر أيضاً شرح القصائد السبع : ٤٧٥ .

(٤) شرح القصائد السبع : ٤١٩ .

بالشراب قبله ، مما يظهر لنا قلة الماء ، وحاجتهم اليه ، قال أبو دؤاد (١) :

لا يَخافُ النَديمُ جَهْلي على الكأس ولا يَحذَرُ الصَديقُ عقوقي
أمنَعُ النَفسَ لَذةَ الماءِ ظَمآنَ اذا لمْ يَنلهُ قبل رفيقي (٢)

أما في الهجاء الذي تنعكس فيه مثل الفخر والمدح ، فنجدهم إذا أرادوا هجاء شخص شبهوه بالماء الكدر المالح .

لو كنتَ ماءً كنتَ لا عذبَ المَذاقِ ولامَسوسا (٣)

ومن اتيان الماء ووروده صدرت عن العرب أمثال عديدة تعكس كلها أهمية الماء (٤) . وأثره العظيم في نفوسهم ولغتهم ، ومن هنا لوّن الماء تعابيرهم ، واكتست به ألفاظهم فقالوا : (صبغ له ماء ، وفلان ليس في وجهه ماء) (٥) .

هذه الصورة المحببة للماء ، والأهمية العظيمة التي نجدها في حياة العربي هي التي تجسد لنا الصورة الرائعة للجنة التي أعدها الله للمؤمنين ، وأجرى

---

(١) هو أبو دؤاد الأيادي اختلفوا في اسمه فقال بعضهم هو جارية بن الحجاج ، وقال غيرهم هو حنظلة بن الشرقي . شاعر جاهلي كان من وصّاف الخيل وكان في عصر كعب بن امامة الأيادي الذي آثر بنصيبه من الماء رفيقه النمري فمات عطشاً . أنظر الشعر والشعراء ١ : ١٦١ ، الأغاني ١٥ : ٩١ ، خزانة الأدب ٤ : ١٩٠ .

(٢) الحماسة البصرية : الورقة ١٧٢ (ب) .

(٣) ديوان السموأل : ٩٣ ، ديوان النابغة الجعدي : ٧ شرح القصائد السبع : ٢٧٣ ، الأمالي للقالي ١ : ٣ ، ثمار القلوب : ٤٤٥ ، الجبال والأمكنة : ٦٦ .

(٤) أمثال العرب : ٢٢ .

(٥) ثمار القلوب : ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، وانظر في هذا ، الماء في الأدب العربي : ٧ .

فيها الأنهار الواسعة ، والمياه الوفيرة . وكما استطعنا من قبل ان نتصور مدى التصوير المعجز الذي رسمته الآيات الكريمة للعطش : (ونادى أصحابُ النارِ أصحابَ الجنةِ أن أفيضُوا علينا من الماءِ ، أو مما رزَقكُم اللهُ ، قالوا انَّ اللهَ حرَّمَهُما على الكافرين) (١) . فمع ان الآيات الكريمة تصور لنا العطش المؤلم الذي يعانيه أهل النار ، فيتمنون قليلا من الماء ، فانها من الناحية الأخرى تعكس لنا نعيم الجنة ، فتجتمع الصورتان لتكمل الاعجاز الرائع في تصوير عذاب النار ، ونعيم الجنة . فصورة الجنة الوارفة الظلال المتنوعة الأشجار مع الأنهار الوفيرة والعيون المتفجرة ، تقابلها صورة النار ولظاها ، والحرمان من الماء .

وصورة الأنهار الجارية هي التي تكمل صورة الطبيعة الرائعة في القرآن الكريم وقد ذكر هذا الزمخشري بقوله : (ولولا ان الماء الجاري من النعمة واللذة الكبرى ، وان الجنان والرياض وإنْ كانت آنق شيء وأحسنه لاتروق النواظر ، ولا تبهج الأنفس ، ولا تجلب الأريحية والنشاط حتى يجري فيها الماء . والا كان الأنس الأعظم فائتاً والسرور الأوفر مفقوداً . وكانت كتماثيل لاروح فيها ، وصور لاحياة لها لما جاء الله بذكر الجنات مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية من تحتها مسوقين على قران واحد كالشيئين لابد لأحدهما من صاحبه) (٢) .

وفي الآيات التي وردت فيها الجنة غير مقترنة بالأنهار نجدها مقرونة بالعيون المتفجرة بالمياه والى جانبها صورة أخرى هي صورة المجرمين مع الماء الحار قال الله تعالى : (هذه جَهَنَّمُ التي يُكَذِّبُ بها المجرمونَ ، يَطوفونَ بينها ،

---

(١) سورة الأعراف ٧ : ٥٠ .

(٢) الكشاف ١ : ١٩٩ - ٢٠٠ .

وبينَ حَميمٍ انٍ ، فبأي الآءِ ربكما تكذبان ؟ وَلِمَنْ خافَ مَقامَ ربهِ جَنَّتان ، فبأيّ آلاءِ ربكما تكذبان ؟) (١) . وقال أيضاً : (هَلْ أتاكَ حديثُ الغاشية ، وجوهٌ يومئذٍ خاشعةٌ عامِلةٌ ناصِبةٌ ، تَصلى ناراً حاميةً تُسْقى من عَيْنٍ آنيةٍ ، ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لايُسمنُ ولا يغني من جوعٍ ، وجوهٌ يومئذٍ ناعِمةٌ ، لِسعيها راضيةٌ ، في جنةٍ عاليةٍ ، لاتَسمَعُ فيها لاغيةٌ ، فيها عَينٌ جاريةٌ) (٢) .

واذا كانت عيون وآبار الحياة الدنيا معرضة للجفاف والنفاذ ، فان عيون الجنة وفيرة المياه دائمة التفجير (عيناً يَشرَبُ بها عباد الله يفجّرونها تفجيرا) (٣) . فاقتران عين الجنة بالمصدر (تفجيرا) تبين ميزتها ، وجمالها بأنها دائمة التفجير غير مقترنة بزمن معين .

وفي كل هذه الآيات ترتسم في الذهن الصورة المحببة للماء ، والجمال الذي تثيره الآيات الكريمة في تصوير أنهار الجنة ووفرة المياه فيها (٤) .

وقد وصفت كؤوس شراب أهل الجنة بأنها ممزوجة بطعم الزنجبيل قال الله تعالى : (ويُطافُ عَليْهم بآنيةٍ من فِضّةٍ وأكواب كانتْ قواريرا قواريرا من فضّةٍ قدّروها تَقْديرا ، ويُسقَونَ فيها كأساً كانَ مِزاجُها زنجبيلا عيناً فيها تسمى سَلْسبيلا) (٥) فالزنجبيل مما ينبت في بلاد العرب بأرض عمان ، وهو عروق تسري في الأرض .. وأجوده مايؤتى به من الزنج

---

(١) سورة الرحمن ٥٥ : ٤٤ - ٤٥ .

(٢) سورة الغاشية ٨٨ : ٢ - ١٢ .

(٣) سورة الانسان ٧٦ : ٦ .

(٤) أنظر في هذا مقال البيئة العربية في القرآن الكريم مجلة البيِّنة السنة الأولى العدد العاشر ١٩٦٣ ص ٣٣ فما بعدها .

(٥) سورة الانسان ٧٦ : ١٤ .

او بلاد الصين (١) . وكانت العـرب تستلذ طعمه ، وتستطيبه . قال الطوسي (الزنجيل ضرب من القرفة طيب الطعم ، يلذع اللسان ، يربي بالعسل ، يستدفع به المضار اذا مزج به الشراب فاق في الالذاذ . والعرب تستطيب الزنجبيل جـداً قال الشاعر :

كأنَّ القرْنفلَ والزنْجَبيـلَ باتا بفيها وأرْيا مَشُورا (٢)

فالزنجبيل مما استلذته العرب ، واستطابته ، وقـد شبهوا به ريق المرأة في تغزلهم بها ، قال امرؤ القيس :

كأنَّ المُـدامَ بأنيابها وصوبَ الغَمامِ بماءٍ غللْ
وَطعمَ السَفرْجلِ والزنجيلِ علّ به ، وبصافي العَسلْ (٣)

وقال الأعشى متغزلا :

كأنَّ طعمَ الزنجبيلِ وتـفا حاً على أري الدَّبُورِ نزل (٤)

اما رائحة الشراب فانه معطر بالكافور قال الله تعالى : (انا اعتدْنا للكافرينَ سَلاسلا وأغلالاً وسعيرا ، انَّ الأبرارَ يَشربونَ من كأسٍ كانَ مِزاجها كافُورا ، عَيْناً يَشْرَبُ بها عبادُ اللهِ يُفَجِّرونَها تفجيرا) (٥) . قال الطوسي : (كان مزاجها كافورا قيل ما يُشَمُّ من

---

(١) لسان العرب ١٣ : ٢٣٢ . وقيل ان الكلمة اعجمية . انظر شفاء الغليل : ١٤٠ وقد قال فؤاد حسنين الزنجبيل (بقلة يقال لها فلفل الماء الدخيل. في العربية مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول مايو ١٩٤٩

(٢) التبيان ١٠ : ٢١٤ : والبيت للاعشى في ديوانه : ٩٣ مع اختلاف في الرواية ، وانظر ايضاً الكشاف ٣ : ٢٩٨

(٣) ديوان امرىء القيس : ٢٩٨

(٤) ديوان الاعشى ص ٢٧٧

(٥) سورة الانسان ٧٦ : ٤ — ٦

ريحها لا من جهة طعمها ، والكافور في اللغة ضرب من الطيب) (١) . وقد ذكر ابن دريد انه ليس بعربي محض مستدلا بقولهم القَفُورُ والقافورُ (٢) . وليس في هذا القول دليل قاطع على اعجمية الكلمة ذلك لان هناك نباتاً معروفاً بعينه يسمى الكافور قال الليث : (الكافور : نبات له نَورٌ ابيض كَنَوْرِ الاقحوان) (٣) . فمن الجائز ان يكون الكافور مستخرجاً منه .

ومن هنا نرى ان القرآن الكريم بعد ان وصف وفرة المياه ، وتنوع الشراب اللذيذ الذي ينعم به المؤمنون في الجنة ، وصف لنا طعمه بانه مخلوط بطعم الزنجبيل الذي احبه العرب واستطابته نفوسهم ، ثم ان رائحته طيبة كطعم الكافور الذي اعجبوا به واستلذوا رائحته .

ب ـ أنهار اللبن :

وإلى جانب انهار المياه التي تجري في الجنة نجد وصفاً آخر لانهار من اللبن والخمر ، قال الله تعالى : (مَثَلُ الجنةِ التي وُعِدَ المُتقونَ فيها أنْهارٌ من ماءٍ غير آسن وانهارٌ من لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طعمُهُ وانهارٌ من خَمْرٍ لذةٍ للشاربينَ ، وانهارٌ من عَسَلٍ مُصَّفى) (٤) .

وذكر اللبن ضمن انهار الجنة يثير صورة في الذهن العربي ، صورة

---

(١) جمهرة اللغة ٢ : ٤٠١ ، الصحاح ٢ : ٨٠٨ ، لسان العرب ٦ : ٤٦٦

(٢) جمهرة اللغة ٢ : ٤٠١ ، وانظر ايضاً المعرب : ٢٨٤ ، ٢٨٦

(٣) لسان العرب ٦ : ٤٦٦

(٤) سورة محمد ٤٧ : ١٤ ـ ١٥

البيئة التي عاشهـا العربي . فاللبن من منتوجات حيوانهم ، وهو شرابهم المفضل الا ان شح البيئة العربية بالكلأ ، والزرع في اكثر ايام السنـة كان يؤدي الى قلة الخيرات ، وانعـدام اللبن في اثدائها ، ومن هنا نجد ندرة اللبن - وخـاصة في الشتاء - فتنبعث من ندرته نغمات جديـدة يبعثها الشاعر في فخره وحماسته ، فقد خصوا بشرب اللبن اعزّ من في منازلهم : الضيف والفرس .

اما الضيف فقد عرفنا عادة العرب ، وما حتمتـه البيئة العربية الشحيحة من تعود الكرم وبذل المـال ، والنفس له ، فكانوا يُؤْثرون الضيف باللبن وتلك سمة من سمات الكرم . قال الحارث بن حلزة مخاطبا صاحبه ليقدم اللبن الخالص للاضياف :

لا تَكْسَعِ الشولَ باغبارِهـا انّك لا تدري من الناتِـجُ
وأصْبب لاضيافِك من رَسْلِها فانَّ شَرَّ اللبَنِ الوالِجُ (١)

وقال الحطيئة :

قَرَوْا جارَكَ العيمان لما جَفَوْتَهُ
وَقلَّصَ عن بَرد الشَراب مشـافره
سناما ومَحْضـا أنبتَ اللحمَ فاكتست
عظامُ امرىءٍ ما كانَ يَشْبَعُ طائرُه (٢)

يقول لقد قلصت مشافر جارك عن برد الماء ، فلم يقدر على شربه لشهوة اللبن ، وانه لشدة هزاله اذا وقع عليه طائر وهو ميت لم يشبع من

(١) المعاني الكبير ١ : ٤٠ ، وانظر ايضاً ١ : ٣٩٨ ، والكسع ان ينضـح الضرع بالماء البارد ثم يضربها بالكف صعدا . اراد فشر اللبن ما حقن في الضرع .

(٢) ن . م ١ : ٤٠٤ - ٤٠٥ ، والبيت الاول غـير موجود في ديوان الحطيئة : ١٧٧ .

قلة لحمه ، وهزله ، فكونه متشوقا الى اللبن بدرجة عافت نفسه الماء ، مما يدلنا على تعلق نفس العربي باللبن ، واهميته في حياته .

اما في الهجاء فانهم كانوا يعكسون هذه الناحيـــة التي اعتبروها من اهم صفات المديح فقالوا عن المهجو انه يخص نفسه باللبن ، ولا يسقيـــه اهله وجيرانه . قال الشاعر :

وَيشْرَبُهُ محضاً ويسقي ابنَ عمّه
سجاحاً كأقرابِ الثعالبِ أوْرَقا (١)

والسجاح الذي مذق حتى تغير طعمه .

اما سقي الفرس اللبن ، فاننا نجد صداه واضحا عند شعراء الفروسية الذين اولوا الفرس حياتهم ، ونزل في نفوسهم منزل العزيز الكريم وذلك لكونها الاساس الذي يعتمد عليه العربي في الدفاع عن شرفه ، وقبيلتـــه حين يغار عليه ، ومن هنـــا اعتنوا بالخيول اعتناءهم باولادهم ، ونسائهم بل جاوزوا ذلك الى تفضيله على عيالهم جميعاً . قال عنترة بن شداد : (٢)

فَمَنْ يَكُ سائلاً عني فإنّي وَجروةَ لا تَروُدُ ولا تُعارُ
مُقَرَّبةَ الشتاءِ ولا تَراهـــا وراءَ الحَيّ يَتْبَعُها المِهارُ (٣)
لها بالصيفِ أصْبِرَةٌ وجِلٌّ ونيب من كرائمها غِزار (٤)

(١) المعاني الكبير ١ : ٤٠ .

(٢) شرح ديوان عنترة : ٧٨ والشعر منسوب الى شداد بن معاوية العبسي انظر امثال العرب : ٣٦ .

(٣) لقد خص الشتاء هنا لانه زمن المحل ، والجدب ، فالكرم فيه امدح اي انها للركوب لا للنسل .

(٤) الاصبرة من الغنم والابل التي تروح وتغدو على اهلهـا لا تعزب عنهم والجل ّ بالكسر البعير ، والنيب المسنة من الابل ، وانظر ايضـــاً شرح اشعار =

وفي الشتاء حين تهزل الماشية وتجف البانهـا يخصون الفرس باللبن المحض ويعـيّرون غيرهم بسوء صيانتهم الخيل ، واذلالهم لها (١) . يقول مالك بن نويرة :

أعَـلِـلُ أهـلِي عن قليـلِ متاعِـهِـم
وأسـقِـيهِ مَحضَ الشَـوْلِ والحيّ هاتِـفُ (٢)

فهو هنا يقول بانه يحرم اهله شرب اللبن ، ويعللهم ، ويلهيهم ، ليسقي فرسه اللبن الشول الخالص ويخصها به . وتبلغ ندرة اللبن احيانـا الى درجة لا يسقي الرجل عياله الا ما فضل من شرب الفرس قال متمم ابن نويرة :

فَلَهُ ضريبُ الشَـوْلِ الاسُـوْء رهُ   والجِلُّ فهوَ مربب لا يُخلعُ (٣)

يريد بانه يسقي فرسه اللبن المحض ، وما بقى سؤره لا يرده عليه بل يشربه هو واهله .

ومن هنا نجد في اخبار الشعراء ، واشعارهم اشارات الى ان النساء كانوا يلومون ازواجهم بحرمانهم اللبن ، وخصهم الفرس بـه ، وهم في اشد الحاجة اليه ايام المحل ، والجدب . فيذكر عنترة زوجته ، ولومها له ، مظهرا قلة اكتراثه بانينها ، وتوجعها ، وينذرها بالهجران ان استمرت على لومه :

= الهذليين ١ : ١١٣ ، الشعر والشعراء ١ : ٢٢٧ .

(١) انظر الخيل : ١٢ نخبة عقد الجياد : ٢٢٣ ، وانظر هذا في اخبارعنترة الاغاني ٨ : ٤٤٣ ط دار الكتب .

(٢) الخيل : ١٢ ، حلية الفرسان : ١٨٢ ، والشول من الابل ما اتى عليها من حملها سبعة اشهر فخف لبنها .

(٣) المفضليات ٥٢ .

لا تَذْكُري مُهْري وما أطعمْتُهُ
فيكون جلدُك مثلَ جلْدِ الأجربِ
ان الغَبوقَ لــه ، وأنتِ مسوءة
فتأوَّهي مــا شئت ثم تَحَوَّبي (١)

ويقول الأعرج المُعنّى (٢) ذاكراً زوجته ولومها لايثاره الفرس عليها بشرب اللبن :

أرى أمَّ سَهْلٍ ماتَزالُ تَفَجَّعُ   تَلومُ وما تَدري عَلامَ تَوَجَعُ
تَلومُ على أنْ أعطي الوردَ لقمة   وماتستوي والوردُ ساعةَ تُفزَعُ (٣)

ونجد أهمية اللبن في الحديث النبوي الشريف ، وذلك انه كان (ص) يحب اللبن (٤) وانه أوصى بالدعاء عند شرب اللبن . قال : (اذا أكل أحدكم طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه ، وأطعمنا خيراً منه ، واذا سقي لبناً فليقل ، اللهم بارك لنا فيــه ، وزدنا منه ، فانه ليس شيء يجزيء من الطعام والشراب إلا اللبن)(٥) . فالرسول (ص) أوصى هنا أن يدعو الانسان ربه اذا أكل الطعام بأن يرزقه خيراً منه ، على حين انه إذا شرب اللبن لم يطلب خيراً منه ، وانما يدعو الله ان يزيده منه ، لأنه لايوجد طعام ولا شراب يكفي الانسان ، أو يغنيه مثل اللبن .

ومن الطبيعي أن يكون اهتمامهم باللــبن صادراً عن كونه من أهم

---

(١) ديوان عنترة : ١٩ .

(٢) هو عدي بن سويد بن ريّان الأعرج الطائي المعنى وقيل اسمهسويد بن عدي وهو مخضرم . أنظر معجم الشعراء : ٢٥١ .

(٣) شرح ديوان الحماسة ١ : ٣٤٩ .

(٤) المحاسن : ٤٠٩ ، الطب النبوي : ٨٠ .

(٥) سنن أبيداود ٢ : ٣٠٤ ، سنن أبنماجة ٢ : ١١٠٣ ، الطب النبوي: ٨٠ .

منتجات حيوانهم . ويبدو ان هناك سبباً آخر لهذا الاهتمام ، ذلك لأن اللبن عندهم يمثل الفطرة ، فهو أول مايسقى منه رضيعهم ، وحيوانهم بالفطرة فاذا رضع رضيعـان من ثدي واحد ربطهـما اللبن بالاخوة الطبيعية . وان اختلف نسبهـما وأصلهـما .

فاللبن هو الخير الطبيعي الذي يلازم الانسانية في وجودها . وقد دار الفكر العربي حول هذه الفكرة يحب اللبن ويقدسه ، حتى تبلورت في ذهنه فـكرة الخير المطلق ، وارتبط اللبن باليُمْنِ والبركـة فقـالوا ايمن من اللبن (١) ، لهذه الدلالة المقترنة بالخير الدائم . ومما يروى ان رسول الله(ص) قال عن عمار بن ياسر : (أبو اليقظان على الفطرة لن يدعها حتى يموت ، أو ينسيه الهرم) (٢) . وعنه (ص) انه قال عن عمار أيضاً بأن آخر شربة يشربها من الدنيا شربة لبن ، وانه قد شرب اللبن قبل مقتله فصدق قول الرسول الكريم (٣) . ويمكن أن نقرن بين الروايتين بأن عمـار بن ياسر عاش حياته على الطبيعة والسليقة ، فكان اللبن قوام طعامه وشرابه ، حتى ختم حياته الفطرية باللبن الذي يمثل شراب الفطرة ، وفارقه الى الجنة حيث يلقى هناك شراب الخير الطبيعي الدائم .

ومن هنا تتضح لنا الصورة الجميلة لأنهار اللبن في الجنة بالاضافة الى كونها توفر لهم الشراب المفضل اللذيذ ، لأنها تؤكد لهم فكرة الخير المطلق والبركة الدائمة التي تظلل المؤمنين ، لأن اللـبن شراب الفطرة ، الشراب الميمون المبارك الذي يجدونه في الجنة متوفرا ، بل يمتعون أنظارهم بمشهد جريه في أنهار جميلة رائعة .

---

(١) أساس البلاغة : ٨٤٤ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٣ ق ١ : ١٨٨ .

(٣) ن . م : ١٨٤ ، مسند الامام أحمد ٤ : ٣١٩ .

ج - أنهار الخمر

أما أنهار الخمر التي ذكرتها الآيات الكريمة : (مَثَلُ الجَنَةِ التي وعِدَ المُتقونَ فيها أنْهارٌ من ماءٍ غيرِ اسن ، وأنهارٌ من لَبَنٍ لمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربينَ) (١) . فانها تعطينا صنفاً آخر من أصناف شراب أهل الجنة ، واذا عدنا الى البيئة العربية وجدنا للخمرة صدى عميقا في نفوس العرب وحياتهم (٢) .

فقد ذكرت الخمرة في الشعر العربي ، ذكرها الشاعر ليغمر في كأسه أحزانه ، ويدفن فيها قلقه . وقد تغنى الشعراء بشربها ، ووصفوا تأثيرها السحري على نفوسهم . قال عمرو بن كلثوم :

ألا هبّي بصَحْنِكِ فاصْبحينا ... ولا تُبقي خُمورَ الأندَرينا

مُشَعْشَعَةً كأنَّ الحصى فيها ... اذا ما الماء خالَطَها سَخينا

تَجور بذي اللبّانةِ عَنْ هَواهُ ... اذا ماذاقَها حتى يَليِنا (٣)

وقد فخروا بشربها . قال طرفة بن العبد :

وإن تَبغِني في حَلْقَةِ القوم تَلْقَني

وإنْ تقتنصني في الحوانيتِ تَصْطَدِ

---

(١) سورة محمد ٤٧ : ١٥ .

(٢) أنظر في هذا تطور الخمريات : ٢٨ فما بعدها .

(٣) جمهرة أشعار العرب : ١١٧ ، وانظر أيضاً ديوان ابن مقبل ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ديوان حميد بن ثور : ٥٩ ، شرح أشعار الهذليين ١ : ٤٨ ، ٤٩ .

متى تَـأتني أصْبحْكَ كأساً رَوِيّةً
وإنْ كنتَ عنها غانياً فاغنِ وازدَدِ (١)

ووصفوا أواني الشراب وكؤوسه . قال عنترة بن شداد واصفاً زجاجة الخمر :

ولقَـدْ شَرِبْتُ من المُدامَةِ بَعْدَما
رَكَدَ الهَواجِرُ بالمَشُوفِ المُعْلَمِ
بزُجاجَـةٍ صفْـراءَ ذاتِ أسِرَّةٍ
قُرِنَتْ بأزْهَرَ في الشمالِ مُفَدَّمِ (٢)

وقد شبهوا ريق المرأة بالخمرة (٣) . ولم يكتفوا بوصف مجالس الخمر بل نجد عندهم نظرات تأملية يعللون بها شربهم الخمر ، وانغمارهم في الملذات. يقول طرفة بن العبد مخاطباً الذين يلومونه على كثرة شربه ، ولهوه ، بأنه مادام لايستطيع دفع منيته فان عليه أن يبادر الى اشباع رغبات نفسه ، تلك المنية التي تهدده في كل لحظة في بيئته الحربية المتطاحنة :

الا أيُّهـذا اللائمي احضَرْ الوَغى
وإنْ أشهَدِ اللّذاتِ هلْ انتَ مُخْلِدي
فإنْ كنتَ لا تسطيع دَفْعَ منيّتي
فَدَعْني أبادِرْها بما ملَكَتْ يدي
فَذَرْني أُروِّ هامَتي في حياتِها مَخافَةَ شَرب في الحياةِ مُصَرَّدِ

---

(١) ديوان طرفة : ٤٧ ، جمهرة اشعار العرب : ١٣٨ ، وانظر ايضا ديوان النابغة الجعدي : ٨٦ .

(٢) شرح ديوان عنترة : ١٤٨ ، ديوان علقمة الفحل : ٦٩ .

(٣) ديوان جران العود : ١٥ ، ٤٥ ديوان سلامة بن جندل : ١٤ ، شرح اشعار الهذليين ١ : ١٤١ ، جمهرة اشعار العرب : ٨٥ ، ١٤١ .

كـريمٌ يُروي نَفْسَـهُ في حيـاتِـهِ
سَتعلمُ إنْ متْنا غداً ايّنا الصـَّدي (١)

انها البيئة التي حتـَّمت على العربي هـذا الضرب من العيش حين اعوزته الاستقرار ، والامان . فكان العربي فيها مهددا في كل لحظة بغارة مفاجئة تثكله بأعز الناس اليه ، أو تقتله . ومن هنا عكفوا على شربها وقضوا لياليهم وأيامهم ينهلون منها قبل أن تصيبهم يد الظروف القاسية . يقول الاستاذ جميل سعيد (فالقبيلة تصبح وكل شيء فيها هادىء ثم تمسي ، فاذا هي قد اغير عليها ، وفقدت نعمها ورجالها ، فلا يبقى أمامها إلا أن تبحث عن الخمر تغرق فيها احزانها) (٢) .

وجاء الاسلام ومعه نظام دقيق لاصلاح البشرية ، ودفع دفـّة الحياة بالعمل ، والتفكير ، دون الانغماس بالملذات والكبائر ، ولم يشأ الله سبحانه وتعالى ان يحرّم الخمرة على المسلمين فجأة ، بل كانت مشيئته الربانية في معاملة النفوس البشرية بالرقة ، واللطف ، فكان تحريم الخمر على مراحل بدأت بذكر اثم الخمر ، وانه أكثر من نفعها (٣) ، وانه لاتجوز الصلاة في حالة السكر (٤) ، وأخيراً كان التحريم المطلق لشرب الخمر ، وحدّ

---

(١) ديوان طرفة : ٥ ، جمهرة أشعار العرب : ١٤١ .

(٢) الوصف في شعر العراق : ٦٢ ، وانظر أيضاً تطور الخمريات : ٢٩ ، فما بعدها .

(٣) قال الله تعالى : (يَسْألونَكَ عن الخَمرِ والمَيسَرِ ، قُلْ فيهما إثمٌ كبيرٌ ، ومنافعُ للناسِ :.) سورة البقرة ٢ : ٢١٩ .

(٤) قال الله تعالى : (ولاتَقْربوا الصلاةَ وأنتُم سُكارى ، حتى تَعْلموا ماتقولونَ) سورة النساء ٤ : ٤٣ .

شاربها (١) . ومع ذلك نجد في وصف أنهار الجنة ان فيها أنهاراً من الخمر وان هذه الخمرة تقدم بكأس بيضاء جميلة ، ووصفت بأنها ليست كخمر الدنيا : (أولئك لهم رزقٌ مَعْلومٌ فواكهُ وهم مُكرَمونَ ، في جناتِ النعيمِ على سُرُرٍ مُتقابلينَ ، يُطافُ عليهِم بكأسٍ مِن معينٍ ، بيضاء لذةٍ للشاربين ، لافيها غول ولا هم منها ينزفون) (٢) . قال ابن عباس مفسراً الغول بأنه (وجع البطن ، وذهاب العقل والأذى) (٣) . ونقل الطبري عن ابن عباس أيضاً بأنه فسر الغول هنا بالصداع (٤) . أما أبو عبيدة فقد خص الغول بأنه ما يغتال العقل ، ولم يعمه على وجع البطن ، والاثم قال : (ليس فيها غول) والغول ان تغتال عقولهم قال الشاعر :

وما زالتْ الكأسُ تَغتالُنا   وتذهبُ الأولَ بالاولِ (٥)

وقال الزمخشري : (الغول ماغالَه يغولُه اذا أهلكَهُ وأفسده ، ومنه الغول الذي في تكاذيب العرب ، وفي أمثالهم الغضب غول الحليم) (٦) .

وفي الاستعمال اللغوي مايوكد هـذا المعنى فالغول (المهلكة ، وكل

---

(١) قال الله تعالى : (انما الخمرُ والمَيسرُ والأنصابُ والأزْلامُ رجسٌ من عَمَلِ الشيطانِ فاجتنبوه) سورة المائدة ٥ : ٩٠ .

(٢) سورة الصافات ٣٧ : ٤٧ .

(٣) تنوير المقياس : ٢٢٧ .

(٤) جامع البيان ٢٣ : ٥٣ ، وكذلك قول الخليـل كما نقله ابن سيدة في المخصص ٥ : ٧٤ ، وانظر أيضاً التبيان ٨ : ٤٩٦ ، وهو معنى أكدته آيات أخرى بقوله تعالى (لايَصدعونَ عنها ولا ينزِفُون) سورة الواقعة ٥٦ : ١٩ ، فقيل ان معنى يصدعون يصيبهم الصداع انظر مجاز القرآن ٢ : ٢٤٩ ، الكشاف ٣ : ١٩٤ .

(٥) مجاز القرآن ٢ : ١٦٩ ، جامع البيان ٢٣ : ٥٣ .

(٦) الكشاف ٢ : ٦٠١ .

ما أهلك الانسان فهو غول) (١) . قال طفيل الغنوي :

ولا أخالِفُ جاري في حَلِيلتِهِ ولاابن عَمِّيَ غالتني إذا غُولُ (٢)

أي أصابتني داهية أهلكتني ، ومنه سميت الصحراء البعيدة المرامي بالغول (٣) . لأنها تغتال الانسان بمجاهلها ، وبهذا تكون الآية الكريمة قد نفت بتعبير واحد معظم عيوب الخمر ، وذلك ان المنعمين في الجنة لايصيبهم صداع ، ولا ألم في بطونهم ، إذ لاتؤذيهم الخمر ، ولا تهلكهم ، إنما هي خمر من ضرب آخر أعدت للمؤمنين في الجنة .

ويتبع هذا النعت وصف آخر لخمر الجنة ، وهو انها لا تنزف اذا شربوها ، (لا فيها غَوْلٌ ، ولاهم عنها يَنزفُونَ) (٤) . قال ابن عباس مفسراً هذا التعبير بقوله : (ينزفون ينفذون ويقال ولا هم يسكرون ولا تصدع رؤسهم) (٥) . وقال ابو عبيدة (لا يسكرون) (٦) . وقد ذكر الطبري ان سبب الاختلاف في تفسير النزف هو اختلافهم في قراءة الكلمة قال : (والصواب في ذلك ان أهل الجنة لا ينفذ شرابهم ولا يسكرهم شربهم اياه فيذهب عقولهم) (٧) .

فالخمر حين حرمت في الحياة الدنيا على المسلمين ، انما حرمت

---

(١) فقه اللغة : ١٩ ، المخصص ٦ : ١٢٨ ، لسان العرب ١٤ : ٢٠ .

(٢) ديوان طفيل : ٣١ ، وانظر أيضاً المفضليات : ٥٩ .

(٣) المخصص ١٠ : ١١٥ ، وانظر شاهد الشعر في مجالس ثعلب ١ : ٨ ، ١٠ ، ١١٨ .

(٤) سورة الصافات ٣٧ : ٤٧

(٥) تنوير المقياس : ٢٧٧

(٦) مجاز القرآن ٢ : ٢٤٩

(٧) جامع البيان ٢٣ : ٥٥

لعيوبها ، ومضارها . وقد عرف العرب عيوبها من قبل ، ونجد ذكرها في الحديث عن أيام لهوهم ، ووصف مجالس شرابهم . قال عدي بن زيد :

إذْ غَبَقَتْهُ حمراء صافية والخمر وَهْلٌ يهيم شاربها (١)

أي ان الخمر تذهب بلب شاربها فيهيم ، ولا يستطيع التفكير الصحيح . قال ابو ذؤيب واصفاً مجلس الندامى ، بانهم لكثرة شربهم يبدون ، وكأن برؤسهم جراحاً :

تَرى شربَها حُمْرَ العيون كأنَّهُمْ أساوى إذا ما سارَ فيهم سوارها

والأساوى جمـع آسٍ وأسيان . يريد كأن شربها بهم جراح في رؤسهم قد دُووِيَتِ . شبه السكارى بذلك لانكسار اعينهم ، (٢)

وقد تفقد الخمر لب الانسان ، وتفكيره ، مما يؤدى به الى مشاكل عديدة (٣) . ومن هنا نفى الشعراء في اشعارهم ان تذهب الخمرة عقولهم قال عنترة بن شداد :

فاذا سكرتُ فانني مُسْتَهلكٌ مالِي ، وعِرضي وافِرٌ لم يَكلمِ
واذا صَحوْتُ فما اقصِّرُ عن نَدىً
وكما عَلِمْتِ شمائِلي وتَكَرُمي (٤)

ومن هنا نرى أي اعجاز عظيم ذلك الذي نجده في الآيات الكريمة حين تصف خمر الجنة ، وانهارها الجارية ، بان خمرها خالص المتعة قد نفيت عنـه كل عيوب خمر الحياة الدنيا . فهي لا تسكر ، ولا يصيب شاربها الصداع ، أو أي الم كان ، ثم ان خمر الجنة مخلوط بالمسك قال الله تعالى :

---

(١) ديوان عدي بن زيد : ٤٨

(٢) المعاني الكبير ١ : ٤٢٢ .

(٣) انظر ديوان أبي محجن : ٦٧

(٤) شرح ديوان عنترة : ١٤٩

(إنَّ الابرارَ لفي نَعيمٍ ، على الأرائكِ يَنْظُرونَ ، تَعْرِفُ في وجوهِهِم نَضرةَ النعيمِ ، يُسْقَونَ من رَحيقٍ مختومٍ ، ختامُهُ مِسْكٌ وفي ذلك فلْيَتَنافَسِ المتنافسون) (١) . فخمر الجنــة صافية مخلوطة بالمسك ، وهو طيب الرائحة (٢) . وكان العرب يتطيبون به (٤) . ويحفظ عادة في قوارير ، وهو من الطيب الثمين الذي يباع باثمان عالية كما يقول الأستاذ جواد علي (٤) .

ج - انهار للعسل :

واخيراً فهناك انهار من عسل تجري الى جانب انهار المياه والخمر واللبن ، واذا كان العسل شرابا متوفراً في كثير من البيئات ، فان معرفة نظرة العرب اليه تشكل لنا صورة لاهميته في بيئتهم ، ونفوسهم ، فقــد ذكر وجود العسل في بعض انحاء الجزيرة العربية حتى صار من أهم مواد تجارتهم ، قال ابن المجاور : (كان لبني سليم في الجاهلية نحل عظيم يشتريه الحجاج ، وأهل الحجاز ، وبعض أهل اليمن) (٥) . اما في باقي

---

(١) سورة المطففين ٨٣ : ٢٢ — ٢٦

(٢) وقد قال الجوهري انه فارسي معرب . انظر الصحاح ٤ : ١٦٠٨ ، المعرب : ٣٢٥ ، لسان العرب ١٢ : ٣٧٧ . وصيغة الكلمة لا توحي بكونها اعجمية ، الا انهم ذكروا انها مادة متوفرة في الصين ، والتبت ، موجودة في قرون ظبائها انظر آثار البلاد : ٧٩

(٣) ديوان الاعشى : ٥٥

(٤) تاريخ العرب لجواد علي ٨ : ٩٣ ، ١٣٥

(٥) صفة بلاد اليمن : ١٥

انحاء الجزيرة العربية ، فقــد ذكر العسل في اشعار الشعراء ، فوصفوا الاماكن التي يكثر فيها ، ووصفوا معاناة المشتار في اشتياره العسل(١) .

ولم يحب العرب العسل لأنه شراب حلو فحسب ، بل لانهم اعتقدوا فيه ما لا يعتقدون بغيره من انواع الشراب ، وذلك انهم اعتــبروه من الادوية التي يعالجون بها امراضهم ، بالاضافة الى كونه شرابا لذيذا حلوا وقد اكد القرآن الكريم هذه الناحية بذكر نِعَم الله الوفيرة التي انعمها على عباده ومنها العسل (وأوْحى ربُّكَ الى النَّحْلِ ان اتَّخذي من الجبالِ بيوتاً ، ومن الشَّجَر ، ومما يَعْرِشُون ، ثم كُلِي من كُلِّ الثَّمراتِ فاسلكي سُبُل ربِّكِ ذُلُلاً ، يَخْرُجُ من بطونهــا شرابٌ مختلف الوانهُ ، فيه شِفاءٌ للناسِ . انَّ في ذَلكَ لآيةً لِقَوْم يتَفَكَرونَ)(٢) كما اوصى به الرسول الكريم (ص) بقوله : (عليــكم بالشفائين العسل والقرآن) (٣) . وقد طبق الرسول (ص) قوله هذا في حياته ، فقــد روي انه كان يشرب كل يوم قدح عسل ممزوج بالماء على الريق (٤) . وروي عن عائشة انها قالت : (كان احب الشراب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم العسل) (٥) . وقالت ايضاً (ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلوى والعسل) (٦) .

وهذا الاهتمام بالعسل مرده الى الفكرة التي رسخت في اذهانهم ،

(١) شرح اشعار الهذليين ١ : ١٤١ .

(٢) سورة النحل ١٦ : ٦٩ - ٧٠ .

(٣) سنن ابن ماجة ٢ : ١١٤٢ ، الطب النبوي : ٦٩ .

(٤) الطب النبوي : ٧٠ .

(٥) ن . م : ٦٩ .

(٦) المحاسن : ٤١٥ ، سنن الدارمي ٢ : ١٠٧ ، الطب النبوي : ٦٩ .

وجربوها في حياتهم ، باعتبار العسل شفاء لكثير من الامراض . هذا من ناحية ومن الناحية الاخرى ، فان طعمه الحلو يجعل الشارب يستزيد منه ، ويستلذه ، ومن هنا تغزلوا بالمرأة وشبهوا ريقها بالعسل . قال النابغة الذبياني :

كأنَّ مَشْمولَةً صِرْفاً بِرِيقَتِها من بَعْدِ رَقدَتِها او شُهْدَ مُشْتارِ (١)

وقالوا في مديح الرجل ، ورثائه بأنَّه كالعسل الخالصِ في لينِهِ ، وعموم نفعِهِ . (٢) وكان شاعرهم اذا ذكرالعسل استطرد الى وصف النحل الذي يجمعه ، والى وصف ما يعانيه المشتار حين يجمع العسل ، معرّضا نفسه الى اذى النحل ، لاجل الحصول على هذا الشراب اللذيذ (٣) .

ومن هاتين الناحيتين جاء اهتمام القرآن الكريم بالعسل ، فذكرت انهار العسل الجارية في الجنة لتزيد متعة المؤمنين بعد الحساب ، تلك المتعة التي تشترك فيها الناحيتان النفسية في كون العسل شفاء ، وعافية ، والمادية بكونه شرابا لذيذا يتمتع به المؤمنون الى جانب النعم الاخرى التي يوفرها الله سبحانه وتعالى في الجنة .

هذه هي صورة الانهار المتعددة التي تجري في الجنة ، فيتمتع بشربها ومنظرها المؤمنون ، واذا قارنا هذه الصورة بصورة التعذيب بالعطش وجدنا فرقا شاسعا بين الصورتين ، فرقا بين من يتوسل ، ويتمنى شربة ماء صاف ، وبين المؤمن الذي يجد امامه نعما متوفراً من خمر ولبن وعسل. وقد اورد القرآن الكريم هاتين الصورتين معا ليزيد ملامح كل صورة وضوحا ، وبيانا : (وُجوهٌ يَومَئذٍ خاشعةٌ ، عاملِةٌ ناصبةٌ ، تَصلْى

(١) ديوان النابغة : ٥٠ ، جمهرة اشعار العرب : ٧٩ ، وانظر ايضا الغريب المصنف : الورقة (٩٨) .

(٢) جمهرة اشعار العرب : ٢٧٥ ، الشعر والشعراء ١ : ١٠٧ .

(٣) اشعار الهذليين ١ : ٤٨ - ٤٩ .

ناراً حامية ، تُسقى مِنْ عَينٍ آنية ، لَيسَ لهم طعامٌ إلا من ضريع لا يُسمِنُ ولا يغني من جوعٍ ، وجوهٌ يومئـذٍ ناعمةٌ ، لِسَعيها راضيةٌ ، في جنةٍ عاليةٍ ، لا تَسْمَعُ فيها لاغيةً ، فيها عينٌ جاريةٌ فيها سُرُرٌ مرفوعةٌ واكوابٌ موضوعةٌ) (١) . وقال تعالى ايضـا : (مَثَلُ الجنَّةِ التي وُعِدَ المُتقونَ ، فيها أنهارٌ مِنْ ماءٍ غير آسنٍ ، وانهارٌ مِنْ لبنٍ لمْ يتغيرْ طعمُهُ ، وأنهارٌ مِنْ خمرٍ لذةٍ للشاربين، وانهارٌ من عسلٍ مصفىً ، ولهُم فيها من كلِّ الثمراتِ ، ومغفرةٌ من ربِّهم ، كمَنْ هو خالدٌ في النـارِ وسُقُوا ماءً حميماً فقطَّعَ امعاءَهم) (٢) . وتكرار لفظة الانهار مرة بعد مرة يزيد جمال الآيـة ويرسخ الصورة الرائعـة للانهار ، والشراب المتوفر في الجنة ، حتى اذا اكتملت هذه الصورة جاءت صورة المجرمـين الخالدين في النار الذين لا يسقون الا الحميم الحار الذي يقطّعُ امعاءهم ويحرق بطونهم .

وتحيط الانهار المتوفرة في الجنة الاشجار والنخيل بظلالها الوارفـة ، وجوها المعتدل الطيب . اما العطش والحرمان من الماء ، فتحيطه صورة النار ، ولظاها المحرق وصنوف عذابها . وبهـذا تتجلى الصورتان فتغمر الراحة ، والسعادة نفس المؤمن حين يقرأ وصف الجنة ، على حين يقشعر جسده ، وتملكه الرهبة حين يقرأ وصف عذاب النار (٣) .

(١) سورة الغاشية ٨٨ : ٢ - ١٤ .

(٢) سورة محمد ٤٧ : ١٥ - ١٦ .

(٣) من حديث الماء في الادب العربي : ٨ ، وقد اهملت الحديث عن طعام اهل الجنة ، لان دلالته على البيئةالعربية غير واضحة كما مرّ بنا في الحديث عن طعام اهل النار انظر ص ٢٥٧ اماذكر اشجار الفاكهة المتنوعة فانها تدخل ضمن الحديث عن وصف الجنة واشجارها الوارفة . انظر ص ٢١٤ .

٤ ـ صنوف اخرى من النعيم :

أ ـ لباسهم :

لقد مر بنا وصف الوان لباس المؤمنين في الجنة ، وكيف انهـا اقترنت بالخضرة احب الالوان الى نفوسهم . اما نسيجها فهو من الحرير الناعم الخالص (ان اللهَ يُدخِلُ الذين آمنوا وعَملوا الصالحاتِ جناتٍ تجري من تحتِها الانهارُ ، انّ اللهَ يفعَلُ ما يريدُ . . . يُحلَّونَ فيها من اساورَ من ذَهبٍ ، ولؤلؤا ، ولباسُهُم فيهـا حريرٌ) (١) . وقال تعالى (وجزاهمْ بما صَبروا جنةً وحريرا ، مُتكئِين فيهـا على الارائكِ ، لا يرَوْنَ فيها شَمْساً ، ولا زَمْهرَيرا) (٢) .

واذا عدنا الى البيئة العربية وجدنا الحرير قد شاع استعماله في العصر الجاهلي خاصة عند الاغنياء منهم . اما النساء فقد كثر وصف ملابسهن المصنوعة من الحرير (٣) . ولبسه الرجال ايضا الى درجة بالغوا فيـه ، حتى جاء الاسلام فاراد ان يحد من هذا الترف فحرم لبسه على الرجال دون النساء (٤) . ومن هنا اباحه الله سبحانه وتعالى للمؤمنين في الجنة ، فالحرير محرم على الرجال في الدنيا ، لانه يمثل الترف المبالغ فيه ، اما في الجنة فان الله سبحانه وتعالى لا يحرم عباده هذه النعمة .

---

(١) سورة الحج ٢٢ : ١٤ ـ ٢٣ .

(٢) سورة الانسان ٧٦ : ١٢ .

(٣) المفضليات : ٤١١ : الشعر والشعراء ١ : ٣١٧ .

(٤) سنن ابي داود ٢ : ٣٦٩ ، ٣٧٢ .

ب ـ أساور الذهب والفضة

وهناك صورة أخرى تعرضها الآيات الكريمة للترف الذي ينعم به المؤمنون في الجنة تلك هي صورة تزينهم بأساور الذهب والفضة (يُحَلَّون فيها من أساورَ من ذَهَبٍ ، ويَلْبَسونَ ثياباً خُضراً) (١) وقال تعالى أيضاً : (عالِيَهمُ ثيابُ سُندسٍ خُضْرٍ واستبرقٌ ، وحُلّوا أساورَ من فضةٍ ، وسَقاهمُ ربُّهم شَراباً طَهورا) (٢) . وللقارىء ان يلاحظ ان الآية الكريمة لاتحدد لبس الأساور بالنساء دون الرجال ، وانما قد يفهم منها ان الرجال يحلون بها أيضاً . ومن هنا نتساءل ما اذا كان الرجال في الجاهلية يتحلون بالحلى والأساور ؟ان ماوصل الينا من المصادر لايعيننا على فهم هذه الصورة إلا اننا نجد في الحديث النبوي مايعكس لنا ذلك فالرسول عليه الصلاة والسلام قد نهى الرجال ، وشدد في منع لبس الذهب والتختم به (٣) وأباح لهم الفضة لأنها أقل ترفاً من الذهب . وهناك حديث شريف يقول : (من أراد ان يُسوِّرَ حبيبه بسوار من نار ،فليسوره بسوار من ذهب) (٤) . ولايمكن ان يوجه هذا الحديث الى منع لبس المرأة الذهب والأساور لأن حكم الاسلام معروف فيه ، وقد أحل لهـا لبس الذهب على أن تؤدي

(١) سورة الكهف ١٨ : ٣١ .

(٢) سورة الانسان ٧٦ : ٢١ .

(٣) سنن أبي داود ٢ : ٤٠٦ ، مسند الامام أحمد ١: ١٦٩ ، ٢ : ٣٣٤ ، ٣٧٨ .

(٤) مسند الامام أحمد ٢ : ٣٣٤ ، ٣٧٨ ، ٤ : ٤١٤ .

زكاته (٥) . إلا اننا يمكن أن نفهم ان بعضهم كان يتسور في الاسلام فشدد الرسول (ص) بمنع هذه الحلية ، لأنها تجعل لابسها في ترف مبالغ فيه ، قد يبعده عن العمل الجدي .

---

(٥) سنن الترمذي ٣ : ٢٩ ، سنن إبن ماجة ٢ : ١٢١ ، مسند الامام أحمد ١ : ٢٠٤ ، ٢٠٨ .

الخاتمة

واخيرا وبعد ان مرت بنا فصول الرسالة تبين لنا ان صور الحساب التي وردت في مواضع متفرقــة من القرآن الكريم قد تجلت لنا بصورة واضحة في هــذا البحث ، ويتبـين لنا انه سبحانه وتعالى عرض لنا يوم الحساب في مشاهد متتابعة ما إن يكتمل مشهد حتى يليه اخر يكمل صورته ويقدم ساعة الحساب مرحلة جديدة ابتداء من ساعة النفير حتّي ساعة القضاء ثم الثواب ، والعقاب ، وفي كل مشهـد من هــذه المشاهد وجدنا صورا عديدة متحركـة تجتمع كلها لتكمل لنا ملامح الموقف وفي كل تعبير نجد جانبا من البيئة العربية .

واذا استعرضنا هذه التعابير نستشف منها اهمية البيئة العربية في وفرة بعض الالفاظ دون غيرها نجد ان الامور التى كانت لها علاقة وثيقة بحياة العربي قد دارت حولها الالفاظ في مفرداتها اكثر من غيرها .

فالجزيرة الغربية صحراء مترامية الاطراف في معظم اجزائها ، كادت تحرم من المياه في كثير من المناطق . ومن هنا نجد ان القرآن الكريم اولى هذه الناحية اهميتها العظيمة ووجدناها واضحة تمام الوضوح فى مشاهــد القيامة : فالمجرمون يساقون الى النار عطاشى محرومين من الماء (ص ٢٣٠) وهي اول وسيلة من وسائل التعذيب بالنار . وتتجلى هذه الصورة اكـثر في التعابير التي تصور شراب أهل النار (ص ٢٣٠ فما بعدها) والايات التي تعرض وصف الجنة ووفرة المياه فيها ، والانهار الجارية فيهـا ٢٨٢ فما بعدها . هذه الاهمية العظيمة للماء تأثر بها المفسرون ايضا ففسروا بعض التعابير التي تبدو بعيدة عن معنى الماء في سياقها العام كقوله تعالى (نحشر المجرمين يومئذ زرقا) سورة طه ٢٠ : ١٠٣ (وانظر ص ١٤٩) . وهناك

تعابير لها علاقة بالماء ، وصفاته كالكدرة (ص ٩٢) والقصر (ص ٢٢٧) ولما كانت الانهار الجارية قليلة تكاد تنعدم في البيئة العربية لذا وجدنا قلة التعابير التي تخص السفينة الا تعبيرا واحدا يخص حبالهـا (ص ٢٢٩)

وهنـاك تعابـير عكست لنا صورا من الصحراء العربيـة كالسراب (ص ٦٧) والكثيب المهيل (ص ٧٨) وتداعي الكثيب (ص ٢٩) ثم مور التراب (٨٦) والرمال الهيم السهلة (٢٤٩) . اما النبات فقد اولاه القرآن الكريم اهمية كبيرة في تعابير عديدة كالنضرة (١٥٩ والفطر وهو شق النبات وخروجه من الارض ٨٩) واخيرا في اوضح مشهد يعرض لنا صفة الجنة وخضرتها المحببة واشجارها المتنوعة (ص ٢٧٣) فما بعدها .

أما التعابير التي تخص الحيوانات فوجدنا ان مجموع الالفاظ التي مر بحثها قـد وفرت حول الحيوانات التي لها علاقة كبيرة في حياة الغربي . فالبعير حيوان الصحراء المعتاد احبه العربي ولازمه في اسفاره ، ورحلاته ، وناجاه مناجاة الصديق . هذا البعير وفرت حوله التعابير سواء كان في خلقه اوصفاته ، او مايعرض له من عوارض من ذلك تعبير الفاقرة : الداهيـة التي قال بعضهم انها مشتقة من فقر انف البعير حين يحز (ص١٢٢) وكذلك تعبير الفطر في قوله تعالى (اذا السماء انفطرت) سورة الانفطار ٨٢ : ١ التى نفهم منها فطر ناب البعير اذا شق (٨٩) . لو قوله تعالى (انها ترمي بشرر كالقصر) سورة المرسلات ٧٧ : ٣٢ الذي فسره بعضهم بانه اعناق الابل (٢٢٧) او قوله تعالى (كانها جمالات صفر) سورة المرسلات ٧٧ : ٣٢ ، بأن شرر النار يشبه الجمالة وهي النـاقة الضخمة (٢٢٩) وفي صفة الناس يوم القيامة (مهطعين مقنعي رؤسهم) (سورة القمر٥٤ ٨) بان الاهطاع مشتق من اهطاع البعير اذا كان في رأسه ميـل خلقة (١٢٩) او المور في قولـه تعـالى (يوم تمور السماء مورا) (سورة

الطور ٥٢ : ٩) بان المور هو الاضطراب من مارت الناقة اذا سارت ونثر التراب على جانبها (٨٦) أو قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) (سورة الروم ٣٠ : ١٢) من ابلاس الناقة اذا اصابها عارض فتألمت ويئست (ص١١٦) وفي صفة المجرمين حين يشربون فلا يرتوون (فشاربون شرب الهيم) (سورة الواقعة ٥٦ : ٥٦) بان الهيم الابل العطاش المريضة اما ما يطلى به البعير حين يصاب بالجرب او ايام الشتاء الباردة فقد ورد في تعبيرين هما المهل (ص ٢٤١) والقطران (ص ٢٦٥)

هذه هي التعابير التي خصت الابل اكثر من غيرها من الحيوانات على حين نجد بعض الحيوانات لم يرد حولها الا تعبير واحد او تعبيران كالذئب (١٠٤) والحيات (١٠٥) والكلاب (١٠٥) وغيرها من الحيوانات التي قلت اهميتها عن البعير كما وجدنا تعابير خصت بها الدابة بصورة عامه كالعدل (ص ١٧٩) والبس (ص ٧٢) والصور الذي فسر بالقرن (ص ١٨) والناقور المقترن بنقر الخيل (ص٢٣) :

اما الناحية الاجتماعية فقد وفرت حولها تغابير عديدة عكست لنا جوانب من الحياة العربية فالغارات مثلا كانت سائدة في المجتمع العربي يفاجيء بها الحي فيعلو الصريخ ، ويبدأ القتال ومن هنا وجدنا في التغابير القرآنية الفاظا لها دلالتها على هذه الناحية كالداعي (ص ٣١) والمنادي (ص ٤١) والهمس الذي فيه ايحاء صفة ليلة الهمس التي يخشى فيها السير من هولها (ص ١٣٨) والرجة التي قرنت برجة السهم (ص٦٢) و (ابلاس وجوه القوم عند الحروب ويأسها (ص١١٧) ثم المور في مور الدماء بعد القتال (ص ٨٧) والسلاسل والقيود التي تعكس لنا جوانب الاسر (ص ٢٦٠) واخيرا مايتبع القتال من اسر وفداء ودية (ص ١٧٨) وعدل (ص ١٨٢) .

وهناك تعابير خصت طعامهم وشرابهم كالبس الذى يذكرنا بالبسيسة (ص ٧٢) واللبن (ص ٢٩٢) ، والعسل (ص ٢٧٨) ، وغيرها مما ذكرناه في فصول الرسالة .

أما الذوق العربي فقد وجدناه في عدة تعابير واضحاً غاية الوضوح وذلك في تصوير الآيات الكريمة لصفة وجوه المؤمنين يوم القيامة وكيف انها تكون على اللون الذي احبه الذوق العربي وهو البياض (ص ١٣٩) على حـين تكون وجوه الكافرين على اللون الاسود الذي كرهه العرب وتشاءموا منه (ص ١٤٢) وكذلك وجدنا في صفة المجرمين حين يحشرون زرقا بما يحمله تعبير الزرقة من ايحاءات دالة على الذوق العربي ، وكرهه للزرقة وتشاؤمه منها اذا كانت في العيون (ص ١٥٠) ثم فكرة التشاؤم والتفاؤل التي وجدناها واضحة تمام الوضوح في تصوير نتيجة القضاء باستلام للنتائج باليمين وما تحمله من معاني التفاؤل والبركة ، أو بالشمال بما تحمله من معاني الشر والتشاؤم (ص ١٩٢) .

ومما مر بنا تتضح لنا اهمية البيئة العربية في توجيه تفكير العربي وفي وفرة بعض التعابير دون الاخرى تبعا لاهميتها في شؤون حياته ومن هنا ايضا تبينت لنا اهميـة هذا البحث في تعميق الدراسات اللغوية لانه يعطينا من المعاني والايحاءات الرائعة عند قراءة الآيات الكريمة مالا نفهمها حين قراءتنا لها قبل تطبيق هذا المنهج فيتجلى لنا اسلوب القرآن الكريم المعجز مما يقرب النفوس الى النص القرآني فنفهم منه معاني عميقة رائعة .

ومن دراستنا لهـذه التعابير ودلالتها على البيئة العربية ، وما تعكسه الايات الكريمة من ايحاءات رائعة مقترنة بالحياة العربية ، من هذه التعابير نستخلص حقيقة واضحة اخرى وهي ان المشاهد التي عرضها الله سبحانه وتعالى انما صورها بكلام العرب واساليبهم البلاغية وفنونهم في التعبير ويؤكد

هذا قوله تعالى (وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) . سورة ابراهيم ١٤ : ٤ . وقال تعالى ايضا (انه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين) سورة الشعراء ٢٦ : ١٩١ – ١٩٥ فصور القيامة التي اراد الله سبحانه وتعالى ان يرسمها لنا وصفها بتعابير لها دلالتها على البيئة العربية ، ليستطيع الذهن تخيلها ، وإلا فان الترهيب والترغيب يكون حينئذ بامور لايفهمها العرب حيث نزل فيهم القرآن الكريم ، فلا يرهبون النار ، ولا يتشوقون الى الجنة .

واخيراً اقول ان بحثي هذا ماهو الا بداية لدراسات اخرى ارجو ان اوفق بالقيام بها ، او تلفت هـذه الدراسة غيرى فيقوم ببحث فى مجال آخر من مجالات القرآن الكريم التي لم تبحث من قبل .

والله الموفق والمعين

المراجع والمصادر

أ – المخطوطات

ب – المطبوعات

ج – المقالات

د – الكتب الاجنبية

أ ـ المخطوطات :

١ ـ تفسير إبن ابي حاتم الرازي ـ ابو محمد عبد الرحمن بن حاتم محمد ابن ادريس الرازي المتوفى سنة ٢٢٧ هـ دمشق المكتبة الظاهرية برقم ٧٣١٢ .

٢ ـ تفسير الخمسمائة آية من القرآن ـ مقاتل بن سليمان الخراساني ١٥٠ هـ المتحف البريطاني برقم Or. 8033 .

٣ ـ تمام فصيح الكلام ـ إبن فارس ابو الحسين احمد بن فارس إبن زكريا ٣٩٥ هـ . بغداد مكتبة المتحف العراقي برقم ٢١٩٤ .

٤ ـ التهذيب في اللغة ج ١ ـ الأزهري ، ابو منصور . بغداد معهد الدراسات الاسلامية العليا برقم ١٨٣ .

٥ ـ الحماسة البصرية . صدر الدين علي بن ابي الفرج بن الحسن البصري . اسطنبول . راغب باشا : برقم ١٠٩١ (نشر هذا الكتاب في حيدر آباد الدكن فى الوقت الذي تم فيه طبع هذه الرسالة فلم يتسن لي مقابلته مع المخطوط) .

٦ ـ الزينة ـ محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن بهران الرازي . بغداد . مكتبة المتحف العراقي برقم ١٣٠٦ .

٧ ـ العين ـ القسم الثانى ـ الخليل بن احمد الفراهيدي . بغداد مكتبة المتحف العراقي برقم ٥٠٩ .

٨ ـ الغريب المصنف ـ ابو عبيد القاسم بن سلام . بغداد مكتبة المتحف العراقي برقم ٦٢٨ .

٩ ـ الفصيح ـ ثعلب ، ابو العباس احمد بن يحيى ٢٩١ هـ بغداد

معهد الدراسات الاسلامية العليا برقم ١٧٣ .

١٠ ـ قطعة من كتاب فى الجغرافية ـ مجهول (من اهل القرن السادس للهجرة) . بغداد . مكتبة معهد الدراسات الاسلامية العليا برقم ٣٢٤ .

١١ ـ المثالب ـ ابن الكلبي ابو المنذر هشام بن محمد بن السائب ٢٠٤ هـ بغداد مكتبة معهد الدراسات الاسلامية العليا برقم ١٢٤ .

١٢ ـ مسائل منثورة ـ القاسم بن إبراهيم الرسي ـ ٢٤٦ هـ . نسخة مصورة عن مخطوطة المتحف البريطاني 203 .

١٣ ـ مسائل نافع بن الازرق ـ (سألها عبد الله بن عباس عن معاني كلمات من القرآن الكريم) . دمشق ، المكتبة الظاهرية برقم ٢٨٤٩ (١١٣ المجاميع) .

١٤ ـ معاني القرآن ـ الزجاج ، إبراهيم بن السري ـ ٣١١ هـ . نسخة مصورة عن مخطوطة جامعة الدول العربية برقم ٢٤٧ ، ٢٤٨ تفسير .

١٥ ـ منتهى الطلب فى اشعار العرب ـ محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون . القاهرة . دار الكتب المصرية برقم ٥٣ س .

١٦ ـ نزهة العيون والنواظر فى الاشباه والنظائر . ج٢ ـ إبن الجوزي جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن علي ـ ٥٩٧ هـ مكتبة الأوقاف ببغداد مجموع برقم ٦٥٧٦ .

ب ـ المطبوعات :

١٧ ـ آثار البلاد واخبار العباد ـ القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ـ ١٢٨٣ م . دار صادر . دار بيروت . بيروت ١٣٨٠ هـ ١٩٦٠ م .

١٨ ـ ادب الكاتب - إبن قتيبة ابو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ٢٧٦ هـ تحقيق ماكس غريونت . ليدن . مطبعة بريل ١٩٠٠ .

١٩ ـ الاتقان فى علوم القرآن - السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن ٩١١ هـ . مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م .

٢٠ ـ احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ـ المقدسي محمد بن احمد بن ابي بكر ٣٧٥ هـ ديغويه مطبعة بريل ١٩٠٦ .

٢١ ـ اخبار الزمان - المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين بن علي - ٣٤٦ هـ . مطبعة عبد الحميد احمد حنفي بمصر ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .

٢٢ ـ اراجيز العرب - البكري محمد توفيق الصديق . القاهرة ١٣١٣ .

٢٣ ـ ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب : المعروف بمعجم الأدباء او طبقات الأدباء - ياقوت الحموي . شهاب الدين ابو عبد الله الرومى البغدادي - ٦٢٦ هـ . تحقيق د . س . مرجليوث ، مطبعة هندية بالموسكي بمصر ١٩٢٣ - ١٩٢٥ .

٢٤ ـ ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري - القسطلاني ، احمد بن محمد بن ابي عبد الملك - ٩٢٣ هـ .

٢٥ ـ الازمنة - قطرب ، ابو علي محمد بن المستنير - ٢٠٦ هـ . نشر

في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ١ كانون الثاني المجلد الثاني سنة ١٩٢٢ م .

٢٦ ـ الازمنة والأمكنـة ـ المرزوقي ، ابو علي الأصفهاني ـ ٤٥٣ هـ مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٣٢ هـ .

٢٧ ـ الأزمنة والأنواء ـ ابن الاجدابي ، ابو اسحاق إبراهيم بن اسماعيل ٦٥٠ هـ ، تحقيق الدكتور عزة حسن . دمشق . وزارة الثقافة والارشاد ١٩٦٤ م .

٢٨ ـ اساس البلاغة ـ الزمخشري ، ابو القاسم جار الله بن عمر ـ ٥٣٨ هـ دار ومطابع الشعب بالقاهرة .

٢٩ ـ اسد الغابة في معرفة الصحابة ـ ابن الاثير ، عز الدين ابو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري ـ ٦٣٠ هـ ، تصحيح مطبعة مصطفى وهبي . طهران ، المطبعة الاسلامية ١٢٨٠ هـ .

٣٠ ـ اسرار البلاغة ـ الجرجاني ، عبد القاهر ـ ٤٧١ او ـ ٤٧٤ هـ ، تحقيق احمد مصطفى المراغي . القاهرة . مطبعة الاستقامة ١٣٥٢ هـ | ١٩٣٢ م .

٣١ ـ اسماء جبال تهامة وسكانها ـ عرام بن الاصبع السلمي (القرن الثالث الهجري) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون . القاهرة . مطبعة امين عبد الرحمن ١٣٧٣ هـ .

٣٢ ـ اسماء المغتالين من الاشراف في الجاهلية والاسلام ـ ابن حبيب ، محمد بن حبيب البغدادي ـ ٢٤٥ هـ ، تحقيق عبد السلام هارون سلسلة نوادر المخطوطات المجموعة السادسة والسابعة . القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٣ | ١٩٥٤ م .

٣٣ ـ الاشباه والنظائر من اشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين ـ الخالديان ، ابو بكر محمد بن هشام ٣٨٠ هـ ، وابو عثمان سعيد ابن هشام ٣٩٠ ـ ٣٩١ هـ ، ج ١ تحقيق الدكتور السيد محمد يوسف ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨ م .

٣٤ ـ الاشتقاق ـ ابن دريد ، ابو بكر محمد بن الحسن ٣٢١ هـ ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون . نشر مؤسسة الخانجي ١٣٧٨ هـ | ١٩٥٨ م .

٣٥ ـ الاشتقاق ـ الاصمعي ، ابو سعيد عبد الملك بن قريب ٢١٦ هـ ، تحقيق سليمان ظاهر . نشر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . م ٢٨ ج ٣ ، ٤ سنة ١٩٥٣ م ، م ٢٩ ج ١ ، ٢ سنة ١٩٥٤ م .

٣٦ ـ الاصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ، احمد بن علي ابن محمد ـ ٨٥٢ هـ المكتبة التجارية الكبرى ١٣٥٨ هـ | ١٩٣٩ م .

٣٧ ـ الأصمعيات ـ الأصمعي ، ابو سعيد عبد الملك بن قريب ـ ٢١٦ هـ . تحقيق احمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون . دار المعارف ١٣٧٥ هـ | ١٩٥٥ م .

٣٨ ـ الاصنام ـ إبن الكلبي ، ابو المنذر هشام بن السائب ، ٢٠٤ هـ ، تحقيق احمد زكي . القاهرة المطبعة الأميريه ٩١٤ م .

٣٩ ـ اعجب العجب فى شرح لامية العرب ـ الزمخشري ، ابو القاسم محمود بن عمر ٥٣٨ هـ . قسطنطينيه . مطبعة الجوائب ١٣٠٠ هـ .

٤٠ ـ الاعلاق النفيسة ـ إبن رستة ، ابو علي احمد بن عمر (كان حياً عام ٢٩٠ هـ) باعتناء ديغويه . ليدن مطبعة بريل ١٨٩١ م .

٤١ ـ اغاثة الأمة بكشف الغمة ـ المقريزي ، احمد بن علي بن عبد

القادر ـ ٨٤٥ هـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧ ٠

٤٢ ـ الاغاني ـ الاصفهاني : ابو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م ٠ مطبعة التقدم ١٣٢٣ هـ ٠

٤٣ ـ الافعال ـ ابن القوطية ، ابو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز ـ ٣٦٧ هـ ، تحقيق علي فودة ٠ مطبعة مصر ١٩٥٢ م ٠

٤٤ ـ الامالي ـ الزجاجي ، ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق ـ ٣٤٠ هـ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون بالقاهرة ٠ المؤسسة العربية الحديثة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م ٠

٤٥ ـ الامالي ـ ابو علي القالي ، اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ـ ٣٥٦ هـ ط ٢ ٠ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م ٠

٤٦ ـ امالي المرتضى ـ الشريف المرتضى ، علي بن الحسين الموسوي العلوي ـ ٤٣٦ هـ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ٠ دار احياء الكتب العربية ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م ٠

٤٧ ـ امالي اليزيدي ـ اليزيدي ، ابو عبد الله محمد بن العباس ـ ٣١٠ هـ مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٦٧ هـ ٠

٤٨ ـ امثال العرب ـ المفضل الضبي ـ توفى نحو ١٦٨ هـ ٠ قسطنطينية ، مطبعة الجوائب ١٣٠٠ هـ ٠

٤٩ ـ انباه الرواة على انباه النحاة ـ القفطي ، جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ٠ القاهرة دار الكتب المصرية ١٣٦٩ ـ ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٠ م ـ ١٩٥٥ م ٠

٥٠ ـ انساب الاشراف ـ البلاذري ، احمد بن يحيى ٢٧٦ هـ تحقيق محمد حميد الله ٠ دار المعارف بمصر ١٩٥٩ ٠

٥١ ـ انيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء ، تحقيق لويس شيخو اليسوعي • بيروت المطبعة الكاثوليكية ١٨٩٦ م •

٥٢ ـ ايمان العرب في الجاهلية ـ النجيرمى ، ابو اسحاق إبراهيم بن عبد الله الكاتب : تحقيق محب الدين الخطيب ط ٢ • المطبعة السلفية بمصر ١٣٨٢ هـ •

٥٣ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ـ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ابن ابى بكر ـ ٩١١ هـ • القاهرة ١٣٢٦ هـ •

٥٤ ـ البلدان ـ اليعقوبي ، احمد بن ابى يعقوب ـ ٢٨٤ هـ نشر ديغويه ليدن مطبعة بريل ١٨٩١ م •

٥٥ ـ بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب ـ الآلوسي ، محمود شكري ، تحقيق محمد بهجة الاثري ط ٣ • دار الكتاب العربي بمصر ١٣٤٢ هـ •

٥٦ ـ البيان والتبيين ـ الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ـ ٢٥٥ هـ تحقيق عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٠ هـ ـ ١٣٨١ | ١٩٣٥ م ـ ١٩٣٦ م .

٥٧ ـ تاج العروس من جواهر القاموس ـ الزبيدي ، محب الدين ابو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي ـ ١٢٠٥ هـ • المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر ٣٠٦ هـ •

٥٨ ـ تاريخ بغداد او مدينة السلام ـ الخطيب البغدادي ، احمد بن ابي بكر ـ ٤٦٣ هـ ، تصحيح محمد حامد الفقي • القاهرة مطبعة السعادة ١٣٤٩ هـ | ١٩٣١ م •

٥٩ ـ التاريخ الجغرافي في القرآن الكريم ـ السيد مظفر الدين نادفى • القاهرة •

٦٠ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الاصمعي ، عبد الملك بن قريب ٢١٦ هـ تحقيق محمد حسن آل ياسين . بغداد مطبعة المعارف ١٣٧٩ هـ/ ١٩٥٩ م .

٦١ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي . مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٣ | ١٩٥٩ م .

٦٢ ـ تاريخ الموسيقى العربية ـ فارمر ، هـ ج ، ترجمة حسين نصار ومراجعة عبد العزيز الاهواني . مكتبة مصر بالفجالة .

٦٣ ـ تاريخ اليعقوبي ـ اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب ـ ٢٨٤ . ليدن مطبعة بريل ١٨٨٣ م .

٦٤ ـ تأويل مشكل القرآن ـ ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم ـ ٢٧٦ هـ ، تحقيق احمد صقر . القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ١٣٧٣ هـ | ١٩٥٤ م .

٦٥ ـ التبيان في تفسير القرآن ـ الطوسي ، ابو جعفر محمد بن الحسن ٤٦٠ هـ . تحقيق اغا بزرك الطهراني النجفي . المطبعة العلمية ١٣٧٦ هـ | ١٩٥٧ .

٦٦ ـ تطور الخمريات في الشعر العربي ـ جميل سعيد . القاهرة ١٩٤٥ م .

٦٧ ـ التفسير البياني للقرآن الكريم ـ بنت الشاطيء ، عائشة عبد الرحمن . دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م .

٦٨ ـ تفسير فرات الكوفي ـ الكوفي ، فرات بن إبراهيم (عاش في القرن الثالث) . النجف المطبعة الحيدرية .

٦٩ ـ تفسير القرآن الكريم ـ التستري ، ابو محمد سهل بن عبد الله ـ ٢٨٣ هـ . تصحيح لجنة ، دار الكتب العربية الكبرى بمصر ١٣٢٩ هـ .

٧٠ ـ تلخيص البيان في مجازات القرآن ـ الشريف الرضي نحو ٤٠٦ هـ ، تحقيق محمد عبد الغني حسن . القاهرة دار احياء الكتب العربية ١٩٥٥ م .

٧١ ـ تهذيب التهذيب ـ إبن حجر العسقلاني ، ابو الفضل احمد بن علي ـ ٨٥٢ هـ . حيدر آباد الدكن : مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٢٥ هـ ـ ١٣٢٧ هـ .

٧٢ ـ التنبية والرد ـ الملطي ، ابو الحسين محمد بن احمد بن عبد الرحمن القاهرة ١٩٤٩ م .

٧٣ ـ تنزيه القرآن عن المطاعن ـ عماد الدين ابو الحسن عبد الجبار إبن احمد ٤١٠ هـ المطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٩ هـ .

٧٤ ـ تنوير المقياس من تفسير إبن عباس ـ الفيروزاباذي : ابو طاهر محمد بن يعقوب ٨١٧ هـ . القاهرة ، مطبعة الاستقامه ١٩٦٠ م .

٧٥ ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ـ الثعالبي ، ابو منصور عبد الملك بن محمد ٤٢٩ هـ . القاهرة ١٩٠٨ م .

٧٦ ـ جامع البيان عن تأويل القرآن ـ الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير ٣١٠ هـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٧٣ هـ/١٩٥٤ م .

٧٧ ـ الجامع الصحيح او سنن الترمذي ـ الترمذي ، ابو عيسى محمد بن عيسى ٢٧٩ هـ ، تحقيق احمد محمد شاكر . القاهره : مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٧ م .

٧٨ ـ الجبال والأمكنة والمياه ـ الزمخشري ، ابو القاسم محمود بن عمر ٥٣٨ هـ تحقيق محمد صادق آل بحر العلوم . النجف ، المطبعة الحيدرية .

٧٩ ـ جزيرة العرب ـ بيربي ، جان جاك ، ترجمة نجدة هاجر ، وسعيد الغز . بيروت ، المكتب التجاري ١٩٦٠ .

٨٠ ـ جزيرة العرب فى القرن العشرين ـ حافظ وهبة ، ط ٤ ، القاهرة مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١ م .

٨١ ـ جغرافية العالم ج ١ ـ الدكتورة دولت احمد صادق ، الدكتور محمد السيد غلاب ، الدكتور جمال الدين الدناصوري ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٩ م .

٨٢ ـ جمهرة اشعار العرب ـ القرشي ، ابو زيد محمد بن ابي الخطاب المكتبة التجارية الكبرى ١٣٤٥ هـ ـ ١٩٢٦ م .

٨٣ ـ جمهرة اللغة ـ ابن دريد ، ابو بكر محمد بن الحسن الازدي ـ ٣٢١ هـ . مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٥١ هـ .

٨٤ ـ الحاوي في الطب ج ٢ ـ الرازي ، ابو بكر محمد بن زكريا ـ ٣١٣ هـ ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن .

٨٥ ـ حقائق التأويل ـ الشريف الرضي . النجف ١٩٣٦ .

٨٦ ـ الحماسة ـ البحتري ، ابو عبادة ، تحقيق كمال مصطفى . المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٢٩ م .

٨٧ ـ حلية الفرسان وشعار الشجعان ـ ابن هذيل الأندلسي ، علي بن عبد الرحمن ، تحقيق عبد الغني حسن . دار المعارف بمصر ١٣٦٩ هـ ١٩٤٩ م .

٨٨ ـ الحيوان ـ الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ـ ٢٥٥ هـ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مطبعة مصطفى البابى الحلبي واولاده ١٩٣٨ م ـ ١٩٤٥ م .

٨٩ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب على شواهد شرح الكافية - البغدادي عبد القادر بن عمر ١٠٩٣ هـ ، بولاق المطبعة الأميرية ١٢٩٩ هـ .

٩٠ - الخصائص - إبن جني ابو الفتح عثمان بن جني - ٣٩٢ هـ ، تحقيق علي النجار . القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١ - ١٣٧٦ هـ | ١٩٥٢ - ١٩٥٦ م .

٩١ - الخيل - ابو عبيدة ، معمر بن المثنى نحو - ٢١٠ هـ . مطبعة دائرة المعارف العثمانية . حيدر اباد الدكن ١٣٥٨ هـ .

٩٢ - دائرة المعارف الاسلامية - (المترجمة) . مادة جهنم ، وحرة . ترجمة احمد الشنتناوي وآخرون .

٩٣ - درة التنزيل وغرة التأويل - الخطيب الاسكافي ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله - ٤٢١ هـ ، تحقيق عبد المعطي السقا . مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦ هـ | ١٩٠٨ م .

٩٤ - دروس فى البلاغة وتطورها - جميل سعيد . بغداد ، مطبعة المعارف ١٣٧٠ هـ | ١٩٥١ م .

٩٥ - الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير - الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر - ٢٥٥ هـ ، تصحيح محمد راغب الطباخ . مطبعة حلب ١٣٤٦ هـ | ١٩٢٨ م .

٩٦ - ديوان إبن الدمينة ، عبد الله بن عبيد الله ، تحقيق احمد راتب النفاخ . القاهرة مطبعة المدنى ١٣٧٨ هـ | ١٩٥٩ م .

٩٧ - ديوان ابن مقبل - إبن مقبل تحقيق الدكتور عزة حسن . دمشق ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ١٣٨١ هـ | ١٩٦٢ م .

٩٨ - ديوان ابي محجن الثقفي وشرحه - العسكري ، ابو هلال الحسن ابن عبد الله بن سهل ، تحقيق عمر السويدي ، ليدن ، مطبعة بريل ١٣٠٣ هـ | ١٩١٦ م .

٩٩ - ديوان الاعشى الكبير - الاعشى الكبير ، ميمون بن قيس ، شرح وتعليق محمد محمد حسين ، المطبعة النموذجية .

١٠٠ - ديوان امرىء القيس - إمرؤ القيس ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم . دار المعارف بمصر ١٩٥٨ م .

١٠١ - ديوان بشار بن برد - بشار بن برد تحقيق محمد الطاهر بن عاشور . القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٩ - ١٣٧٦ هـ | ١٩٥٠ - ١٩٥٧ م .

١٠٢ - ديوان بشر بن ابي خازم - بشر بن ابي خازم ، تحقيق الدكتور عزة حسن . دمشق ١٣٧٩ هـ | ١٩٦٠ .

١٠٣ - ديوان جران العود النميري - القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٠ | ١٩٣١ م .

١٠٤ - ديوان جرير تحقيق كرم البستاني . دار صادر ، دار بيروت ١٩٦٠ م .

١٠٥ - ديوان حاتم الطائي - دار صادر ، دار بيروت ١٣٨٣ هـ | ١٩٦٣ م .

١٠٦ - ديوان حسان بن ثابت الأنصاري - دار صادر . دار بيروت ١٣٨١ هـ | ١٩٦١ م .

١٠٧ - ديوان الحطيئة - شرح إبن السكيت والسكري والسجستاني ، تحقيق نعمان امين طه . القاهرة . مصطفى البابي الحلبي واولاده ١٣٧٨ هـ | ١٩٥٨ م .

١٠٨ ـ ديوان حميد بن ثور الهلالي ـ تحقيق عبد العزيز الميمني القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١ هـ | ١٩٥١ م .
١٠٩ ـ ديوان سحيم عبد بني الحسحاس ـ تحقيق عبد العزيز الميمني . القاهرة . دار الكتب المصرية ١٣٦٩ هـ | ١٩٥٠ م .
١١٠ ـ ديوان سلامة بن جندل ـ تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي . المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين بيروت ١٩١٠ .
١١١ ـ ديوان السموأل (مع ديوان عروة بن الورد) ـ دار صادر ، دار بيروت . بيروت ١٣٨٤ هـ | ١٩٦٤ م .
١١٢ ـ ديوان شعر ذو الرمة ـ ذو الرمة ، غيلان بن عقبة العدوي ، عني بتصحيحه وتنقيحه كارليل هنري هيس مكارتني ، مطبعة كلية كمبرج ١٣٣٧ هـ | ١٩١٩ م .
١١٣ ـ ديوان الشماخ ـ الشماخ بن ضرار الصحابي الغطفاني ، تحقيق احمد الشنقيطي ـ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٧ هـ .
١١٤ ـ ديوان طرفة بن العبد ـ تحقيق الدكتور علي الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٧٨ هـ | ١٩٥٨ م .
١١٥ ـ ديوان الطرماح ـ الطرماح ، بن حكيم بن نفر الطائي (طبع مع شعر طفيل الغنوي) تحقيق كرنكو : لندن ١٩٤٧ م .
١١٦ ـ ديوان عامر بن الطفيل ـ تحقيق كرم البستاني ، دار صادر . دار بيروت . بيروت ١٣٨٣ هـ | ١٩٦٣ م .
١١٧ ـ ديوان عبيد بن الابرص ـ تحقيق كرم البستاني . دار صادر . دار بيروت ١٣٧٧ هـ | ١٩٥٨ م .
١١٨ ـ ديوان عدي بن زيد العبادي ـ تحقيق محمد جبار المعيبد . بغداد

وزارة الثقافة والارشاد ١٣٨٥ هـ | ١٩٦٥ م .

١١٩ ـ ديوان عروة بن الورد ـ تصحيح الشيخ إبن ابي شنب . طبع بالجزائر ١٩٢٦ م .

١٢٠ ـ ديوان الفرزدق ـ تحقيق كرم البستانى . دار صادر ، دار بيروت ١٣٨٠ هـ | ١٩٦٠ م .

١٢١ ـ ديوان القطامى ـ تحقيق إبراهيم السامرائى ، واحمد مطلوب بيروت دار الثقافة ١٩٦٠ م .

٢٢١ ـ ديوان قيس بن الخطيم ـ تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد . القاهرة مطبعة المدنى ١٣٨١ هـ | ١٩٦٢ م .

١٢٣ ـ ديوان المزرد بن ضرار الغطفانى . تحقيق خليل إبراهيم العطية بغداد ، مطبعة اسعد ١٩٦٢ م .

١٢٤ ـ ديوان المفضليات ـ الانباري ، ابو محمد القاسم بن محمد بن بشار ٣٠٤ هـ ، تحقيق كارلوس يعقوب لايل . بيروت : مطبعة الآباء اليسوعيين ١٩٢٠ م .

١٢٥ ـ ديوان النابغة الذبياني ـ تحقيق وشرح البستاني . دار صادر ، دار بيروت . بيروت ١٣٧٩ هـ/١٩٦٠ م .

١٢٦ ـ ذيل الأمالي والنوادر ـ البغدادي ، ابو علي إسماعيل بن القاسم ـ ٣٥٦ هـ . القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٣٤٢ هـ |١٩٢٦ م .

١٢٧ ـ رسالة في بيان اعجاز القرآن ـ الخطابي ، ابو سليمان احمد بن محمد بن ابراهيم ٣٨٨ هـ ـ ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ـ تحقيق محمد خلف الله ، محمد زغلول سلام . دار المعارف بمصر .

١٢٨ ـ رسالة فى المعاد ـ ضمن رسائل الجاحظ ج ١ ، تحقيق وشرح

عبد السلام محمد هارون • القاهرة • مكتبة الخانجي ١٣٨٤ هـ
١٩٦٤ م •
١٢٩ ـ زهر الآداب وثمر الالباب - الحصري القيرواني ، ابو اسحاق
ابراهيم بن علي ٤٥٣ هـ . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد •
وشرح زكي مبارك • مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٢ هـ|١٩٠٣ م •
١٣٠ ـ الزينة في الكلمات الاسلامية العربية - الرازي ، ابو حاتم احمد
ابن حمدان ٣٢٢ هـ • تحقيق حسين بن فيض الله الهمدانى •
القاهرة ١٩٥٧ م •
١٣١ ـ سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون - ابن نباتة ، جمال الدين
محمد بن محمد - ٧٦٨ هـ . المطبعة الأميرية المصرية ١٢٧٨ هـ •
١٣٢ ـ سنن ابن ماجة - ابو عبد الله محمد بن يزيد القزويني - ٢٧٥ هـ •
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي • دار احياء الكتب العربية ١٩٥٢ •
١٣٣ ـ سنن ابي داود - ابو داود سليمان بن الاشعث بن اسحاق الازدي -
٢٧٥ هـ ، تحقيق احمد سعد علي • مطبعة البابي الحلبي واولاده
بمصر ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م •
١٣٤ ـ سنن الدارمى ـ الدارمى ، ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن
ابن الفضل بن بهرام ٢٥٥ هـ • عني بطبعه محمد احمد الدهان •
دمشق • مطبعة الاعتدال ١٣٤٩ هـ •
١٣٥ ـ سنن النسائي - ابو عبد الرحمن احمد بن شعيب بن علي - ٣٠٣ هـ •
المطبعة العصريه بالأزهر •
١٣٦ ـ سيرة النبي - ابن هشام ، ابو محمد عبد الملك ٢١٣ او ٢١٨ هـ
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد • مطبعة حجازي •

١٣٧ ـ شجر الدر في تداخل الكلام بالمعاني المختلفة ـ ابو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي ٣٥١ هـ . تحقيق محمد عبد الجواد دار المعارف بمصر ١٩٥٧ م .

١٣٨ ـ شرح ابن عقيل على الفية إبن مالك ـ تحقيق محي الدين عبد الحميد . القاهرة المكتبة التجارية الكبرى ١٩٦١ م .

١٣٩ ـ شرح اشعار الهذليين ـ تحقيق عبد الستار احمد فراج . القاهرة مطبعة المدني .

١٤٠ ـ شرح ديوان الحماسة ـ المرزوقي ، ابو علي احمد بن الحسن ٤٢١ هـ . باعتناء احمد امين وعبد السلام هارون . القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م .

١٤١ ـ شرح ديوان زهير بن ابي سلمى ـ شرح ثعلب : ابي العباس احمد بن يحي بن يزيد الشيباني ٢٩١ هـ . القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٤ م .

١٤٢ ـ شرح ديوان علقمة الفحل تحقيق احمد صقر . القاهرة ، المطبعة المحمودية ١٣٥٣ هـ | ١٩٣٥ م .

١٤٣ ـ شرح ديوان عنترة بن شداد ـ تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي . القاهرة المكتبة التجارية الكبرى .

١٤٤ ـ شرح ديوان كعب بن زهير ـ القاهرة . الدار القومية للطباعة والنشر ١٣٨٥ هـ | ١٩٦٥ .

١٤٥ ـ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ـ تحقيق احسان عباس . الكويت ١٩٦٢ م .

١٤٦ ـ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ـ إبن الأنباري ، ابو بكر

محمد بن القاسم ٣٢٨ هـ ، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون بدار المعارف ١٩٦٣ م .

١٤٧ - شعر طفيل بن عوف الغنوي - تحقيق ف . كرنكو ، لندن ١٩٢٧ م

١٤٨ - شعر المثقب العبدي - تحقيق محمد حسن آل ياسين . مطبعة المعارف ١٩٥٦ م .

١٤٩ - شعر النابغة الجعدي . تحقيق عبد العزيز رباح . دمشق ، المكتب الاسلامي ١٩٦٤ م - ١٣٨٤ هـ .

١٥٠ - الشعر والشعراء - إبن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم بيروت دار الثقافة ١٩٦٤ .

١٥١ - شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل - الخفاجي ، شهاب الدين احمد بن محمد ١٠٦٩ هـ . القاهرة ، مطبعة السعادة ١٣٢٥ هـ .

١٥٢ - الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها - ابن فارس ، ابو الحسين احمد - ٣٩٥ . القاهرة ، مطبعة المؤيد ١٣٢٨ هـ / ١٩٠٠ م .

١٥٣ - الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) - الجوهري ; اسماعيل بن حماد ٣٩٣ هـ ، تحقيق احمد عبد الغفور عطار . دار الكتاب العربي بمصر ١٣٧٦ - ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٦ - ١٩٥٧ م .

١٥٤ - صحيح مسلم - مسلم ، ابو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري ٢٦١ هـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى . دار احياء الكتب العربية ١٣٧٤ - ١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ - ١٩٥٦ م .

١٥٥ - صفة بلاد اليمن ، ومكة وبعض الحجاز (او تاريخ المستبصر) - ابن المجاور تحقيق اوسكر لوفغرين . ليدن مطبعة بريل ١٩٥٤ .

١٥٦ - صفة جزيرة العرب ـ الهمداني ، ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب ـ ٣٣٤ هـ ، تحقيق محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي . مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣ م .

١٥٧ - الصناعتين ـ العسكري ، ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ـ ٣٩٦ هـ ، تحقيق علي محمد البجاوي ، محمد ابو الفضل إبراهيم دار احياء الكتب العربية ١٣٧١ هـ | ١٩٥٢ م .

١٥٨ - صورة الارض ـ إبن حوقل ، ابو القاسم إبن حوقل النصيبي ـ ٣٦٧ هـ . ط ٢ ليدن ، مطبعة بريل ١٩٣٨ م .

١٥٩ ـ طبقات فحول الشعراء ـ إبن سلام ، ابو عبد الله محمد الجمحي البصري . دار المعارف للطباعة والنشر .

١٦٠ - الطبقات الكبرى - ابن سعد ، محمد - ٢٣٠ هـ . تحقيق ادوارد سخو ليدن ، مطبعة بريل ١٣٢١ هـ .

١٦١ - الطب النبوي ـ الذهبي ، ابو عبد الله محمد بن احمد - ٧٤٨ هـ . القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .

١٦٢ - الطرائف الادبية (مجموعة من الشعر تشتمل على ديوان الأفوه الأودي وديوان الشنفري وقصائد ودواوين اخرى) - نشر عبد العزيز الميمني . القاهرة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ .

١٦٣ - العشر مقالات في العين - منسوب لحنين بن اسحاق - ٢٦٤ هـ تحقيق ماكس مايرهوف ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ١٩٢٨ م

١٦٤ - العمدة ـ إبن رشيق القيرواني ، ابو علي الحسن - ٤٦٣ هـ . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . مطبعة حجازي ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٤ م .

١٦٥ ـ العين ـ الخليل بن احمد الفراهيدي ١٧٥ هـ . ونسب الى الليث إبن المظفر بن نصر بن سيار الخراساني . تحقيق الأب انستاس ماري الكرملي . بغداد ، مطبعة دار الأيام ١٩١٤ م .

١٦٦ ـ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ـ إبن سيد الناس ـ ٧٣٤ هـ القاهرة مكتبة القدسي ١٣٥٦ .

١٦٧ ـ عيون الأخبار ـ إبن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ٢٧٦ هـ القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٣٤٣ - ١٣٤٩ هـ | ١٩٢٥ ـ ١٩٣٠ م .

١٦٨ ـ غريب الحديث ـ ابو عبيد القاسم بن سلام ـ ٢٢٤ هـ تحقيق محمد عبد المعيد خان . دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .

١٦٩ ـ غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب ـ السجستاني ، ابو بكر محمد إبن عزيز ٣٣٠ هـ . مطبعة محمد علي صبيح بمصر ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢ م .

١٧٠ ـ الفاخر ـ ابو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم ٢٧١ هـ . تحقيق عبد العليم الطحاوي . القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد ١٣٨٠ هـ | ١٩٦٠ م .

١٧١ ـ الفاضل ـ المبرد ، ابو العباس محمد بن يزيد ـ ٢٨٥ هـ تحقيق عبد العزيز الميمني . القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٥ هـ | ١٩٥٦ م .

١٧٢ ـ فخر السودان ـ الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ٢٥٥ هـ . نشر ضمن رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون مكتبة

الخانجي ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .

١٧٣ ـ فقه اللغة وسر العربيـة ـ الثعالبي ، ابو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري ٤٢٩ هـ . تحقيق مصطفى السقـا . وإبراهيم الأبياري ، وعبـد الحفيظ شلبي . مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .

١٧٤ ـ الفهرست : إبن النديم ، محمـد بن اسحاق ـ نحو ٣٨٧ هـ . القاهرة مطبعة الاستقامة .

١٧٥ ـ في طريق الميثولوجيا عند العرب ـ الحوت ، محمود سليم ـ بيروت ١٩٥٥ .

١٧٦ ـ قاموس الكتاب المقدس ـ ترجمة وتأليف الدكتور جورج بوست بيروت المطبعة الامريكية . ١٩٠١ .

١٧٧ ـ القرآن الـكريم .

١٧٨ ـ قشرة الأرض ـ محمد صفي الدين . مصر ، دار الطباعة ١٩٥٧ .

١٧٩ ـ الكامل فى التاريخ ـ ابن الأثير ، علي بن ابي الـكرم محمد بن محمد الشيباني ـ ٦٣٠ هـ القاهرة ، دار الطباعة ١٢٩٠ هـ .

١٨٠ ـ الكامل فى اللغة والأدب ـ المبرد ، ابو العباس محمد بن يزيد ـ ٢٨٥ هـ ، تحقيق احمد محمد شاكر بمصر . مطبعة مصطفى البابى الحلبي ١٩٣٧ .

١٨١ ـ الكتاب المقدس .

١٨٢ ـ الكشاف ـ الزمخشري ، ابو القاسم جار الله محمود بن عمر ٥٣٨ هـ القاهرة مطبعة مصطفى البابى الحلبي ١٣٦٧ هـ ـ ١٣٧١ هـ .

١٨٣ ـ لباب الآداب ـ اسامة بن منقذ ـ ٥٨٤ هـ ، تحقيق احمد محمد

شاكر . مصر المطبعة الرحمانية ١٩٣٥ م - ١٣٥٤ هـ .

١٨٤ ـ لسان العرب ـ ابن منظور ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم - ٧١١ هـ ، بولاق ، المطبعة الأميرية ١٣٠٠ هـ .

١٨٥ ـ لسان الميزان ـ ابن حجر احمد بن علي المتوفى سنة ٨٥٢ هـ . حيدر اباد الدكن . مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٣٠ - ١٣٣١ هـ .

١٨٦ ـ اللغات فى القرآن ـ ابن عباس ، عبد الله ، تحقيق صلاح الدين المنجد . مطبعة الرسالة ١٩٤٦ م .

١٨٧ ـ متشابهات القرآن ـ ابن شهراشوب . محمد بن علي المازندراني . ايران مطبعة شركة سامي ١٣٢٨ هـ .

١٨٨ ـ مجاز القرآن ـ ابو عبيدة : معمر بن المثنى التيمي سنة ٢١٠ هـ . تحقيق محمد فؤاد سزكين . مصر . محمد امين الخانجي ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م .

١٨٩ ـ مجالس ثعلب ثعلب ، ابو العباس احمد بن يحيى - ٢٩١ هـ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون . القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٠ .

١٩٠ ـ مجالس العلماء ـ الزجاجي ، ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق ـ ٣٤٠ هـ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون . الكويت ، وزارة الارشاد والأنباء ١٩٦٢ .

١٩١ ـ مجمع الأمثال ـ الميداني ، ابو الفضل محمد ٥١٨ هـ . القاهرة ١٣٥٢ ـ ١٣٥٣ هـ .

١٩٢ ـ المحاسن ـ البرقي ، ابو جعفر احمد بن خالد . نشر محمد كاظم الكتبي . النجف الأشرف . المطبعة الحيدرية ١٣٨٤ هـ .

١٩٣ ـ المحاسن والأضداد ـ الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ـ

٢٥٥ هـ ، تصحيح محمد امين الخانجي . المطبعة الجمالية .

١٩٤ ـ محاضرات في تاريخ العرب ـ العلي ، صالح احمد . بغداد مطبعة المعارف ١٩٥٩ .

١٩٥ ـ المحبر ـ ابن حبيب ، ابو جعفر محمد بن حبيب بن امية البغدادي ـ ٢٤٥ هـ تحقيق الدكتورة ايلزه ليحتن ستيتر بحيدرآباد الدكن . مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ١٣٦١ هـ ـ ١٩٤٢ م .

١٩٦ ـ المحكم ـ إبن سيدة ، علي بن اسماعيل ٤٥٨ هـ ج ١ ، تحقيق مصطفى السقا ، حسين نصار . مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٨ م ١٣٧٧ هـ ج ٢ ، تحقيق عبد الستار احمد فراج ١٩٥٨ ـ ١٣٧٧ مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

١٩٧ ـ مختصر البلدان ـ ابن الفقيه ، ابو بكر . احمد بن إبراهيم ٣٦٥ هـ ليدن . مطبعة بريل ١٣٠٢ .

١٩٨ ـ المخصص ـ ابن سيدة . علي بن اسماعيل ٤٥٨ هـ . بولاق . المطبعة الأميرية سنة ١٣١٦ هـ .

١٩٩ ـ المداخلات او المداخل ـ غلام ثعلب ، ابو عمر . محمد بن عبد الواحد الزاهد المطرز ـ ٣٤٤ هـ ـ ٣٤٥ هـ تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي . نشر في مجلة المجمع العلمي العربي . دمشق المجلد ٢٩١ ج ٨ ، ج ٩ . ١٩٢٩ م | ١٣٤٨ هـ .

٢٠٠ ـ مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ـ عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ٧٣٩ تحقيق علي البجاوي . مصر ، دار الكتب العربية ١٩٥٤ .

٢٠١ ـ المزهر في علوم اللغة العربية ـ السيوطي ، عبد الرحمن جلال الدين

٩١١ هـ ، تحقيق محمد احمد جاد المولى وآخرون . مصر دار احياء الكتب العربية ١٩٥٨ م - ١٣٧٨ هـ .

٢٠٢ ـ المسالك والممالك - ابن حزداذبة ، ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله - ٣٠٠ هـ . ليدن ، مطبعة بريل ١٨٨٩ م .

٣٠٢ ـ المستقصى فى امثال العرب - الزمخشري : جار الله محمود بن عمر - ٥٣٨ هـ ، تحقيق محمد عبد الرحمن خان . حيدر آباد الدكن ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٩٦٢ - ١٣٨١ هـ .

٢٠٤ ـ المسلسل فى غريب لغة العرب - التميمي ، ابو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله - ٦٣٨ هـ . تحقيق محمد عبد الجواد . مصر وزارة الثقافة والارشاد القومي .

٢٠٥ ـ مسند الامام احمد بن محمد بن حنبل - ٢٤١ هـ .

٢٠٦ ـ مشاهد القيامة في القرآن الكريم ـ سيد قطب . القاهرة ١٩٦٠ .

٢٠٧ ـ المفضليات : المفضل الضبي ، تحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ط ٣ . القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٤ م .

٢٠٨ ـ المعارف ـ ابن قتيبة ابو محمد عبد الله بن مسلم ـ ٢٧٦ هـ . تحقيق ثروت عكاشة ، مصر . وزارة الثقافة والارشاد القومي ١٩٦٠ م .

٢٠٩ ـ معاني الشعر ـ الاشنانداني ، ابو عثمان سعيد بن هارون سنة ٣٢١ هـ ، تحقيق صلاح الدين المنجد . بيروت . دار الكتاب الجديد ١٩٦٤ م .

٢١٠ ـ معاني القرآن ـ الفراء ابو زكريا يحيي بن زياد سنة ٢٠٧ هـ ، تحقيق احمد يوسف نجاتي ، ومحمد علي النجار . القاهرة دار

الكتب المصرية ١٩٥٥ م .

٢١١ ـ المعاني الكبير : ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم ـ ٢٧٦ هـ . حيدر آباد الدكن . مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٦٩ هـ

٢١٢ ـ معجم البلدان ـ الحموي ، ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله ٦٢٦ هـ . ليبزج ١٨٦٨ .

٢١٣ ـ معجم الشعراء ـ المرزباني ، ابو عبد الله محمد بن عمران بن موسى . تحقيق ف . كرنكو . القاهرة . مكتبة القدسي ١٣٥٤ هـ .

٢١٤ ـ معجم ما استعجم : البكري ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز إبن ابي مصعب ـ ٤٨٧ هـ . المغرب ، المعهد الحليفي للابحاث المغربية ١٣٦٤ هـ ـ ١٩٤٥ م .

٢١٥ ـ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن ـ محمد فؤاد عبد الباقي . مطابع الشعب ١٣٧٨ هـ .

٢١٦ ـ معجم مقاييس اللغة ـ ابن فارس ، ابو الحسين احمد بن فارس ابن زكريا ـ ٣٩٥ هـ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون . القاهرة دار احياء الكتب العربية ١٣٦٩ هـ .

٢١٧ ـ المعرب عن الكلام الأعجمي ـ الجواليقي ، ابو منصور ، موهوب ابن احمد بن محمد ـ ٥٤٠ هـ ، تحقيق احمد محمد شاكر . القاهرة . مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦١ هـ .

٢١٨ ـ المعمرون ـ السجستاني ، ابو حاتم سهل بن عثمان ـ ٢٥٠ هـ ، تحقيق عبد المنعم عامر . مصر ، دار احياء الكتب العربية ١٩٦١ .

٢١٩ ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ـ إبن هشام ، ابو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف ـ ٧٦١ هـ . تحقيق محمد محيي الدين

عبد الحميد .

٢٢٠ ـ المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني : محمد بن الفضل ـ ٥٠٢ هـ كراجي ١٩٦١ .

٢٢١ ـ المقدمة ـ ابن خلدون عبد الرحمن بن خلدون ـ ٨٠٨ هـ تحقيق نصر الهوريني ١٣٧٤ هـ .

٢٢٢ ـ الملاهي واسماؤها ـ المفضل بن سلمة ـ ٢٩٠ هـ . تحقيق عباس العزاوي . مع كتاب الموسيقى العراقية . بغداد شركة التجارة والطباعة المحدودة ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ .

٢٢٣ ـ من حديث الماء في الأدب العربي ـ جميل سعيد (مستل من مجلة المجمع العلمي العراقي) . بغداد مطبعـة المجمع العلمي العراقي ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م .

٢٢٤ ـ المنازل والديار ـ اسامة بن منقذ بن مرشد بن مقلد . نشر انس ابن خالدوف . موسكو ، دار النشر للاداب الشرقية ١٩٦١ .

٢٢٥ ـ المنمق فى اخبار قريش ـ ابن حبيب : محمد ابو جعفر البغدادي ٢٤٥ هـ . حيدر آباد الدكن • دائرة المعارف العثمانية ١٣٨٤ ـ ١٩٦٤ م •

٢٢٦ ـ المؤتلف والمختلف ـ الآمدي : ابو القاسم الحسن بن بشر بن يحي ٣٧٠ هـ تحقيق عبد الستار احمد فراج القاهرة . دار احياء الكتب العربية ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م .

٢٢٧ ـ الموطأ ـ مالك بن انس . بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي . القاهرة دار احياء الكتب العربية .

٢٢٨ ـ النبات ـ (قطعة من الجزء الخامس) ابو حنيفة . احمد بن

داود الدينوري ٢٨٢هـ . نشر ب . لوين ، ليدن . مطبعة بريل ١٩٥٣ .
٢٢٩ ـ نخبة عقد الجياد في الصافنات الجياد ـ الجزائري ، محمد . بيروت المطبعة الأهلية ١٣٢٦ .
٢٣٠ ـ نزهـة الألباء في طبقات الأدباء ـ إبن الأنباري ، ابو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد . تحقيق إبراهيم السامرائي بغداد مطبعة المعارف ١٩٥٩ م .
٢٣١ ـ نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر ـ السيوطي ، عبد الرحمن جلال الدين ـ ٩١١ هـ . دمشق المكتبة العربية .
٢٣٢ ـ نسب قريش ـ الزبيري ، ابو عبد الله المصعب بن عبد الله بن مصعب ـ ٢٣٦ هـ تحقيق ليفي بروفنسال . القاهرة . دار المعارف ١٩٥٣ م .
٢٣٣ ـ نظام الغريب ـ الربعي ، عيسى بن إبراهيم ٤٨٠ هـ . تصحيح بولس برونلة . مصر . مطبعة هندية .
٢٣٤ ـ النقائض ـ (نقائض جرير والفرزدق) ـ ابو عبيدة ، معمر إبن المثنى ٢١٠ هـ ليدن . مطبعة بريل ١٩٠٥ م .
٢٣٥ ـ النهاية في غريب الحديث ـ المبارك بن محمد الجزري . تصحيح عبد العزيز بن اسماعيل الطهطاوي . مصر . المطبعة العثمانية ١٣١١ م .
٢٣٦ ـ النوادر ـ ابو مسحل الاعرابي ، عبـد الوهاب بن حريش . تحقيق الدكتور عزة حسن . دمشق ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١ م .
٢٣٨ ـ هذا العالم ـ الشرقاوي ، محمد عبد المنعم ، ومحمد محمود الصياد . القاهرة دار المعارف ١٩٥٩ م .

٢٣٨ ـ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع في علم العربية ـ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ابو بكر ـ ٩١١ هـ . تحقيق محمد بدر الدين النعساني ، مصر ، مطبعة السعادة ١٣٢٧ هـ .

٢٣٩ ـ الوحشيات (وهو الحماسة الصغرى) ـ ابو تمام ، حبيب بن اوس . تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي . القاهرة . دار المعارف ١٩٦٣ .

٢٤٠ ـ الوصف في شعر العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ـ جميل سعيد . بغداد . مطبعة الهلال ١٩٤٨ .

٢٤١ ـ وفاء الوفا باخبار دار المصطفى ـ السمهودي : علي بن احمد المصري ـ ٩١١ هـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

٢٤٢ ـ الينابيع ـ السجستاني ، ابو يعقوب اسحاق ٣٣١ هـ تحقيق مصطفى غالب . بيروت . المكتب التجاري للطباعة والنشر ١٩٦٥ .

ج ـ المقالات

٢٤٣ ـ احساس الشعراء العرب بالألوان والأصوات ـ جميل سعيد . مجلة كلية الآداب العدد الأول لسنة ١٩٥٦ بغداد مطبعه وزارة المعارف ١٩٥٦ .

٢٤٤ ـ الألفاظ السريانية في المعاجم العربية ـ مار اغناطيوس افرام الأول برصوم مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٢٣ ج ٢ ، ج ٣ ، ج ٤ لسنة ١٩٤٨ .

٢٤٥ ـ الأنسجة في القرنين الأول والثاني ـ صالح احمد العلي مجلة الابحاث ج ٤ كانون الأول السنة ١٤ لسنة ١٩٦١ .

٢٤٦ ـ البيئة العربية في القرآن الكريم ـ ابراهيم السامرائي . مجلة البينة

السنة الأولى العدد العاشر ١٩٦٣ م - ١٣٨٢ هـ .

٢٤٧ ـ الدخيل في اللغة العربية ـ فؤاد حسين علي . مجلة كلية الآداب المجلد ١١ ج ١ . مايو سنة ١٩٤٩ م . مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٤٩ م .

٢٤٨ ـ ذيل الالفاظ السريانية في المعاجم العربيـة ـ مار اغناطيوس : افرام الأول بوصوم . مجلة المجمع العلمي العربي م ٢٦ ج ٤ لسنة ١٩٥١ .

الكتب الأجنبية :

249 - Arabic English Lexicon - Edward William Lane . Edinburgh , England , 1956 .

250 - Encyclobaepia of Islam , Vol . I . Eb . Leiden , Brill 1960 .

251 - Encyclopaedia of Religion and Ethics , Art : Religion of the Semitec . Smith Vol . I .

252 - Traveles in Arabia Desert ,Charles , M . Doughty . London , 1936 .

الفهارس

1 – الاحاديث النبوية .
2 – الاشعار .
3 – الاعلام .
4 – التعابير القرآنية .
5 – المحتوى .

فهرس الاحاديث النبوية

فهرس الاشعار

(النون)

فهرس الاعلام

فهرس التعابير

(الباء)

(الثاء)

مثقال ذرة ١٨٧ ـ ١٩٠

(وما يعزبُ عن ربك من مثقـال ذرة فى الارض ، ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ، ولا أكبر الا في كتاب مبين) سورة يونس ١٠ : ٦١ .

(الجيم)

الجحيم ٢١٣ ـ ٢١٥

(والذين كفروا بآياتنا اولئك اصحاب الجحيم) سورة المائـدة ٥ : ١١ .

جراد منتشر ١١٠ ـ ١١١

(فتولَّ عنهم يوم يدع الداعي الى شيء نكُرُ ، خشّعا أبصارهم يخرجون من الاجـداث كأنهم جراد منتشر) سورة القمر ٥٤ : ٦ ـ ٨ .

جمالات صفر ٢٢٨ ـ ٢٣٠

(انها ترمي بشرر كالقصر ، كأنه جمالات صفر) سورة المرسلات ٧٧ : ٣٢ .

الجنة ٢٧٣ ـ ٢٨٠

جهنم ٢٠٩ ـ ٢١١

(الحاء)

حبة خردل ١٩٠ ـ ١٩١

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها ، وكفى بنـا حاسبين) سورة الانبياء ٢٠ : ٤٧ .

الحشر ٣٧

(يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا) سورة مريم ١٩ : ٨٥ .

الحميم ٢٣٥ ـ ٢٣٩

(ان شجرة الزقوم طعام الاثيم ، كالمهل يغلي في (البطون كغلي الحميم . . .) سورة الدخان ٤٤ : ٤٣ ـ ٤٩ .

اليحموم ٢٢٣ ـ ٢٢٤

(واصحاب الشمال ما اصحاب الشمال في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم) سورة الواقعة ٥٦ : ٤١ ـ ٤٤ .

(الخاء)

خشّعا ابصارهم ١٣٥ ـ ١٣٦

(فتولّ عنهم يوم يدع الداعي الى شيء نُكُر ، خشّعا اصواتهم يخرجون من الاجداث كأنهم جراد منتشر) سورة القمر ٥٤ : ٦ ـ ٧ .

خشعت الاصوات ١٣٤ ـ ١٣٦

(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعاً صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا) سورة طه ٢٠ : ١٠٥ ـ ١٠٨ .

خضر ٢٧٦ ـ ٢٨٠

(متكئين على رفرف خضر) سورة الرحمن ٥٥ : ٧٦ .

(الدال)

الداعي ٢٨ ـ ٣٤

(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا ، فيذرها قاعاً صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، يومئذ يتبعون الداعي

لاعوج له ، وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا)
سورة طه ٢٠ : ١٠٥ ـ ١٠٧ .

دكت الجبال ٧٦

(فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة) سورة الحاقة ٦٩ : ١٣ ـ ١٦ .

مدهامتان ٢٧٨

(ومن دونهما جنتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان)
سورة الرحمن ٥٥ : ٦٢ .

الدهان ٧٩ ـ ٨٢

(فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) سورة الرحمن ٥٥ : ٣٧ .

(الذال)

ذرة ١٨٩ ـ ١٩٠

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) سورة الزلزلة ٩٩ : ٨ .

(الراء)

رؤوس الشياطين ٢٥٢ ـ ٢٥٦

(أذلك خيرٌ نُزُلا ام شجرة الزقوم ، انا جعلناها فتنة للظالمين انها شجرة تخرج في اصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين)
سورة الصافات ٣٧ : ٦٢ ـ ٦٧ .

رجت الارض ٦١ ـ ٦٥

(اذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة اذا رجت الارض رجا ، وبُسّت الجبال بَسّا) سورة الواقعة ٥٦ : ١ـ٥ .

(الزاء)

الزجرة ٤٥ ـ ٥٠

(يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة ابصارها خاشعة ، يقولون إإنا لمردودون في الحافرة . أإذا كنا عظاماً نخرة ؟ قالوا تلك اذا كرة خاسرة فانما هي زجرةواحدة فاذا هم في الساهرة) سورة النازعات ٧٩ : ٦ ـ ١٤ .

الزاجرات : ٤٧

(والصافات صفا ، والزاجرات زجرا) سورة الصافات ٣٧ : ١ـ٢

مزدجر : ٤٩

(ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر) سورة القمر ٥٦:٤ .

زرقا ١٤٨ ـ ١٥٩

(يوم يُنفخ في الصور ، ونحشر المجرمين يومئـذ زرقا) سورة طه ٢٠ : ١٠١ ـ ١٠٢ .

الزقوم ٢ ـ ٢٥٢

(ان شجرة الزقوم طعام الاثيم ، كالمهـل يغلي في البطون كغلي الحميم) سورة الدخان ٤٤ : ٤٣ .

زلزلت الارض ٦٣

(اذا زلزلت الارض زلزالها ، واخرجت الارض اثقالها . وقال الانسان مالها ؟ يومئذ تحدث اخبارهـا . . .) سورة الزلزلة ٩٩ : ١ ـ ٤ .

الزنجبيل ٢٩٠ ـ ٢٩١

(ويطاف عليهم بآنية من فضـة ، واكوابٍ كانت قواريرا ، قوارير من فضة قدروها تقديرا ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا) سورة الانسان ٧٦ : ١٤ .

(السين)

سورة الكهف ١٨ : ٣١ .

الساهرة ٤٥

(فانما هي زجرة واحدة ، فاذا هم بالساهرة) سورة النازعات ٧٩ : ١٤ .

نسيّر الجبال ٦٥

(يوم نسيّر الجبال وترى الارض بارزة ، وحشرناهم فلم نغادر منهم احدا) سورة الكهف ١٨ : ٤٦ .

(الشين)

شاخصة ١١٩

(واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة ابصار الذين كفروا) سورة الانبياء ٢١ : ٩٧ .

شفاعة ١٧١ ـ ١٧٤

(واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا تقبل منهـا شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) سورةالبقرة: ٤٨ .

انشقت السماء ٨٨

(وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) سورة الحاقة ٦٩ : ١٦ .

الشمال ١٩٣ ـ ١٩٩

(واصحاب الشمال ما اصحاب الشمال فى سموم وحميم ، وظـل من يحموم) سورة الواقعة ٥٦ : ٤٤ .

الشواظ ٢٢١ ـ ٢٢٢

(يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فـلا تنتصران) سورة الرحمن ٥٥ : ٣٥ ـ ٣٦ .

(الصاد)

صديد ٢٣٩ ـ ٢٤٠

(واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماءٍ صديد) سورة ابراهيم ١٤ : ١٥ ـ ١٦ .

الصور ١٥ ـ ٢١

(ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات والارض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين) سورة النمل ٢٧ : ٨٧ .

الصيحة ٤٣ ـ ٤٥

(ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ، ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) سورة يس ٣٦ : ٤٨ .

(الضاد)

ضريع ٢٤٦ ـ ٢٥٠

(وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية ليس لهم طعام الا من ضريع ، لا يسمن ولا يغني من جوع) سورة الغاشية ٨٨ : ٦٢ .

(الطاء)

طمست ٩١ ـ ٩٢

(فاذا النجوم طمست واذا السماء فرجت ...) سورةالمرسلات ٧٧ : ٨ ـ ١٢ .

(العين)

العدل : ١٧٨ ـ ١٨٣

(واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذمنها عدل ولا همينصرون) سورةالبقرة ٢:٤٨ .

اعمى ١٥١ ـ ١٥٢

(ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكـا ونحشره يوم القيامة اعمى قال ربي لم حشرتني اعمى ؟ وقد كنت بصيرا ؟.) سورة طه ٢٠ : ١٢٤ ـ ١٢٦ .

العهن ٧٦ ـ ٧٧

(يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ، ولا يســأل حميم حميا) سورة المعارج ٧٠ : ٨ ـ ٩ .

(الغين)

الغساق : ٢٤١ ، ٢٠٧

(إنّ جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها احقابا ، لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا الا حميا وغسّاقا) سورة النبأ ٧٨ : ٢١ ـ ٢٥ .

الغسلين ٢٥٧ ـ ٢٥٨

(فليس له اليوم ههنا حميم الاطعام من غسلين) سورة الحاقـة ٦٩ : ٣٠٦ .

الغول ٣٠١ ـ ٣٠٢

(يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين ، لافيها غول ، ولا هم عنها ينزفون) سورة الصافات ٣٧ : ٤٧ .

الاغلال ٢٦٠

(انا أعتدنا للكافرين سلاسلاً واغلالاً وسعيراً) سورة الانسان ٧٦ : ٤ .

(الفاء)

تفجيرا ٢٩٠

(عينا يشرب بها عبـاد الله يفجرونها تفجيرا) سورة الانسان ٧٦ : ٦ .

الفداء ١٧٤ ـ ١٧٨

(إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من احدهم ملء الارض ذهباً ، ولو افتدى به اولئك لهم عــذاب اليم) سورة آل عمران ٣ : ٩١ .

الفردوس ٢٧٤

الفراش المبثوث ١١٠ ـ ١١٤

(يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبـال كالعهن المنفوش) سورة القارعة ١٠٢ : ٢ ـ ٥ ،

منفطر به ٨٨ ـ ٩٠

(فكيف تتقون ان كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به ، كان وعده مفعولا) سورة المزمل ٧٣ : ١٧ ـ ١٨ :

الفاقرة ١١٩ ـ ١٢٦

(وجوه يومئذ باسرة تظن ان يفعل بها فاقرة) سورة القيامـة ٧٥ : ٢٤ ـ ٢٥ .

فواق ٥٣ ـ ٥٦

(وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالهــا من فواق) سورة ص ٣٨ : ١٥ .

(القاف)

قترة ١٤٠

(وجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، اولئك هم الكفرة

الفجرة) سورة عبس ٨٠ : ٤٣ .

القصر ٢٢٦ ـ ٢٢٨

(انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب ، انها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر) سورة المرسلات ٧٧ : ٢٩ ـ ٣١ .

قطران ٢٦٥ ـ ٢٦٨

(وترى المجرمين يومئـــذ مقرنين في الاصفاد ، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) سورة ابراهيم ١٤ : ٤٨ .

مقنعي ١٣١ ـ ١٣٤

(ولا تحسبن الله غافلا عما يعمــــل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتـــد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء) سورة ابراهيم ١٤ : ٤٢ ـ ٤٣ .

(الكاف)

كثيب مهيل ٧٨ : ٧٩

(يوم ترجف الارض والجبال وكانت الجبــال كثيباً مهيلا) سورة المزمل ٧٣ : ١١ ـ ١٤ .

انكدرت ٩٢ ـ ٩٤

(اذا الشمس كورت ، واذا النجوم انكدرت . . .) سورة التكوير ٨١ : ١ ـ ٢ .

كافور ٢٩١ ـ ٢٩٢

(انا اعتدنا للكافرين سلاسلاً واغــلالا وسعيرا ، ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) سورة الانسان٧٦: ٤ـ٦ .

كورت ٩٥

(اذا الشمس كورت) سورة التكوير ٨١ : ١ .

(اللام)

لباسهم ٣٠٨

(يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ، ولباسهم فيهاحرير) سورة الحج ٢٢ : ١٤ - ٢٣ .

لبن ٢٩٢ - ٢٩٨

(مثل الجنة التي وعـــد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن ، وانهار من لبن لم يتغير طعمه) سورة محمد ٤٧ : ١٤ .

(الميم)

مسك ٣٠٤

(ان الابرار لفي نعيم ، على الارائـــك ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) سورة المطففين ٨٣ : ٢٢ - ٢٦ .

تَموُر ٨٥ - ٨٨

(يوم تمور السماء موراً ، وتسير الجبال ســـيراً ، فويل يومئذ للمكذبين) سورة الطور ٥٢ : ٩ - ١١ .

المهل ٨٢ - ٨٥

(انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ، يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميما) سورة المعارج ٧٠ : ٧ - ١١

المهل ٢٤٠

(وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقا) سورة الكهف ١٨ : ٢٩ .

(الواو)

واحدة ٥٢

(وما ينظر هؤلاء الاصيحة واحدة مالها من فواق) سورة ص ٣٨ : ١٢ ـ ١٥ .

وِرْدا : ٢٣٠

(يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ، ونسوق المجرمين الى جهنم وردا) سورة مريم ١٩ : ٨٦ .

وردة كالدهان ٧٩ ـ ٨٢

(فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهــان) سورة الرحمن ٥٥ : ٣٧ .

الموازين ١٨٣ ـ ١٨٧

(فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم في جهنم خالدون) سورة المؤمنون ٢٣:١٠٣

يوفضون ١١٠

(كأنهم الى نُصُب يوفضون) سورة المعارج ٧٠ : ٤٣ .

(النون)

انتثرت ٩٤

(اذا السماء انفطرت ، واذا الكواكب انتثرت) سورة الانفطار ٨٢ : ١ ـ ٣ .

المنادي ٣٤ ـ ٤٣

(واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج) سورة ق ٥٠ : ٤١ ـ ٤٢ .

ينزفون ٣٠٢ ـ ٣٠٤

(لا فيها غول ، ولا هم عنها ينزفون) سورة الصافات٣٧:٤٧

ينسفها ٦٩ ـ ٧١

(ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا ، فيذرهـا قاعا صفصفا . .) سورة طه ٢٠ : ١٠٥ ـ ١٠٦ .

ينسلون ١٠٣ ـ ١٠٦

(ونفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون) سورة يس ٣٦ : ٥٢ .

نصب ١٠٦

(يوم يخرجون من الاجداث سراعاً كانهم الى نصب يوفضون) سورة المعارج ٧٠ : ٤٣ .

ناضرة ١٥٩ ـ ١٦٤

(وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) سورة القيامـة ٧٥ : ٢٢ ـ ٢٣ .

النعيم ٢٣٢

(كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين ، ثم لتسئلن عن النعيم) سورة التكاثر ١٠٢ : ٥ ـ ٨ .

الناقور ٢١ ـ ٢٨

(فاذا نقر في الناقور فذلك يومئـذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير) سورة المدثر ٧٤ : ٧ ـ ٨ .

انهار من خمر ٢٩٨ ـ ٣٠٤

(مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمـه ، وانهار من خمر لذة للشاربين)

سورة محمد ٤٧ : ١٥ .

انهار من عسل ٣٠٤ ـ ٣٠٨

(مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن ، وانهار من لبن لم يتغير طعمه ، وانهار من خمر لذة للشاربين ، وانهار من عسل مصفى) سورة محمد ٤٧ : ١٤ ـ ١٥ .

(الهاء)

مهطعين ١٢٧ ـ ١٣١

فتول عنهم يوم يدع الداعي الى شيء نكر خشعا ابصارهم مهطعين الى الداعي يقول الكافرون هذا يوم عسر) سورةالقمر ٥٤ : ٦ ـ ٨ .

الهمس ١٣٦ ـ ١٣٨

(وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا) سورة طه ٢٠ : ١٠٨

الهاوية ٢١١ ـ ٢١٣

(فاما من خفت موازينه فامه هاوية ، وما ادراك ما هي نار) حامية) سورة القارعه ١٠١ : ٨ ـ ١١ .

الهيم ٢٤٢ ـ ٢٤٦

(ثم انكم ايها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم . .) سورة الواقعة ٥٦ : ٥١ ـ ٥٦ .

(الياء)

اليمين ١٩٢ ـ ١٩٩

(يوم ندعو كل اناس بامامهم ، فمن اوتى كتابه بيمينه فاولئك يقرأون كتابهم ، ولا يظلمون فتيلا) سورة الاسراء ١٧ : ٧١ .

المحتوى

التصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٤	٢٣	أثابي	أثابي
٣١	١٣	ن أ	إن
٦٦	١٣	٢٦٧	٢٧
٦٧	٥	الهيثه	البيئة
٧٠	٥	الطلية	الطللية
٧٠	٧	بروضةٍ	بروضةٍ
٧٠	٨	مُلَتٍ	مُلِتٍّ
٧٥	١٢	وتكون	ويكون
٨٣	١٧	العلا	العلاء
٨٩	١٢	ويعكسه	ويعكسه
١٠٥	٤	سبر	سير
١٢٥	٦	مشغره	مشفره
١٣٦	٩	تَسْمَعٌ	تَسمعُ
١٣٨	٢	أجدُ	أجدٌ
١٤٩	٧	الزِرق	الزَرَق
١٥٣	٧	ياأحمرا	ياأحمر
١٥٥	١٥	زرْقَ	زرقُ
١٥٥	١٥	جارورتهم	جاورتهم

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٥٨	١	ننلها	تنلها
١٧٧	١١	لربَّهم	لربِّهم
١٨٠	٢٢	قتيبية	قتيبة
١٨٦	١٢	بن	ابن
٢٣٦	٥	صُوَّر	صُوِّر
٢٤٣	٨	تَطْرَدٍ	مطرَّدٍ
٢٦٥	٣	للله	لله
٢٦٧	٢	سيم	ترسيم
٢٧٩			لقد اغفلت الاشارة الى مصدر النص الاول وهو مأخوذ من فخر السودان : رسائل الجاحظ ١ : ٢٠٤ .
٢٩٠	١٥	قواريراً	قوارير
١٨٢	١٢		لقد قطعت بعض العبارات وصواب النص : ومعناه فداء ذلك والعدل المثل وذلك ان تقول عندي عِدل غلامك وعدِل شاتك اذا كانت شاة تعدل شاة او غلام يعدل غلاماً.